BOBST LIBRARY
3 1142 02909 2361

$5.50

DATE DUE

DEMCO 38-297

Farrūkh, 'Umar

"

شاعران معاصران

ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابي

Shā'irān mu'āṣirān

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

عضو جمعية البحوث الإسلامية في بومباي

الطبعة الاولى

•

بيروت

١٩٥٤

منشورات

المكتبة العلمية ومطبعتها

شارع الامير بشر – بيروت

١/٣٠٠٠/١٢/٥٤

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

PJ
7764
.Z693
.L65
c.1

الطبعـــة الاولى

•

ربيع الثاني ١٣٧٤
كانون الاول ١٩٥٤

الاهـــداء

إلى صديقي وصديق ابراهيم طوقان المستشرق الاستاذ الدكتور

عبدالرحمن نيكل

A (lois) R (ichard) N Y K L

لما له من الجهود الطيبة

في البحوث الاسلامية والعربية

فهرست الكتاب

الاهـــداء

الكلمة الاولى ٣

مصادر هذه الدراسة ومراجعها ٩

ابراهيم طوقان (١٩٠٦ - ١٩٤١)

ترجمة ابراهيم طوقان ١٣

خصائص شعر ابراهيم ٧٠

اغاريد الهوى ٨٣

تجار السياسة والوطن ١٠٤

المجاهدون الاول ١١٧

اناشيـــد ١٢٢

الموضوعات ١٢٨

ابو القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤)

بيئته العامة ١٥٢

موجزة ترجمته ١٥٦

عناصر شخصيته ١٦٣

خصائص شعره ١٦٦

الغزل عند الشابي ١٨٩

الطبيعة في شعر الشابي ٢٠٠

السياسة والقومية ٢٠٧

الرثاء وما يلحق به ٢١٨

الموضوعيـــات ٢٢٤

التأمل في الحياة ٢٣٨

الفهرست الابجدي ٢٥٤

الكلمة الاولى

شاعران معاصران

كان من حق هذا الكتاب ان يظهر منذ نحو سنتين ، ولكن لم يقدَّر له ذلك إلا اليوم. وكم من كتاب بـــدا لي ان اكتبه وأعلنت عنه ثم مرت السنوات الطوال من غير أن أستطيع أن أبرّ بوعدي . ومثلي في ذلك ايضاً مؤلفون كثار ارادوا ان يضعوا كتباً فشغلتهم الدنيا او حالت دون تحقيق إرادتهم المنون او مرت الليالي سراعاً حتى اصبح ما كانوا يظنون ان الناس بحاجة ماسة إليه نَفلاً لا حاجة إليه ابداً . وكم في ضمير الانسانية شعوبٍ ومدنيات وهياكلَ كان يجب ان تزدهر ثم لم تفعل لأن طريق الانسانية لم يكن مُعبداً لها ولا كانت الأحوال مؤاتية لازدهارها .

إن الارادة عنصر إنساني نبيل لأنها مظهر من مظاهر الحياة الانسانية العاقلة ؛ ولكن الارادة وحدها قلما افادت صاحبها غير التعلل بأوهامه زمناً . إن المهم في الحياة العملية الواقعة هو العمل ، ولعلنا من الناحية العملية نقدر على الشيء ثم نريده . اما إرادته وحدها ـ أي ارادة القيام بعمل ما ـ فليست سبيلاً الى القدرة عليه . إننا نرى في الحياة ان ارادة الافراد والشعوب والامم تتأخر احياناً زمناً طويلاً حتى يصبح بمقدور الافراد او الشعوب او الأمم ان يحققوا ارادتهم ؛ عندئذ تبرز ارادتهم بروزاً يمكنهم من ان يتخذوا لأنفسهم مكاناً في موكب التاريخ .

ان طريق البشرية مخطوط في صفحة هذا العالم ولكن تحفّ به احوال كثيرة . وعمل

الانسان ليس تبديل الطريق بل اغتنام الفرص للاسراع في قطع تلك الطريق او لتسهيل قطعها عليه . اما الارادة التي تبدل وجه التاريخ فهي الارادة التي يسبقها الفكر وإدراك الاحوال المحيطة بطريق الانسانية . وحينما تصبح للانسان قدرة على تحقيق ارادته ، فحينئذ فقط يصبح لارادته قيمة .

✡

يتناول هذا الكتاب شاعرين معاصرين لنا ، كانا من احياء النصف الأول من القرن العشرين . ووجه القران بينهما في كتاب واحد كثرة أوجه الشبه في حياتهما الخارجية وفي معظم شعرهما :

لقد عاشا كلاهما في فترة قريبٍ احدُ طرفيها من الآخر : وُلد ابراهيم طوقان قبل ابي القاسم الشابيّ بأربع سنوات ، ولكن توفي بعده بسبع سنوات . وكذلك حمل كل واحد منهما مرضاً خطيراً ثم قطع به شوط الحياة من غير ان ينقص ذلك من مقدار انتاجه الوجداني او من قيمته شيئاً ؛ بل لعل هذ المرض الخطير قد أذكى في نفس صاحبينا كليهما جذوة الشاعرية . ولعل من أبرز تشابه حياتهما الخارجية ان كل واحد منهما اشتد مرضه في اواخر ايامه فنقل الى مستشفى اجنبي في عاصمة بلاده ثم توفي فيه فنقل في اليوم التالي الى مسقط رأسه ليحتفل آله وصحبه بدفنه : توفي الشابي في المستشفى الايطالي في تونس العاصمة ، وفي اليوم التالي نقلت جثته الى مسقط رأسه الشابّيّة . وتوفي ابراهيم طوقان في المستشفى الافرنسي في القدس ثم نقل جثمانه في اليوم التالي الى نابلس .

اما في الشعر فكلاهما امتاز بقريحة فياضة وبنفحة شعرية عامرة بالقوة، وكلاهما توفّر على الغزل والوطنية عازفاً عن فنون التكسب من مديح ورثاء ومماثلة . ولا ريب في انهما كليهما تركا في قوميهما خاصة وفي العرب عامة اثراً بارزاً .

على ان بين الشاعرين ايضاً أوجه خلاف اساسية او غير اساسية ، ولكن هذه هذه الأوجه من الخلاف إنما هي ايضاً سبيل من سبل الموازنة :

جاء ابراهيم طوقان من أدنى الجناح الأيمن الشرقي للعالم العربي ، من فلسطين .

وجاء الشابي من أدنى الجناح الأيسر الغربي للعالم العربي ، من تونس . وكما ان الاستعمار الافرنسي ما زال يرهق تونس منذ نحو سبعين سنة،منذ عام ١٨٨١ للميلاد، فان الاستعمار الانكليزي لم يحتج الى اكثر من ربع قرن حتى يقضي على عروبة فلسطين . فاذا ظهر شيء من الخلاف في حياة ابراهيم طوقان وحياة الشابي ثم في شعرهما فانما مردّ ذلك الى الاختلاف في حال وطنيهما .

وكان الشابي شقياً في زواجه بينما كان ابراهيم طوقان هانئاً في زواجه مطمئناً . من اجل ذلك اندفع الشابي بعد زواجه الى الزلل في مواطن الهوى بينما زواج ابراهيم طوقان كان منقذاً له من الزلل القديم وعاصماً له من كل زلل مقبل .

وامتلأ شعر ابراهيم طوقان بالامل - على الرغم مما كان يرين عليه احياناً من مظاهر التشاؤم والخوف على مستقبل وطنه . اما الشابي فكان شاعراً متشائماً يائساً يحاول ان يزيّن شعره احياناً بشيء من روح الامل والتفاؤل . إلا انه كان متقلباً بين الامل واليأس، وكان اليأس عليه اغلب .

اما انا في هذا الكتاب فعارِضٌ لا موازن: انني اعرِض على القارىء ما عرفت من حياة هذين الشاعرين وما ادركته من خصائص شعرهما . ولكنني لن آخذ نفسي بالموازنة بين شعرهما ولا بالتعرض لتفضيل بعضهما على بعض لأن ذلك يقتضي ان يزيد حجم هذا الكتاب زيادة كبيرة فضلاً عن ان المفاضلة بين شاعرين مثل اللذين نحن بصددهما غير ذات جدوى كبيرة .

ولعل قارىء هذا الكتاب سيأخذ علي انني كنت اكثر تبسطاً وتدقيقاً في دراسة حياة ابراهيم طوقان وشعره مني في دراسة حياة الشابي واشعاره . ان سبب ذلك ظاهر .

ان ابراهيم طوقان اخي وصديقي عشت واياه ست سنوات في بلدي بيروت وسنة في بلدته نابلس وسنة في بغداد ثم كانت بيننا في اثناء ذلك مراسلة لم تنقطع منذ ان عرفته عام ١٩٢٣ الى الشهر الذي سبق وفاته ، نيسان ١٩٤١ . ولا تزال رسائله كاملة بين يدي اقلبها وانا اضع هذا الكتاب . وكذلك كان بين يدي ، وانا اضع هذا الكتاب ، مجموع شعره بخط يده او بخط اخيه الاستاذ احمد طوقان منقولاً عن نسخة بخط يده هو .

اما الشابي فلم اعرف سوى بعض شعره وبعض ما كتب عنه ، ولا يزال لدي مشاكل كثار في حياته واشعاره لم استطع حلها . واذا كان بعض شعر الشابي المعروف مفروقاً فرقين : فرقاً قاله الشاعر قبل ان يبلغ العشرين وفرقاً قاله بعد العشرين،فان قصائدابراهيم طوقان مؤرخة لدي بالعام وبالشهر وباليوم احياناً . حتى ان هنالك قصائد اعرف تطور نظمها من خطه هو في رسائله إلي او في دفاتره التي دوّن فيها اشعاره ، اضف الى ذلك اني اعرف الملابسات التي احاطت بمعظم قصائده .

ومع ان الشابي اليوم اشهر في العالم العربي من ابراهيم طوقان ، فان الذين درسوا ابراهيم طوقان وشعره كانوا احسن تقيداً بالبحث العلمي وابرع في استخراج خصائصه الفنية ، فالطريق الى دراسة شعر ابراهيم طوقان احسن تمهيداً من الطريق الى شعر الشابي.

ولقد كنت انا دائماً اشعر ان دراسة شعر ابراهيم طوقان واجب ملقى على عاتقي ، لا لأنه صديقي فحسب ، بل لأنني ـ بما لدي من رسائله وبما اعرفه من حياته الجدية وبما كان يفضي الي به من سريرة نفسه ـ اجدر من يتصدى لذلك ، على الرغم من اعتقادي بان ثمت عقبات كثيرة تعترض سبيلي دون الوصول الى الكمال في ما ارجوه وما اتعرض له .

✡

اما الشابي فانني لا ازال اعتقد انه شاعر مهمل ، ذلك لأن الذين درسوا حياته وآثاره انما حرَصوا على ان يروا مظاهره الخارجية ، انهم لم يحاولوا ان يستنطقوا الشابي ترجمة حياته ـ كما فعلت انا في ترجمة ابراهيم طوقان ـ ولا ان يستخرجوا خصائصه الفنية واضحة متحيزة. وليس الذنب كله في ذلك على الدارسين، بل على الشاعر نفسه ايضاً ، ذلك لأن الشابي شاعر خيالي ميال الى الغموض والرمز ، بينما ابراهيم طوقان شاعر ، على تجديده في المعنى والاسلوب ، احسن سيراً على عمود الشعر العربي .

✡

ومن أوجه الخلاف في عناصر الشخصية بين الشاعرين ان ابراهيم طوقان كان يتقن

اللغة الانكليزية ويعرف الادب الانكليزي معرفة صحيحة وكان له اطلاع واسع على آثار اصحاب المذهب الوجداني (الرومانتيكي) امثال كولريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤)وكيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) وشيلي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) وبيرون (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) . وكذلك كان له إلمام يسير على كل حال بالفرنسية من تعلمه في الجامعة الاميركية . ويبدو انه كان يعرف شيئاً يسيراً ايضاً من التركية [١] كما انه حرص مدة على تعلم الالمانية وكتب لي ذات يوم رسالة بهذه اللغة تبلغ نحو صفحة [٢] . ثم انه تعلم بضعة دروس من اللغة الاسبانية [٣] . اما الشابي فلم يعرف إلا العربية . ومع ان الشابي قرأ كثيراً ـ كما يقال ـ من النقول العربية عن اللغات المختلفة ، فان الثروات الادبية الحقيقية في هذه اللغات كانت مغلقة في وجهه . فتذوُّق الادب لا يقوم على قراءة الافكار المنقولة ولكنه يقوم على تفهم الاجواء الادبية والثقافية والشعبية التي تنشأ فيها افكار الاديب وعلى ادراك خصائص الاساليب التي تجري فيها آداب الامم .

ومن أوجه الخلاف ايضاً ان ابراهيم طوقان نال ثقافة جامعية عصرية تامة ، وكان اثر هذه الثقافة يظهر جلياً في شعره ، بينما هذا الجانب مفقود عند الشابي .

ومن ذلك ان الشابي أغرق في الاعجاب بادباء المهجر بينما كان ابراهيم طوقان اكثر توفراً على مطالعة شعر شوقي وحافظ والبارودي من الشعراء المعاصرين لنا ، ثم على شعراء العصر العباسي خاصة كأبي نواس والعباس بن الاحنف والبحتري وابن المعتز وسبط ابن التعاويذي ، فلا غرو إذن إذا اختلف شعراهما مادة وبناءً .

وتقلب ابراهيم طوقان في مناصب مختلفة من التعليم الى الادارة البلدية الى الصناعة والتجارة الى الاشراف على مناهج الاذاعة فاستطاع من هذه السبل في الحياة ان يحتك

---

(١) الدفتر ١٩٣٣ ، ص ٢٠

(٢) رام الله ، ؟ تموز ١٩٣٥ ؛ ؟ ، ١٧ تموز ١٩٣١ ؛ رام الله ، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٣) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ راجع القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .

بالناس وأن يعرفهم وأن يعرف الحياة نفسها معرفة صحيحة . ولا اعلم إذا كان الشابي قد تقلب في مناصب مشابهة او انه قد تقلب في مناصب ما .

✡

ومع هذا كله فان مقارنة شعر الشابي بشعر ابراهيم طوقان يجب ان تنكشف عن اشياء مثقفة وطريفة في وقت واحد ، ذلك لمن أراد ان يقوم بمثل هذه الموازنة .ولا ريب في ان كلا الشاعرين عبقري، وإن كانت عبقرية كل واحد منهما تشق طريقاً خاصاً بها.

مصادر هذه الدراسة ومراجعها

١ ـ مراجع عامة لا اشارة فيها الى ابراهيم طوقان ولا الى ابي القاسم الشابي ولكن فيها مبادىء ومعلومات ضرورية لتفسير بعض شعرهما او بعض احوالهما :

مقدمة ابن خلدون : الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر الخ . تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠ .

الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، تأليف ابن الطقطقى ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، بلا تاريخ .

موجز تاريخ البلدان العراقية ، تأليف السيد عبد الرزاق الحسني ، الطبعة الثانية ، مطبعة العرفان ، صيداء ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م .

ابو تمام ، تأليف عمر فروخ ، بيروت ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٥ .

ابو نواس (دراسة ونقد) ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الثالثة[1] ، بيروت ١٣٦٥ هـ = ١٩٤٦ م .

ابو نواس (مختارات) للدكتور عمر فروخ ، بيروت ، ١٣٥١ هـ = ١٩٣٣ .

وحدي مع الأيام ، مجموعة شعر ، نظم فدوى عبدالفتاح طوقان ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

المشرد ، شعر ، نظم ابي سلمى عبدالكريم الكرمي ، مطبوعات المكتبة الكبرى للتأليف والنشر ، دمشق ١٩٥٣ .

Penrose = **That They May Have Life,** By Stephen B.L. Penrose, New York 1941.

A U B Directory = The American University of Beirut, Directory of Alumni 1953, Beirut 1953.

شبح الأندلس (مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين الكبرى) تأليف برهان الدين عبوشي (بيروت) ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م .

(١) في هذا الكتاب اشارة الى ابراهيم طوقان .

اقاصيص ، تأليف عبد الحميد ياسين ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .

خلاصة تاريخ تونس ، تأليف حسن حسني عبد الوهاب ، الطبعة الثالثة ، نشرتها دار الكتب العربية الشرقية ، تونس ، ١٣٧٣ هـ .

رمزي – الاستعمار الفرنسي في شمالي افريقية ، تأليف احمد رمزي ، القاهرة ١٣٦١ هـ = ١٩٤٨ م .

القضية التونسية – نص الخطب الثلاث التي ألقاها الأستاذ احمد شاه بخاري ممثل باكستان في مجلس الأمن بتاريخ ٤ و ١٠ و ١٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٢ .

Tunisian Question — The Tunisian Question in the United Nations (the text of the Statement by Prof . Ahmad S. Bokhari, Pakistan Permanent Representative in the Security Council on April 4, 1952).

٢ ـ مراجع فيها آراء في الشاعرين او اشعار لهما :

الرسالة (مجلة اسبوعية) ، القاهرة .

الامالي (مجلة اسبوعية تبحث في الثقافة) ، بيروت .

★

العوامل الفعالة في الادب العربي ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ، (الحلقة الخامسة عشرة من سلسلة العلوم الشرقية للجامعة الاميركية في بيروت)، القاهرة ١٩٤٩ .

الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، تأليف الاستاذ انيس المقدسي ، جزءان (الحلقة الثانية والعشرون [١] والثالثة والعشرين من سلسلة العلوم الشرقية للجامعة الاميركية في بيروت) الجزء الاول بلا تاريخ [٢] ، الجزء الثاني ١٩٥٢ .

٣ ـ مصادر فيها آراء في ابراهيم طوقان خاصة او اشعار له :

ديوان ابراهيم طوقان ، اختاره ابراهيم طوقان نفسه قبل موته (لم ينشر بعد) .

دفاتر ابراهيم ، ثمانية دفاتر كان يدون فيها ابراهيم طوقان اشعاره . في هذه الدفاتر اشعار ضم بعضها الى الديوان الذي أعده ابراهيم بنفسه وأغفل بعضها وخصوصاً ما كان في الهجاء والمجون . وهذه الدفاتر لا تضم كل ما قاله ابراهيم من الشعر .

رسائل ابراهيم طوقان الى عمر فروخ من ١٩٢٤ – ١٩٤١ . يكون الاستشهاد بهذه الرسائل في هذه الدراسة بذكر اسم البلد الذي كتبت فيه الرسالة : نابلس ، القدس ، عمان ، بيروت ، متبوعاً بتاريخ الرسالة .

---

(١) على هذا الجزء : الحلقة الحادية والعشرون ، وهو خطأ مطبعي .

(٢) على هذا الجزء تاريخ هو ١٩٤٩ ، ولكنه طمس عمداً لان صدور ذلك الجزء تأخر عن ذلك .

مذكرات عمر فروخ ١٩٢٤ – ١٩٢٥ [١] .

اخي ابراهيم ، تأليف فدوى عبد الفتاح طوقان ، المكتبة العصرية ، يافا ١٩٤٦ .

الاحد (مجلة اسبوعية) ، دمشق .

الاحرار (جريدة يومية) ، بيروت .

الاحرار المصورة (مجلة اسبوعية) ، بيروت .

الاقدام

بيروت (جريدة يومية) ، بيروت .

الجامعة الاسلامية (جريدة يومية) ، يافا .

الجامعة العربية (جريدة يومية) ، يافا .

الجزيرة (جريدة يومية) ، يافا .

الحياة الجديدة (مجلة) صاحبتها حبوبة حداد ... (تشرين الثاني ١٩٢٤ وآذار ١٩٢٥)

الدفاع (جريده يومية) ، يافا .

الشوري (جريدة يومية) القاهرة (العدد ٣٨ ، ١٦ يوليو (تموز) ١٩٢٥ .

صوت الشعب (؟) العدد ١١٥ وعدد آخر تالٍ .

العهد الجديد (جريدة يومية) ، بيروت (النصف الثاني من ايلول ١٩٢٩) .

فلسطين (جريدة يومية) .

الكلية (مجلة شهرية تصدر في الجامعة الاميركية في بيروت) .

لسان الحال (جريدة يومية) ، بيروت (١٩٢٩) .

مجلة سركيس (شهرية) ، القاهرة .

مرآة الشرق (مجلة شهرية) ، ريو دى جانيرو ، البرازيل (١٩٣٠) .

المعرض (مجلة اسبوعية) ، بيروت .

المفيد (جريدة يومية) ، دمشق (٢٤ مايس / ايار ١٩٢٥) .

المنتدى (مجلة ثقافية اسبوعية مصورة) يصدرها مكتب المطبوعات في القدس بالاشتراك مع القسم العربي من دار الاذاعة الفلسطينية – القدس .

الوادي (مجلة اسبوعية سياسية) ، بغداد .

٤ ـ مصادر فيها آراء في ابي القاسم الشابي خاصة واشعار له :

---

(١) هنالك معلومات غير مدونة ، رجعت فيها الى ذكرياتي والى ذكريات الاستاذ احمد عبد الفتاح طوقان ، اخي ابراهيم .

السنوسي : الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) [1] ، تأليف زين العابدين السنوسي ، الجزء الاول [2] ، الطبعة الاولى ، تونس ١٣٤٦ هـ [3] .

فهمي : الروائع لشعراء الجيل ، تأليف محمد فهمي ، الجزء الاول ، لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، القاهرة (بلا تاريخ) .

الشابي : حياته ، شعره ، تأليف ابو القاسم محمد كَرُّو ، منشورات المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٥٢ ، هذا الكتاب هو في الحقيقة مجموع لشعر الشابي فيه نحو ١٤٠٠ بيت ، وفيه مقدمة مفصلة في حياة الشابي وخصائصه (وقداعيد طبعه ١٩٥٤) .

الاديب (مجلة شهرية) ، بيروت .

الاسبوع : (مجلة اسبوعية جامعة حرة) يصدرها في تونس الاستاذ نور الدين بن محمود [4] . لدي من هذه المجلة اعداد متفرقة فيها اشياء عن الشابي .

المكشوف (مجلة اسبوعية) ، بيروت .

الهلال (مجلة شهرية) ، القاهرة .

---

(١) يبدأ القرن الرابع عشر الهجري في ١٢ تشرين الثاني ١٨٨٢ .

(٢) هذا الجزء موسوم هكذا : مجموعة بلاغة العرب في تونس ، الحلقة الاولى ؛ الادب التونسي في القرن الرابع عشر ، قسم المنظوم .

(٣) ١٩٢٦ – ١٩٢٧ م .

(٤) يصدر الاستاذ نور الدين بن محمود مجلة شهرية اسمها « الثريا » نشر فيها – على ما يبدو – اشياء كثيرة للشابي وعنه . ولكنني لم أر هذه المجلة .

ترجمة ابراهيم طوقان

آل طوقان

ان الكلام على الانساب لا يدل على شيء كبير في الدراسات الادبية والعلمية على الاخص . فليس احد منا اليوم يستطيع ان يذكر عمود نسبة تثبتاً ويقيناً ، فالانساب قد وقع فيها الاختلاط والنسيان والدعوى [1] . حتى لو قال قائل إنه ما من انسان يعرف حقيقة نسبه بعد اجداده الاقربين لصدق . ثم ان الانسان لو عرف عمود نسبه بشيء من التثبت والايقان لما دل ذلك على اتجاه ادبي او علمي معين . ان البشر يرثون ، من طريق الولادة ، خصائصهم الجسمانية ، اما خصائصهم الادبية والاجتماعية فيتناولونها من بيئتهم ومن احتكاكهم بالارض وبالناس .

على ان كلمة موجزة في آل طوقان وخصومهم آل عبد الهادي قد تنير لنا سبيلاً من السبل في دراسة شعر ابراهيم .

اسلاف ابراهيم

يرجع نسب آل طوقان - فيما يقال - الى بطن من بطون العرب الموالي يعرفون بالحياريين . وهؤلاء بدو لا يزالون الى اليوم ضاربين خيامهم في غرب بادية الشام بين حمص وحماة . واذا كان ذلك كذلك فيجب ان يكون آل طوقان فرعاً من آل طوق الذين كانوا نازلين في تلك النواحي والذين مدحهم ابو تمام [2] .

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ١٢٨ - ١٣١ .
(٢) راجع ابو تمام الدكتور عمر فروخ ص ٧٧ ، ٧٩ .

وفي اواسط القرن التاسع للهجرة والرابع عشر للميلاد كانت الشام ومصر في حكم المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م) وكان يسودهما شيء كثير من ضعف الادارة ومن الفوضى . ويبدو ان « آل طوقان » لم يكونوا مسرورين من مقامهم في منطقة حمص على طريق الغزوات المغولية عبر العراق الى الشام وآسية الصغرى ، ولا كانوا ـ فيما يبدو ـ على اتفاق مع المماليك ، كما سنرى ، فحملوا اثقالهم واتجهوا جنوباً ليرتادوا لهم منزلاً اهدأ وابعد من قبضة المماليك العنيفة . وهكذا استقروا في نابلس وتحضروا وانشأوا الدور والبساتين بعد ان نزلوا كلهم في تلك البلدة متقاربين متجاورين . ولعل ذلك كان منذ خمسة قرون او نحوها .

ولما جاء الفتح العثماني (٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) كان قد انقضى على مجيء ال طوقان الى نابلس نحو جيلين من الدهر . ولقد مال آل طوقان الى الاتراك فوالوهم هم واحلافهم بنو الجرّار ثم ثبتوا على هذا الولاء ، مما يوحي بان صلاتهم الاولى بالمماليك كانت غير ودية . من اجل ذلك لم يكن مستغرباً ان يدخل بعض آل طوقان في جيش الانكشارية [١] . وقد كان من هؤلاء ابراهيم آغا الشربجي الذي ينتمي اليه فرع ابراهيم .. ولقد ظل هذا اللقب « آغا » متوارثاً في هذا الفرع ، وكان آخر من حَرَص على التلقب به والد ابراهيم ، عبد الفتاح آغا طوقان .

وكذلك كان من المنتظر ان يقف آل طوقان واحلافهم آل الجرّار ـ في اثناء حملة ابراهيم باشا على الشام [٢] ـ الى جانب العثمانيين وان ينحاز خصومهم آل عبد الهادي ، اصحاب قرى جنين (شمالي غربي فلسطين) الى ابراهيم باشا . عند ذلك قرّب ابراهيم باشا آل عبد الهادي وعين منهم ولاة على صيداء ايضاً . اما آل طوقان فاضطهدهم ابراهيم باشا ونفى بعضهم الى مصر ، ثم هرب بعضهم الآخر في البلاد ولم يبق منهم في نابلس إلا

---

(١) يني شري (شهري) : المواطن الجديد (الجنود الاحداث) ، كانوا يؤلفون الجيش المحترف الذي استبد بالامور السياسية فيما بعد حتى استطاع السلطان محمود الثاني ان يقضي عليهم .

(٢) من سنة ١٢٤٧ ـ ١٢٥٦ للهجرة (عام ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ م) .

الاحداث ... ومنذ ذلك الحين برزت العداوة بين الاسرتين ـ آل طوقان وآل عبد الهادي ـ ثم استمرت الى ان رتق منها ابراهيم نفسه فتقاً يسيراً لما تزوج في آل عبد الهادي .

اما اخوال ابراهيم فهم آل عسقلان من نابلس ومن المتصلين بآل طوقان بالمصاهرة من قبل . كان آل عسقلان هؤلاء من الموالين للعثمانيين، كآل طوقان ، ومعن المعروفين بالشجاعة والفروسية فخدموا الدولة العثمانية في الجندية والشرطة وفي الدرك الفرسان ، وجميع اخوال ابراهيم كانوا اما في الشرطة او في الدرك .

وتزوج عبد الفتاح آغا [١] ابنة خاله فوزية [٢] بنت امين عسقلان ورزق منها عشرة اولاد هم على التوالي احمد وابراهيم وبندر [٣] وفتايا [٤] ويوسف ورحمي [٥] واديبة وفدوى [٦] ونمر وحنان [٧] ، وقد ولدت عام ١٩٢٧ .

ونابلس التي ولد فيها ابراهيم وقضى شطراً يسيراً فقط من حياته مدينة محافظة ، بل موغلة في المحافظة ، ولذلك كانت البيئة الاجتماعية فيها مغلقة تفرض على اهلها قيوداً لا تُفرض عادة على اهل البيئات المطلقة . وأبرز خصائص البيئات المغلقة أن لأهلها فضولاً

---

(١) ولد سنة ١٢٩٢ هـ (عام ١٨٧٥ م) وتوفي ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) .
(٢) ولدت سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) .
(٣) بندر في الاصل من اسماء الصبيان عند البدو وقد اطلقه عبد الفتاح آغا على فتاة .
(٤) فتايا اسم فتاة وهو من الاسماء المعروفة بين البدو ايضاً .
(٥) رحمي من اسماء الصبيان وهو صيغة تركية مثل شوقي وصبري ورمزي وقدري . ولكن ابراهيم يريد ان يجعله صيغة عربية فيضبطه بالياء المشددة ، اي ياء النسبة (راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩) .
(٦) فدوى [ولدت نحو سنة ١٣٣٤ هـ او عام ١٩١٤ م] وقد توسم فيها ابراهيم تذوقاً للادب فعني بها عنايه خاصة فاصبحت اديبة شاعرة لها كتاب « اخي ابراهيم » (يافا ١٩٤٦) ومجموع شعر « وحدي مع الايام » مصر ١٩٥٢ . وكانت فدوى تتولى تحويل رسائل ابراهيم الواردة الى نابلس اليه حيث يكون ، وقد ارسلت اليه مرة رسالة الى نابلس وكان هو في القدس ، فارادت تحويلها فاخطأت وكتبت « الجامعة العربية » مكان الكلية العربية . والجامعة العربية جريدة كان القائمون عليها لا يحملون مودة لابراهيم فضاعت الرسالة (نابلس ١٣ اذار ١٩٣٤) ولما نشرت دراسة « ابو تمام » (بيروت مطلع ١٩٣٥) اهديت الى ابراهيم نسخة فكتب الي يقول : كتاب « ابو تمام » هدية فاخرة ... شقيقتي فدوى تقرأه الآن ، فاذا انتهت من قراءته اقرأه انا ... (نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥) . وخط فدوى يشبه خط ابراهيم شبهاً كبيراً .
(٧) اقترح ابراهيم تسمية اخته هذه « جنان » بالجيم المكسورة . وجنان اسم فتاة يرد في شعر ابي نواس . غير ان الذين كانوا ينادون جنان كانوا يسكنون الجيم او يحرفون الاسم تحريفاً آخر فجعل ابراهيم الاسم حنان ، وهو اقل خضوعاً للتحريف من جنان .

شديداً في تسقط بعضهم لأخبار بعض ولانتقاد بعضهم بعضاً على أيسر الامور وعلى أقل السلوك شذوذاً عن مألوف العامة . ومثل هذه البيئات لا توافق اصحاب العبقريات . ثم هي مقلقة ايضاً للحياة العادية المألوفة . كان ابراهيم يقول لي : ما أشد الحياة في نابلس ! ان الانسان لا يكاد يعمل في نابلس شيئاً حتى يعرف به كل إنسان . ثم يقول : ان نسبة المتعلمين في نابلس اعلى منها في جميع المدن الفلسطينية، ومع ذلك فليس في نابلس جريدة، ذلك لأن الاخبار تنتشر في نابلس قبل ان يتاح للجرائد ان توزعها على الناس [1] .

وبيت طوقان في نابلس بيت جاه وغنى وكرم وشيء من الاقطاعية النيرة . على ان عبد الفتاح آغا قد ربى اولاده على شيء كثير من الحرية والانطلاق ، وكان رجلاً عاقلاً يصارح اولاده بكثير من شؤونهم التي يفضل آباء كثيرون ان يكتمونها عن اولادهم . ولو كان أتيح لك ان تشهد عبد الفتاح آغا سائراً مع احد اولاده او جالساً يحدثه لتولاك العجب من روح المنطق ، وحسن المباسطة ومدى الاحترام « للشاب الناشىء » مع عطف ابوي نادر وتفهم بالغ للزمان المقبل الذي سيعيش فيه ابناؤه . وكانت معاملته المادية والمعنوية لأولاده مثالية سمحة .

وأم احمد ، والدة ابراهيم ، امرأة برزة تباشر امورها بنفسها . وهي تتصف بكثير من الذكاء الفطري ومن المرح اللذين انتقلا الى اولادها . وخصوصاً ابراهيم . وهي ايضاً ، كزوجها ، تتفهم حاجات الجيل الناشىء من اولادها وتدرك وجوب قيام التربية على اساس من العقل الى جانب الحنان والرعاية. من اجل ذلك نشأ جميع اولادها نشأة صحيحة نافعة: فأحمد عالم رياضي، وابراهيم اديب شاعر عبقري، ويوسف لا يقل في نشاطه العملي ومقدرته التجارية وإشرافه على الاعمال الزراعية عن ابراهيم وأحمد في فنيهما . اما حسن رحمي [2] ،

---

(١) وإلى الآن لم تنشأ في نابلس جريدة !

(٢) لآل طوقان في نابلس مصبنة كبيرة ، وكذلك لآل الشكعة مصبنة مثلها . وكان لآل الشكعة « ماركة مسجلة » على صابونهم هي « صابون حسن نابلسي » على اعتبار حسن نعت بمعنى جيد ، ونابلسي نسبة الى مكان الصنع . وراجت هذه « الماركة » رواجاً كبيراً وخصوصاً في مصر . ورأى عبد الفتاح آغا ان يستفيد من السوق فلما ولد ولده السادس وكان صبياً سماه حسن رحمي ثم دمغ صابونه بالماركة « صابون حسن نابلسي » وأقام آل الشكعة الدعوى على عبد الفتاح آغا ، ولكن عبد الفتاح آغا ربح الدعوى لما فسر عمله بأنه جعل هذه الماركة لابنه : « صابون حسن ». فلما قيل له فكيف اضفت لفظة نابلسي ؟ فقال ، أوليس ابني نابلسي من نابلس ؟

او الحاج رحمي ، الذي لم يستطع ان يبرع في العلم قط [1] ، فانه رجل جَلْد يحمل التبعة ويستقل بها. وقد كان له فضل كبير على الاهتمام بشؤون ابراهيم في نابلس وفي بغداد وفي بعض اسفاره الاخرى ، كما انه رافق والده الى الحج وحج معه وأحاطه بعناية رفيقة قديرة . اما نمر فهو طبيب ذكي واسع الادراك عظيم المرح . اما في البنات فان فدوى اديبة حصيفة ، وكان شعرها يبشر بمستقبل عظيم لولا ارتدادها الى الرمز والمبالغة فيه احياناً . انها شاءت ان تتخلى عن متانة اسلوبها ونضج موضوعاتها ، اللذين لا يتفقان إلا للقليلين ، لتتخذ لشعرها طابعاً رمزياً لا يكاد يعجز عنه اليوم فتى او فتاة ينظمان شعراً . لقد كنا نجد في شعرها الاول « نَفَس » ابراهيم ثم أرادت ان تلج بشعرها هذا أفق الغموض لتعبر عن نفس مكبوتة قلقة وعن قلب حائر عاجز . لقد تركت شعرها الذي كان يوحي بالعزة لتتبذل به اشطراً تستجدي بها العطف .

مولده ونشأته الأولى

ومع ان ابراهيم ينحدر من اسرتين عرفتا بصحة الاجسام وقوتها ، ومع ان اخوته وابناء اعمامه يتمتعون بأجسام فيها صلابة وقوة [2] ، فانه نشأ ضعيفاً مهزولاً عليلاً يشكو عدداً من الامراض . ومرد ذلك في علم الطب الى عوامل كثيرة متمازجة ، إلا ان ابراهيم نفسه يحب ان يرد سبب ضعفه الى عامل معين ، قال في احدى رسائله [3] :

« واما المرض فهو كالعمر والرزق والتوفيق والفشل [4] في هذه الحياة يُسير الانسان فيها ولا يخير ويلاقي حظه معها إما سيئاً وإما حسناً . وأنا من بين اخوتي الباقين (وعددهم تسعة) حملت بي الوالدة ام احمد إثر مرض خطير كان اشرف بها على الموت . فكنت انا

---

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .

(٢) كتب يوسف ، اخو ابراهيم ، مرة إلي فقال (بيسان ، ٢٠ القعدة ١٣٥١ ، ١٨ مارس – آذار – ١٩٣٣): «اما صحتي فالحمد لله من نوع « وألنا له الحديد » (القرآن الكريم ، سورة سبأ – ٣٤ : ١٠).

(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

(٤) المفهوم انه يقصد الخيبة في مقابل التوفيق ، ولكنه قال « الفشل » للدلالة على الخيبة وهو خطأ شائع . ومعنى الفشل الضعف .

في احشائها عندما كانت هي في دور النقاهة واعضاء جسمها وقوتها بوجه العموم ضعيفة ... فجئتُ (مركباً) على مرض وضعف ... »

ولد ابراهيم سنة ١٣٢٣ للهجرة (١٩٠٥ م) في مدينة نابلس في الجو الذي وصفناه قبل قليل (ص١٥-١٦). ويبدو انه كان يتمتع بعطف خاص لضعفه وهُزال جسمه، وهذا امر مألوف في حياة الاسر كلها. ووافق طفولةَ ابراهيم شيخوخةُ جده لأبيه داوود آغا (ت ١٩١٩) الذي كان يتعهده كلما عاد من المدرسة الى البيت بالاستماع الى ما تعلمه في صدر النهار، او انه كان بهذا العمل يسرّي عن نفسه فقط. وعلى كل فان ابراهيم قد استفاد من ذلك استفادة كبيرة في طبع شخصيته وتوجيهه وجهة ادبية.

وتلقى ابراهيم دروسه الابتدائية في المدرسة الرشادية الغربية، في الجانب الغربي من نابلس، طوال سِني الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨). ولعل وجود مدرسين في تلك المدرسة من امثال الشيخ ابراهيم ابي الهدى الخماش والشيخ فهمي هاشم من الذين كان لهم صلة بآل طوقان قد خص ابراهيم بعناية. على انه لم يكن من المنتظر ان تتناول هذه العناية شيئاً اكثر من التثقيف بالأدب العربي. وتلك كانت ثروة التعليم كلها في ذلك الحين.

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى ونزل الاحتلال البريطاني بفلسطين انتقل ابراهيم فجأة الى بيئة مطلقة، الى القدس، ودخل مدرسة المطران تلميذاً داخلياً بعيداً عن رقابة اهله إلا قليلاً، لوجود اخيه احمد في ذلك الحين تلميذاً في الكلية الانكليزية. في هذه الفترة عرف ابراهيم - من طريق اخيه احمد - الاستاذ نخله زريق (ت ١٩٢٠) معرفة يسيرة، ولكنها معرفة متسقة في اتجاهها مع ما عرفه من الشيخين الخماش وهاشم، نحو الادب العربي.

وفي تشرين الاول من عام ١٩٢٠ انتقل احمد الى الجامعة الاميركية في بيروت وبقي ابراهيم وحده في مدرسة المطران وقد انقطعت كل رقابة عليه - هذا إذا كنا نعد وجود شاب في السابعة عشرة من عمره قرب اخ له يصغره بعامين رقابة -. والجدير

بالذكر هنا ان ابراهيم لا يذكر مدرسة المطران من الناحية الاخلاقية بالخير ابداً [1] . ثم بعد ان قضى ابراهيم اربعة اعوام في مدرسة المطران (١٩١٩ ـ ١٩٢٣) غادرها وله من العمر ثمانية عشر عاماً الى الجامعة الاميركية حيث قضى ستة اعوام أخر (١٩٢٣ ـ ١٩٢٩) تلميذاً في بيئة اشد انطلاقاً [2] وأبعد عن رقابة الأهل الصحيحة .

وجاء ابراهيم الى الجامعة الاميركية في بيروت وملء نفسه امل عظيم لارتشاف العلم وللبراعة في الادب ، ولكنه كان يحمل في جسمه الهزيل ثلاثة امراض تهدد ذلك الأمل العظيم بالتلاشي : صمم في اذنه وقرحة في معدته ثم استعداد في امعائه لأنواع الالتهاب .

قصة أمراضه

كنت اود ان انسق ازمات المرض التي عاناها ابراهيم مع حوادث حياته تدريجاً ، ولكنني عدت فرأيت ذلك مستعصياً ، إذ انه يقطّع سلسلة ترجمته في اماكن متعددة من غير ان يجعل قصة مرضه واضحة بينة . من اجل ذلك رأيت ان اسرد قصة صممه وقصة القرحة في معدته في هذا المكان ، ثم اعود الى استئناف ترجمته .

اما صممه فقديم ، إذ كانت اذنه اليمنى « تنز » مادة صديدية منذ صغره . وفي عام ١٩٢٤ كان مرض اذنه قد تطور تطوراً كبيراً. ففي احدى رسائله إلي يقول [3] : « أظن انك لا تجهل ان باحدى اذنيّ صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الأيام الأواخر . فذهبت الى القدس لطبيب خصيصاء بالاذن فطلب إليّ ان احضر للقدس مرة في الاسبوع . ولقد آلمتني نهار امس فجئت الى القدس وفيها تممت هذا الكتاب بادئاً من هذه الصفحة . ويقول الطبيب إذا ضاق امرنا بها أجرينا عملية . ولا ادري ما سيصير » .

وتأخر إجراء العملية الى اواسط عام ١٩٢٧ حينما اقترح الاطباء في القدس ترقيع الاذن . وتمت العملية [4] بسلام ، ولكن الألم لم ينقطع . وعاد ابراهيم يتنقل بين الاطباء

(١) راجع نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .
(٢) راجع نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣ .
(٣) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .
(٤) نابلس ، ٢٧ آب ١٩٢٧ .

حتى سئم ، فكتب في احدى رسائله [١] : « احمد [٢] سافر الى نابلس مع اهله ، واضطررت الى البقاء هنا (في القدس) لمواصلة الذهاب الى الطبيب ، طبيب الاذن (هذه المرة) :

من طبيب الى طبيب فقبحاً لحياةٍ على الأطباء وَقفُ

ومع ذلك انا ابراهيم كما تعرفني راضياً قانعاً مسروراً » .

واستتم الصمم في الاذن فاستراح ابراهيم من الألم فيها ، ولكن آلام المعدة رافقته كل حياته .

كان ابراهيم يشكو من معدته منذ صغره ايضاً . ولما تخرجنا في الدائرة الاستعدادية من الجامعه الاميركية في حزيران عام ١٩٢٤ كان الامر قد استعصى على العلاج وأصبح اجراء عملية جراحية شيئاً لا مفر منه ، فأجريت له في ذلك العام العملية الاولى في المعدة [٣] . على ان الآلام عاودته في اواخر عام ١٩٣٢ فاضطر الى القبول بعملية ثانية خطيرة ، كان نجاحها ميئوساً منه . وقبل ابراهيم بالمجازفة واجريت العملية وكان المسلّمَ اللهُ لا الطبُّ . فما ان استطاع ابراهيم الكتابة حتى وردتني منه رسالة من المستشفى الالماني في القدس يقول فيها [٤] :

« ... لا أطيل عليك ، آلام شهرين انقضت بعون الله وعملية جراحية في المعدة على يد طبيب ألماني جبار * . رأيت الموت ثلاث مرات في هذه المرضة ولكن « نِعمَ الحارسُ الاجلُ » . لا أزال في المستشفى ، وتستطيع ان ترى من منطقي وخط يدي انني في حالة حسنة ولله الحمد . ولكنني سأبقى في المستشفى مدة عشرة ايام من تاريخ كتابي هذا ... »

والطبيب لم يستأصل القرحة ، بل حول عنها مجرى الطعام تحويلاً [٥] .

كانت القرحة في مؤخرة المعدة ، في الجدار الأعلى عند المكان الذي يمر الطعام منه الى

---

(١) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٢) اخوه احمد .

(٣) في هذه الفترة وفي اثناء هذا المكث في مستشفى الجامعة الاميركية نظم ابراهيم قصيدته « ملائكة الرحمة » : بيض الحمائم حسبهنّ ، في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٤ (راجع الدفتر ١٩٢٤ ص ١٤).

(٤) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٥) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

* هو الدكتور غمالين Gmaelin .

المعيّ مباشرة . ولم يكن الاستئصال ممكناً لكبر القرحة وصعوبة موقعها ولضعف ابراهيم . ففتح الطبيب فتحة في بطن المعدة وجعل للطعام ممراً قصيراً الى المعي الاثني عشري . وهكذا اصبح الطعام يمر من بطن المعدة الى الامعاء من غير ان يحك القرحة في مروره من مخرجه الطبيعي الى الامعاء . ووعد الطبيب ابراهيم بأن يعيد له ممر الطعام الى مكانه الطبيعي حينما تسنح الفرصة بشفاء القرحة . ولكن هذه الفرصة لم تسنح ، ولم يكن وعد الطبيب في الاكثر إلا بشرى ليقوى بها قلب ابراهيم على تحمل المتاعب .

وأنقذ هذا التحويل ابراهيم من خطر محقق وأراحه من بعض الآلام ، ولكنه فرض عليه قيوداً جديدة : اصبح الطعام الآن لا يستقر في المعدة وقتاً كافياً لهضمه ، بل كان يخرج من بطن المعدة الاسفل الى الامعاء بسرعة وقبل تمام عملية الهضم . من اجل ذلك نصح الطبيب ابراهيم بأن يجلس بعد كل طعام ـ مستلقياً الى الوراء شيئاً يسيراً ـ ليتيح للطعام ان يبقى اكبر مدة ممكنة في المعدة ثم ليساعد على استتمام عملية الهضم في الامعاء .

ولا ريب في ان هذه الحال تجعل صاحبها معرضاً للاسهال ولالتهاب الامعاء . وبدأ ابراهيم يشكو من الاسهال المتقطع حتى انتصف عام ١٩٣٥ فاتصل الاسهال واشتد . فذهب في اواسط تموز الى قرية بحمدون بلبنان لمقابلة الدكتور جورج خياط ، وكان الاطباء قد نصحوا له بالبقاء تحت مراقبته الطبية مدة من الزمن [١] . وذكر لي ابراهيم شيئاً من امر هذا المرض فقال في رسالة تالية [٢] : « اما انا فقد كنت اود ان تنتهي قضية (الاسهال) بسرعة ، فاذا به ـ لعنة الله عليه ـ من الادواء المماطلة المطاولة . ولا ابرح اتردد على عيادة الدكتور خياط الى الآن ، وامسِ فقط تحسنت الحال قليلاً واستمر التحسن الى اليوم وعسى ان يدوم . إن شاء الله » .

وسئم ابراهيم التردد على الاطباء وتناوُل العلاج ، وحُقّ له ان يسأم ، فوردتني منه رسالة طافحة بالنقمة والشكوى يقول فيها [٣] :

---

(١) بحمدون ، ٢٧ تموز ١٩٣٥ .
(٢) محطة بحمدون ، ٦ آب ١٩٣٥ .
(٣) نابلس ، ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .

« وأما حالتي الآن فانها ولله الحمد آخذة بالتحسن، وذلك على اثر نبذ الاطباء ونظرياتهم وأدويتهم ومركباتهم التي لا تقع تحت حصر . ولقد اصبح الطب معقداً (Complicated) واصبح المرضى تحت رحمة النظريات المتعددة (للمرض الواحد) والتجارب المختلفة فكأنما هم في مختبر تجري فيه هذه التجارب ليرى صدقها وتُكتشف حقيقتها . والذي يطبق على الارنب والفأر والضفدعة لا بأس من أن يطبق على ابراهيم طوقان . وإذا هلك احد هذه الحيوانات الحقيرة او ذهب ابراهيم طوقان ضحية التجربة وتحقيق النظرية فالأمر في سبيل خدمة العلم سواء !! هذا ما استطعت ان أدركه اخيراً من علاقاتي بالاطباء والمستشفيات ، وما اقوله عن تحامل ولكن عن اختبار وثقة . قيل لي (آخر ما قيل لي) : خذ هذه الابر [1] ، ابرة كل يوم وآخر [2] ، فهي للقرحة . ـ جئت بها من القدس الى نابلس أنفذ امر الطبيب . اخذت الابرة الاولى فشعرت تغيراً غير مرغوب فيه وتعكراً في مزاجي، ولم يخطر في بالي ان أنسبه الى الابرة التي جعلت شفاء للقرحة ! واسترحت يوماً وأخذت الثانية فحصل لي ما شعرت به في الاولى فانتبهت ورأيت ان أسأل الطبيب الذي يعطيني الابرة (وهو غير الذي وصفها) وأبدي له ملاحظتي ... فلما قدم الى البيت للثالثة أفضيت إليه بالأمر فأجاب : ما زلت اعجب لمن وصف لك هذه الابر لماذا وصفها . فهي للقرحة كما ذكرت ولكن لا لشفائها بل للتحقق من وجودها ، فمن شأن مادة هذه الابر ان تهيج الحوامض في المعدة ، والحوامض تهيج القرحة إذا كانت موجودة فيشعر المريض بوخزها وتبدو عليه عوارضها ! يا عمر ، ما عجبت في حياتي اكثر من عجبي يومئذ [3] للطبيب الذي وصف لي تلك الابر ، إنه هو بعينه الذي اجرى لي العملية الجراحية المعهودة [4] ، وهو الذي فتح معدتي ورأى فيها القرحة رأي العين ! وها هو اليوم يريد ان يتأكد من وجودها وهي موجودة لم تستأصل يومئذ [3] ولكن تحول عنها مجرى الطعام تحويلاً . وهذا هو الخبر الذي

---

(١) انابيب فيها دواء للحقن تحت الجلد او في العضل ...
(٢) غِباً : مرة كل يومين .
(٣) يومذاك .
(٤) راجع ص ٢٠ .

لو كتب برؤوس الابر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر [1] . وغني عن البيان انني نبذت تلك الابر ولجأت الى الاعتناء بمسألة طعامي وشرابي وراحتي وجاريت الطبيعة على ما تتطلبه فلم يمض اسبوع - واقسم لك بالله - حتى ارتفع وزني من ٤٦,٥ كيلو الى ٥٠ فتأمل . والحمد لله اولاً وآخراً .

يسوءني يا عمر ان افتتح المكاتبة بهذه الاحاديث المزعجة ولكن لا بد من شكوى الى ذي مروءة ... » الخ .

على ان الحال لم تتحسن تحسناً اساسياً ، فقد كتب ابراهيم يقول في رسالة تالية قريبة [2] « الصحة ولله الحمد على ما يرام وإن كان الاسهال لا يزال مزعجاً غير منقطع . وأتأمل ان تتحسن الحالة بقدوم موسم البرتقال وشراب الـ RADIO MALT ... »

وجاء رمضان من سنة ١٣٥٤ للهجرة (كانون الاول ١٩٣٥) فمنعه المرض عن الصيام فكتب يقول [3] : « فما انا بصائم في هذا البلد الذي كل اهله صيام . فقد علمت انني ممن استثناهم الله تعالى [4] ولم يجعل عليهم في الدين من حرج [5] . وأخشى إذا انا صمت ان يختل نظام معيشتي فتختل الصحة باختلاله » .

كان من المنتظر ان يصاب ابراهيم بفقر الدم بعد ان عانى من القرحة في معدته ومن

---

(١) تعبير وارد في الف ليلة وليلة .

(٢) نابلس ، ١٦/١٠/٥٣ .

(٣) نابلس ، ١٤ رمضان ١٣٥٤ = ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٤) جاء في سورة البقرة : يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، لعلكم تتقون : اياماً معدودات ؛ فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام أخر . وعلى الذين يطيقونه (لا يستطيعون صيامه او يستطيعون صيامه بجهد كبير لتقدمهم في السن او لمرض فيهم لا يرجى شفاؤه) فدية (كفارة ، صدقة) طعام مسكين (إطعام احد الفقراء يوماً عن كل يوم يفطرونه) ... (٢ : ١٨٣ - ١٨٤ ، راجع ١٨٥) .

(٥) ورد في سورة الفتح (٤٨ : ١٧) : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج (في ترك الجهاد ، القتال في سبيل الله . ولكن هذا الحكم الخاص ينطبق ايضاً انطباقاً عاماً على ترك العبادات التي لا يمكن القيام بها مع المرض كالصوم مثلاً) .

العمليات الجراحية ومن التهاب الامعاء. ما عانى ولقد اشتد به فقر الدم ، في اواخر عام ١٩٣٤ فعزم على المجيء الى بيروت للمعالجة . قال [١] :

« ... يصلك كتابي هذا وأنا في طريقي الى بيروت ... اجازتي هذه المرة صحيـــة تستغرق كل فصل الخريف ، ٤٥ يوماً ، وأي خريف كخريف بيروت ؟! السبب في هذه الاجازة راجع الى فحص طبي نتيجته ان معي فقراً في الدم احتاج معه الى تبديل هواء وإلى راحة . وقد رسمت خطة ارجو ان أنفذها فلا اجد ما يعيق عن تنفيذها : وهي ان اسكن في غرفـة في وست هول [٢] وأتنـاول طعامي مع المعلمين وأكون تحت اشراف الدكتور خيـاط للمعالجة الطبية . هذا مع العلم بأن دواعي الراحة في الجسم والبال والروح يجب ان تكون متوفرة ... »

ودخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية للفحص الطبي والمعالجة . وها هو يبسط ، بعد أمدٍ ، ما اتفق له في ذلك الحين ، في مقال كتبه لمجلة الأمالي [٣] . قال [٤] :

اخي عمر

لست في مقـام اناقش فيه الدكتور نويري في الدم وأنواعـه [٥] . ولكني - كما تعلم - عهدي بنضال الاطباء قديم ... ومعدتي من النوع الذي يحسدني عليه توفيق الحكيم فيضع لها تاريخ حياة حافل بالمغامرات [٦] كما فعل مؤخراً بمعدة (صاحبه) أشعب ... لقد كان مما جرّته علي معدتي عملية جراحية كبرى [٧] خرجتْ منها [٨] غريبةَ التركيب ، بل جعلتني

---

(١) نابلس ، ١٦/١٠/٣٤ .

(٢) بناء من ابنية الجامعة الاميركية فيه قاعات للاجتماع ، وكان فيها غرف للنامة للضيوف العلميين والأساتذة السابقين والمتخرجين .

(٣) الامالي ، مجلة اسبوعية تبحث في الثقافة ، صدرت في بيرت من ١٩٣٨ الى ١٩٤١ .

(٤) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٦ (الجمعة ٢٤ شوال ١٣٥٧ و ١٦ كانون الأول ١٩٣٨) ، باب المطارحات والمراسلات ، ص ١٢ - ١٣ . والمقال موقع باسم « ابن الاحنف » .

(٥) الدكتور محمد خير النويري (١٩٩٦ - ١٩٥١) احد اصحاب مجلة الامالي ، كان ينشر مقالات متوالية في موضوعات طبية منها سلسلة تبحث في انواع الدم والوراثة .

(٦) تاريخ حياة معدة ، تأليف توفيق الحكيم (القاهرة ١٩٣٤) .

(٧) في كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٨) خرجت منها معدتي .

عرضةً لغرائب الادواء في كل حين ، ومن هـــذه الادواء (فقر الـــدم) .

وأظنك لا تزال تذكر خريف ١٩٣٤ يوم نزلتُ بيروت طلباً للشفاء من فقر الدم . وتذكر انك تركت لي يومئذ[١] بطاقة عليها بيت من الشعر لا شأن لي بروايته الآن[٢] ... فقد كان ما كان وطويت ذلك التاريخ طي الشباب ...

مر بخاطري كل ذلك وانا اقرأ رسالة الدكتور نويري (في عدد الامالي الاخير)[٣] الى عزيزته مريم[٤] ... فقلت إن لدي ما يخولني ان اتدخـل في ابحاث الطب . وما عليّ لو فعلت كبعض الناس فناقشت في كافة فروع المعرفـــة وتطاولت - ولو مرة في العمر - على علماء الاختصاص ؟!

قال لي طبيبي يومئذ ، وقد قارن بين لون دمي وبين نماذج من الألوان الحمراء مطبوعةً على بطاقة بين يديه :

- عندك فقر دم .
- الغنيُّ هو الله ، ثم ماذا ؟
- وفي الامكان ان تكون المعـالجة بأبر تحتوي على خلاصة الكبد ، وهـذه الطريقة بطيئة ، ولكن طريقة نقل الدم إليك أسرع ...
- أرجو ألا يكونَ مع المستعجلِ الزللُ في هذا المقام ...
- الطريقة مجربة مضمونة .
- والدم ؟
- نبحث عن شخص يبيعك من دمه !

---

(١) في ١٨ تشرين الاول ١٩٣٤ .

(٢) بيتان من الشعر هما :

عجباً من دمٍ يعود فقيراً ... كنتَ تغني ببذله الغانيـاتِ
لا تظنَّ البخيلَ أسعدَ حظاً ... رب فقرٍ لم يتصـل بهبات

(٣) الامالي ، السنة الاولى ، العدد ١٣ (٣ شوال ١٣٥٧ = ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٨) .

(٤) اسم ادبي خيالي ، ...

- ومتى كان للدم عندنا ثمن ؟ ولكنها على كل حـــال تجارة رابحة ، إن شاء الله . وعسى ألا أعود منها بصفقة المغبون .

. . .

وافترقنا يومين عرَف الطبيب خلالهما « الزمرة الدمويـة »[1] التي أنتمي اليها . ثم لقيني فقال : نحن الآن نبحث عمن يتلاءم دمـــه مع دمك . وكنت قد صنعت ابياتاً في المعنى ، فأنشدت الدكتور :

وطبيب رأى صحيفـة وجهي شاحبـاً لونُهـا وعودي نحيفا .
قال لا بد من دمٍ لك نُعـ طيه جديداً ملء العروق عنيفا .
لك ما شئت ، ياطبيبي ، ولكن أعطني من دمٍ يكون خفيفا .

فضحك وهو يقول : انت ونصيبك !

وقد ساورني القلق من هذه الناحيـــة . فأنت ترى ان المسألة تعدت الجسد الى الروح ... وخشيت ان أبتلى بثقيل يُدخل عليَّ من دمه ما هو اشدُّ على نفسي من امراض الدنيا جميعها . ولكن الله سلم ، وجرت عملية نقل الدم فكانت هينة . وكان بائـع دمه ظريفاً . وكيف لا يكون ظريفاً من اعتبر نفسه وعاءً كوعاء الزيت او اللبن يعرِضه على امثالي من (الزبائن) فيفرغ لهم منه على قدر الحاجة !

ومرت ايام عشرة قفز وزني خلالها ثمانية اكيال ، وتفتحت مغالق نفسي للطعـام وأخذتْ بيروت تتصدى لي باغوائها وفنون إغرائها ...

ولكنني عُدت الى الطبيب أشكو إليه قشعريرة اعقبتها حمى مزعجة . فقـال : امر طارىء في حالات ثقل الدم ، ولا بأس عليك منه . فلما عاودتني بعد يومين وشكوت إليه ذاك فكر وقدّر ... ثم عاودتني ، وكانت في المرات الثلاث كأنما هي معي على ميعـاد

---

(١) الدكتور نويري وضع هذا اللفظ الفني .

لا تخلفه ، فقال الطبيب : ملاريا خفيفة نقلت اليك مع الدم . قلت : غشني البائع وأمري لله ! وكلفني ما يوزعه البعوض مجاناً ثلاث ليرات ذهباً عيناً (انتهى المقال) .

ومنذ عام ١٩٣٦ عادت الامراض فهادنت ابراهيم مرة اخرى سوى نوبات عارضة كانت تنتابه من معدته بين الفينة والفينة ، وتنتابه فجأة . في اواخر تشرين الاول من عام ١٩٣٧ كان ابراهيم مع زوجته في بيروت فجاء لزيارتي في البيت . وبعد نحو ربع ساعة من وصوله سمعته يقول : آخ ، ثم انطوى على نفسه وقال : هذه معدتي . وأخذ يصرخ . حملناه الى سرير ثم اتيت له بطبيب . فأعطاه الطبيب ابرة مسكنة . وبعد ربع ساعة آخر عاد ابراهيم الى هدوئه كما كان قبل النوبة[١] .

✡

ونعود الآن لنقص حياة ابراهيم منذ دخوله الى الجامعة الاميركية .

في الجامعة الاميركية :

هنالك صفحة من حياة ابراهيم كان يحسن إغفالها في هذه الترجمة ، ذلك لأنها صفحة غير مشرقة ، او ان احد جوانبها غير مشرق على الاصح . تلك هي صفحة حياته في الجامعة الاميركية كمعلم . دخل ابراهيم الى الجامعة الاميركية تلميذاً باسماً ثم خرج منها استاذاً ناقماً اشد النقمة لاسباب قد لا يكون هو مصيباً فيها كلها ، ولكنه على كل حال ليس مخطئاً فيها كلها .

نشر الاستاذ محمد نجم[٢] في مجلة « الكلية »[٣] مقالاً في العدد الرابع من المجلد العاشر[٤] قال فيه انه يأسف لأنه لا يجد في حياة ابراهيم طوقان الا مراجع غير مسؤولة او

---

(١) راجع الاشارة الى هذه النوبة : القدس ، ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ .

(٢) تخرج محمد نجم في الجامعة الاميركية عام ١٩٤٥ ثم عين فيها مدرساً .

(٣) « الكلية » هي المجلة الرسمية للجامعة الاميركية ، وان كان الاساتذة والطلاب قد تولوا اصدارها حيناً بعد حين مستقلين بعض الاستقلال عن عمدة الجامعة .

(٤) نيسان ١٩٤٦ ، ص ٩ – ١٥ ، ٢٣ .

اقوالاً فيه مبنية على العاطفة « وفيها يقصد الكاتب او المتحدث الى المدح اكثر من الذم [1] ، والى الشكر اكثر من التجريح وتحكمه العاطفة اكثر مما تسيره روح البحث العلمي الصحيح ... وليس بين يدي من المصادر الموثوقة الا سجلات الجامعة التي تعرض حياته الجامعية وحياته كمعلم . ولكن هذه السجلات الآن ، مع ما فيها من نقاط بيض وسود ورمادية ومع ما فيها من انذارات وتنبيهات تسدل ستاراً على كل هذا ولا تبوح به ... »

ان الاستاذ محمد نجم قد خالف البحث العلمي في ناحيتين : اولاهما ان المصادر لحياة ابراهيم متوفرة ، ولكنه هو لم يعرف منها شيئاً . ولقد كان بامكانه على الاقل ان يرجع الى زملائه من اساتذة الجامعة الاميركية فيخبروه بتفاصيل كثيرة من حياة ابراهيم . اما ثانية الناحيتين فهي ذكره تلك النقاط البيض والسود والرمادية وتلك التنبيهات والانذارات الموجودة في سجل ابراهيم في الجامعة الاميركية والتي يزعم انها تسدل ستاراً على حياة ابراهيم ولا تبوح بالاسباب التي اوجبت تلك التنبيهات والانذارات وتلك النقاط الرمادية والنقاط السود . ان الاساتذة جبران بخعازي وجبرائيل جبور وانيس فريحة وحليم نجار وحسني الصواف ومسلم المشنوق وعباس إقبال يعرفون تفاصيل تلك الحوادث . اما الاستاذ انيس المقدسي والدكتور اسد رستم فيعرفان كل شيء . وان اعجب فعجب من الاستاذ محمد نجم يلجأ الى سجلات الجامعة الميتة ولا يلجأ الى سجلاتها الاحياء ، هذا فضلاً عن ان ثمت اشياء كثيرة مكتوبة هنا وهنالك .

ان الوفاء للحق ـ لا لابراهيم وحده ـ يقضي ان نمكن ابراهيم طوقان من الدفاع عن نفسه وان نقول نحن ايضاً ما نعرف : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ... ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثمٌ قلبُه ... » [2] .

دخل ابراهيم طوقان الى الجامعة الاميركية في العام المدرسي ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، في الصف الخامس الاستعدادي (آخر صفوف الدائرة ، الاستعدادية يومذاك) . ثم تخرج

---

(١) كذا في الاصل ، والصواب : الى المدح اكثر منه الى الذم والى الشكر اكثر منه الى التجريح . ـ ولكن لماذا يريد الاستاذ نجم ان يقصد الكاتب الى الذم قصداً ؟

(٢) سورة البقرة (٢ : ١٤٠ و ٢٨٣) .

فيه في حزيران ١٩٢٤ . وليس له في هـــذا العام نزاع مع الجامعة . اما النزاع فبدأ في الدائرة العلمية .

الجامعة الاميركية مؤسسة لها آراء معينة خاصة وسياسة مذهبيـــة مرسومة ، وهي لا ترضى عمن يخالف سياستها ـ وهذا حق لها . ولكن ليس من حق الجامعـة الاميركية ان تفرض آراءها الخاصة وسياستها المذهبية على جميع الناس .

ثم إن الجامعة لا تستطيع ان تزعم ان جميع المدرسين فيها كانوا دائماً من الطبقـة الاولى . ولا شك ابداً في ان ابراهيم كان يعرف « البلاغة » مثلاً معرفة جيـدة قبل ان يتعلمها على مقاعد الدرس . اما تذوقه الادبي وعلمه بالقرآن الكريم فكان فيهما بلا ريب ـ مما نرى من الانتاج الوجداني عنده ـ في الطبقة الاولى . يقول ابراهيم في احدى رسائله [١] :

« ... انا اتعلم بلاغة عند ... قال الاستاذ في إيراد آية كريمة ... : لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يَنْفطرن (مكان يَتفطَّرْنَ) منه الخ . ثم قال : يخرج الحي من الميْت (مكان الميّت) ، ويخرج الميْتَ (مكان الميّت) من الحي » . إن الميت (بسكون الياء) هو الذي مات ، والذي مات لا يمكن ان يلد حيـــاً . اما الميت (بتشديد الياء) فهو الحي الذي ينتظره الموت . ومعنى الآية الاخيرة لا يمكن ان يستقيم في ذهن الاستاذ إلا إذا كان يجهل الفرق بين المعنيين . ومع ذلك فقد قال ابراهيم : « اما انا فلم احرك ساكناً بل كتبت الآيتين (صحيحتين طبعاً) وبقيت ساكتاً » . فأي تأدب بين يدي استاذ اسمى من هذا التأدب !

على ان ابراهيم لم يكن دائماً يسكت على مثل هذه « المفارقات » بل كان يعلـق على اكثرها أمام اصحابه وغير اصحابه [٢] . وإذا علمنا ان الذين كانوا يتحدثون الى ابراهيم كثار، من الطلاب ومن الاساتذة ، ادركنا مدى انتشار ملاحظاته ومدى تأثيرها .

---

(١) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) بيروت ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ ؛ بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ ؛ بلا تاريخ (بيروت ، كانون الاول ١٩٢٨) ؛ بيروت ، ٧ شباط ١٩٢٨ .

وتخرج ابراهيم طوقان في الجامعة الاميركية في حزيران ١٩٢٩ وليس بينه وبين عمدة الجامعة نفرة ، بل كان بينهما مودة كبيرة . وكانت الجامعة تود ان يكون ابراهيم في عداد مدرسيها .

في سنة ١٩٢٦ ـ على ما أذكر ـ اجتمعنا : ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وحافظ جميل وعمر فروخ ونديم البارودي . على إنشاء حلقة ادبية سميناها دار الندوة [١] . كانت الغاية الاولى من هذه الحلقة اجتماعَ نفر من الاصدقاء تربطهم رابطة الادب ونظم الشعر . ولقد اتخذ كل شخص منا اسماً ادبياً من زهو العصر العباسي : فاتخذ ابراهيم اسم العباس بن الاحنف ، ووجيه اسم ديك الجن الحمصي ، وحافظ اسم ابي نواس ، وبقي لي اسم صريع الغواني مسلم بن الوليد البغدادي . وكان نديم البارودي كاتب دار الندوة . وغلبت على دار الندوة روح المرح والهزل فقل استاذ لم نتعرض بالهجاء له او لبعض آثاره على الرغم من حبنا له واعجابنا به ، ولكنه تهور الشباب وحب الانتقاد . وكثرت مساجلاتنا في الموضوعات الوجدانية والغزل منها خاصة .

وكان اجتماع ابراهيم ووجيه وحافظ كثيراً ، إذ كانوا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٩ [٢] وكنت انا في الصف الذي تخرج عام ١٩٢٨ [٣] فأوقاتهم كانت اكثر اتساقاً . ثم انهم كانوا أكثر توفراً على نظم الشعر . وكان أشعرَ اهل الندوة بلا ريب ابراهيم طوقان .

وكان لدار الندوة « دفتر » تدون فيه وقائع الحوادث وتسجل فيه المساجلات الشعرية ، وكان في عهدة نديم البارودي ، ولا ادري ما فعل الله به [٤] .

ولكن مما يؤسف له ان صداقة ابراهيم لحافظ جميل خاصة ولوجيه البارودي ونديم

---

(١) كانت قريش في الجاهلية تجتمع في مكان سمته « دار الندوة » للنظر في شؤونها وإدارة امور مكة .

(2) A U B Directory, 1953, pp. 191, 192, 194, 214 (Wajih Baroody, M.D 1932) .

(3) Do. pp. 181-2 .

(٤) راجع كلمة عن دار الندوة في مجلة الوادي ـ لسان حال الزبانية الاحرار ـ اسبوعية سياسية « بغداد » صاحبها ورئيس تحريرها المحامي خالد الدرة ـ السنة التاسعة ، العدد ١٧ (السبت ٢٦ حزيران ١٩٤٨) ص ٩ـ١٠ ؛ وفي « اخي ابراهيم » لفدوى طوقان ، ص ٢٨ـ٢٩ .

البارودي لم تخل من شوائب . في العام المدرسي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ كنت انا اعلم في مدينة نابلس فكتب الي ابراهيم [١] يقول : « دار الندوة (تفشكلت) لا القومُ قومي ولا الاعوان اعواني ... انقطاعي عن كل ما يُقام من حفلات واجتماعات ادعى لراحة فكري واجمل بي ، فلا انا عضو في عروة [٢] ولا مبار في مباراة [٣] ، وعلي واجبات مدرسية اقوم بها حق القيام فلا تبتئس بما كانوا يصنعون [٤] . نيكولي [٥] طلب قصيدة « يا تين يا توت » في هذ الصيف وعند قدومي حاسبني (وحدي) عليها [٦] ، فافهمته واقعة الحال وكيف ان هنالك عدواً مبيناً يريد الايقاع بي. فكانت نصيحته لي هذه الجملة [٧] Be careful even of your **best friends** ففهمت اشياء لم تدر لي في خَلَد قبل اليوم » .

وخرج الخلاف بين ابراهيم وبين حافظ ووجيه من الميدان الشخصي الى ميدان المبدأ . قبل ان اتخرج انا (حزيران ١٩٢٨) كنا كلنا متفقين على ألا ندخل مباراة ذات جوائز مالية ، كالمباراة التي كانت تقام باسم « جائزة مجلة الهلال » مثلاً . لقد كنا نعتقد اننا فوق اندادنا ، فلم ننافس في سبيل مال . هـذا مع العلم باننا كنا نقيم حفلات شعرية بلا جوائز او نخطب وننشد في الحفلات الخاصة والعامة ، لجمعية زهرة الآداب وجمعية العروة الوثقى .

وفي العام المدرسي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ ارادت الجامعة ان تقيم حفلة شعرية بجوائز ، وتحت اشرافها هي ، فكتب الي ابراهيم رأيه في تلك المباراة . قال [٨] :

---

(١) بيروت ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٨ .

(٢) جمعية العروة الوثقى .

(٣) كانت الجامعة تقيم مباريات ذوات جوائز ، اشهرها في ذلك الحين مباراة دار الهلال .

(٤) في سورة هود : « فلا تبتئس بما كان يفعلون (١١ : ٦) . وفي سورة يوسف : « فلا تبتئس بما كانوا يعملون (١٢ : ٦٩) .

(٥) Edward F. Nickoley عميد الدائرة العلمية .

(٦) قصيدة « يا تين يا توت » اشترك في نظمها ابراهيم طوقان وحافظ جميل ووجيه بارودي في فتاتين كانتا في الجامعة، هما ليلى تين (دمشق ١٩٠٨ – ١٩٥٠) واختها أليس تين (دمشق، ولدت ١٩١٣) . وتخرجت الاختان في الجامعة عام ١٩٣٠ ، اي بعد ابراهيم وحافظ ووجيه بعام واحد A U B Directory 1953, p 203 .

(٧) احذر حتى من خيرة اصحابك .

(٨) بيروت ، ٢٠ نوفمبر ١٩٢٨ .

« المباراة الشعرية : ـ لا ازال ثابتاً على رأيي ، اي سوف لا ادخلها [1] . واجد نفسي ستقوم القيامة علي مع انيس [2] لأنني الى الآن اماطله وأزعم ان القريحة مسدودة ولكنني اجرب . يا عمر ، انا في غنى عن الوقوف مع شعراء امثال حسن حوا ورأفت البحيري **ورداد خوري** [3] (هذه شاعرة يا حبيبي) وأضرابهم . وإذا طمع الجماعة بنيل عشرة جنيهات (أعني حافظاً ووجيهاً) فأنا اضحي بألف ليرة في سبيل كرامتي التي ارى ان الوقوف مع هؤلاء تجرحها . ُينظر إليّ الآن في مقدمة شعراء الجامعة ، فاذا دخلت المباراة وكسبت الجائزة فلا يقال سوى (ما هي مسوكرة لابراهيم !) وإذا لم اكسبها فلا والله أبقى في الجامعة وقد نالها غيري » .

ويبدو ان النفرة بين ابراهيم وحافظ جميل ظلت مستحكمة . ولكن الصفاء عاد بين ابراهيم ووجيه الى ما كان عليه من قبل وأحسن . ولما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة كان وجيه يتابع درس الطب فيها فتقارضا نظم الشعر في الغزل والمجون واجتمعا في النزه والاسفار . ولما ترك ابراهيم الجامعة نهائياً اتصلت المكاتبة بينهما زمناً .

وفي الجامعة الاميركية تفتح قلب ابراهيم للهوى ثم شغلته فتاة واحدة عن كل فتاة اخرى . تلك كانت فتاة من الناصرة او من قرية قرب الناصرة اسمها كفر كنة (وادي الرمان) في فلسطين . جاءت هذه الفتاة الي الجامعة الاميركية ومكثت فيها سنة واحدة (١٩٢٥ ـ ١٩٢٦) . ألقت في خلالها شباك هواها على كثيرين ثم وقعت في هوى ابراهيم . ولم تكن هذه الفتاة جميلة بالمعنى الذي تواضع عليه واضعو اقيسة الجمال : كانت فتاة فارعة الطول سمراء مفصلة نواحي الوجه تجول على وجهها ابتسامة خفيفة إذا كانت غافلة في مقعدها او مسيرها ، فاذا نبهتها انفاس متأمل او نظرات متتبع غاضت ابتسامتها وتجلت على وجهها نفرة ثم بدا النزق في حركاتها مشوباً بالدلال . تلك كانت (م . ص .) التي نظم

---

(١) لن اشترك فيها .

(٢) الاستاذ انيس المقدسي .

(٣) هي اليوم السيدة وداد الخوري المقدسي قرطاس (ابنة اخي الاستاذ انيس المقدسي) . ورأفت البحيري هو الرسام الموهوب . ان هؤلاء الاشخاص البارزين في نواحي نشاطهم الخاص بهم لم يكونوا شعراء يصح لابراهيم طوقان ان يعد نفسه في صفهم .

ابراهيم فيها معظم قصائده في الغزل . ولما تركت م. ص. الجامعة استمرت صلتها بابراهيم مدة طويلة بعد ذاك .

ابراهيم طوقان حينما كان تلميذاً في الدائرة العلمية

وفي هذه الاثناء ايضاً بدأ ابراهيم ينظم قصائده الوطنية والموضوعية . فالحبشي الذبيح ، ونشيد « موطني » ، وملائكة الرحمة ، كلها تعود الى تلك الفترة . ولما حدث الزلزال في نابلس عام ١٩٢٧ ودمر قسماً كبيراً منها نظم ابراهيم « رثاء نابلس » فكانت موضوعية جيدة . ولقد عُرفت لابراهيم مكانةٌ ادبية ممتازة قبل ان يتخرج في الجامعة الاميركية : لما زار الدكتور منصور فهمي فلسطين ألقى في ساحة مدرسة النجاح بنابلس محاضرة شيقة فألقى ابراهيم قصيدة حياه بها [١] . وكذلك ألقى قصيدة حيا بها شوقي [٢] وقصيدة ثانية في تحية امين الريحاني [٣] عند مجيئهما الى فلسطين .

---

(١) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ . اما القصيدة فنظمت في ١٨ تموز ١٩٢٤ (مجموعة ابراهيم ١٩٢٤ ، ص ٨) ، ثم نشرت في العدد ١١٥ من صوت الشعب (بيروت ؟) وبما انه ظهر فيها اخطاء مطبعية كثيرة فقد صوب ابراهيم هذه الاخطاء في عدد تال .

(٢) هذه القصيدة غير مؤرخة ولكنها منسوخة في الدفتر ١٩٢٥ ، ص ١٩–٢٤ ، بعد قصيدة الريحاني .

(٣) ألقيت في النادي العربي (نابلس) في ١٩ نيسان ١٩٢٧ (الدفتر ١٩٢٥ ، ص ١٤) .

وقبل ان يتخرج ابراهيم ايضاً من الجامعة الاميركية ألف التدخين[1] والشراب : شرب القهوة ، وشرب الراح . كان نفر من اصدقاء ابراهيم في الجامعة يشربون الخمر فشربها معهم . ولقد دعي يوماً مع بعض اصحابه الى وليمة عند صديق في دمشق فقال في هذه المناسبة قصيدة تنتهي بهذين البيتين[2] :

فأقبل الساقي يزف الخمر في الأقداح .
يا مرحباً بالراح[3] تجلو كؤوس الراح .

ثم كثر شربه للخمر وخصوصاً للويسكي ، ذلك الشراب الذي ينشره الانكليز حيث حلوا في البلاد بين الطبقة المثقفة وبين الموظفين ، حتى قلّ ان ترى موظفاً ذا مركز ما في بلاد الاستعمار الانكليزي لا يشرب الويسكي . ويبدو ان شربه اصبح في عام ١٩٣٤ إدماناً :

يا من رآنا ليلة الخميس نطارد الهموم بالكؤوس
حتى إذا استولت على الرؤوس وحلّقت تنهض بالنفوس
لم يبق للهموم من مجال
مُدامة عجيبة المعاني لم تتصل بالحسن بن هاني[4]
جاءتك سكسونية الأوطان موسومة الزجاج بالحصان[5]
تُصان بالبذل عن ابتذال

ويبدو ان الاطباء منعوا ابراهيم عن الشراب فكان يمتنع حيناً ثم يعود . ولكنه استمر في الشراب الى آخر سني حياته .

---

(١) في احدى رسائله : كيف عيناك ، يا عمر ! هذا مطلع جميل ... انا اجيز لك الصدر .. فانتظر حتى احك القريحة بسيكارة وفنجان قهوة (نابلس ، ٣١ اب ١٩٢٨) .

(٢) ١٩٢٨ .

(٣) الراح جمع راحة ، باطن الكف ، والراح الثانية : الخمر .

(٤) الحسن بن هاني هو ابو نواس . والمدامة التي تتصل بالحسن بن هاني هي النبيذ وهو شراب خفيف جداً بالنسبة الى الويسكي .

(٥) الضمير المستتر في جاءتك يعود على الويسكي التي وصفها ابراهيم ولم يسمها . سكسونية الأوطان : الويسكي تأتي من بلاد السكسون (الانكليز) . موسومة الزجاج بالحصان : من اجناس الويسكي جنس اسمه الحصان الأبيض White Horse .

وفي حزيران ١٩٢٩ تخرج ابراهيم في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم [٣] . وبعد نيل الشهادة مباشرة دخل المستشفى للمعالجة من آلام جديدة في معدية . وكان والده قد اتى الى بيروت ليشهد ابراهيم يتناول الشهادة على منصة الجامعة ، فبقي الى جانبه حتى ابلّ ثم توجها معاً الى مصر لاستشارة اطبائها في علاج ابراهيم . ولقد بيّت ابراهيم في نفسه ان يبحث له عن عمل [١] في القاهرة .

استاذاً في مدرسة النجاح

لم يكن اهل ابراهيم راغبين في ان يعمل ابنهم عملاً كبيراً او صغيراً ، فان صحته لم تكن تتحمل شيئاً من الاجهاد . وكثيراً ما كان ابوه يقول له ، يا إبراهيم ، ألا يكفيك ان تعيش في « بنسيون » عبد الفتاح آغا ؟ على ان ابراهيم نفسه كان يريد ان يعمل ، وكان طموحاً في ما يريد ان يعمله . وأول ما فكر فيه ان يعمل في الصحافة ـ في الصحافة الادبية الشهرية لا الصحافة السياسية اليومية على كل حال ـ كتب إلي يقول [٢] : « بعد سفرك بيومين [٣] ذهبت الى القاهرة للاستشفاء وللنظر في شأن شغلي للسنة المقبلة ولملاقاة اخي احمد [٤] ... قابلت صاحب (دار) الهلال، وأظن ان الشغل قد لا يتيسر هناك إلا بعد ثلاثة او اربعة شهور ... ما تقول يا شيخي في الشغل مقدار سنة في (مدرسة النجاح) فأكون قريباً من الدار قليل الاشغال ؟؟!! »

لا ريب في ان اهل ابراهيم كانوا لا يريدون ان يعمل ابراهيم في القاهرة بعيداً عنهم وعن رقابتهم وعن عنايتهم . وهم الذين كانوا يشجعونه على دخول صناعة التعليم ليعلم في مدرسة النجاح في نابلس فيكون قريباً منهم وتحت إشرافهم .

---

(3) A U B Directory 1953, p. 194.

(١) راجع اخي ابراهيم ، ٣ .
(٢) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .
(٣) كنت انا في العام المدرسي ١٩٢٨ – ١٩٢٩ اعلم في مدرسة النجاح في نابلس .
(٤) كان اخوه احمد راجعاً من انكلترة بعد اتمام دراسته هناك .

وكتبت الى ابراهيم انصحه بأن يعلم في مدرسة النجاح للأسباب الآنفة الذكر ، فأجابني [١] : « تنصحني بأن اعلم سنة ، ولعلي فاعل ... وفي التحرير الثاني ازف إليك أو أنعي إليك (أصح) خبر ارتباطي مع النجاح » . ولقد طلبت منه مدرسة النجاح ان يعلم فيها [٢] ولكنه اختلف مع الادارة على اشياء شكلية فصلها في هذا الكتاب ثم قال : « ومنذ ساعتين دعاني اخي احمد والوالد ليقنعوني بالقبول [٣] ، فرجوتهم ان ابقى هذه السنة بلا عمل طلباً للراحة وتخلصاً من المشاغبة . وانحلت المعضلة على هذا الوجه » . ولا ريب في ان بقاء ابراهيم بلا عمل كان احب الى اهله . غير انه عاد فقبل التعليم في مدرسة النجاح على ما يرغبه هو [٤] ، ومعلماً للغة العربية .

وكان العام المدرسي الذي قضاه ابراهيم استاذاً في مدرسة النجاح في نابلس عام هدوء وراحة ، على الرغم من كثرة اعماله [٥] في العام الاول لدخوله صناعة التعليم . اما في ما عدا ذلك فيبدو انه كان مسروراً مرتاحاً الى عمله [٦] .

رأت الجامعة الاميركية في بيروت ، في بعض ادوارها ، ان تنهج سياسة جديدة ، فارتبطت مع عدد من الشبان المسلمين من متخرجيها في سنوات متوالية منهم رجائي الحسيني وامين نزهة وكنعان الخطيب ومحمد شبقلو وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان [٧] . ويلاحظ ان هؤلاء كانوا من بلدان مختلفة : من القدس وحلب وحماة وبيروت ونابلس على التوالي ، كما ان بعضهم كانوا من اسر معروفة مشهورة في بلدانهم امثال رجائي الحسيني وكنعان الخطيب وعبد الرحمن البربير وابراهيم طوقان . ولقد ادى كنعان الخطيب للجامعة خدمات جليلة جداً لما عرف عنه من الروح الاجتماعية والجرأة الادبية

---

(١) نابلس ١٢ آب ١٩٢٩ .
(٢) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .
(٣) اي بالتساهل مع ادارة النجاح ، ليقنعوني (اي اهلي) .
(٤) راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .
(٥) من ملاحظة لابراهيم في حاشية على رسالة من الطالب السيد سميح النابلسي ، نابلس ، ٢٣ تشرين الاول ١٩٢٩ .
(٦) نابلس ، ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .
(٧) من متخرجي الاعوام التالية : ١٩٢٤ ، ١٩٢٨ ، ١٩٢٩ .
cf. A U B Directory pp. 155 and 156, 183, 191 and 193.

والمقدرة على التحديث . كان كنعان روح الحفلات الاجتماعية التي كانت تقيمها الجامعة ومن اعظم العاملين على نجاحها . ثم ان كنعان الخطيب هـــو الذي زار الاقطار العربية لاقناع الاسر الاسلامية ، التي لم تكن بعدُ قد ارسلت ابناءها الى الجامعة الاميركية ، بـان تفعل . ان شبه الجزيرة العربية من نجد الى الحجاز الى الكويت الى البحرين كانت تعد ، بالنسبة الى الجامعة الاميركية في بيروت ، مجاهل حتى استكشفها كنعان الخطيب فتدفق منها الطلاب على صفوف الجامعة المختلفة . ومهمات كنعان المشابهة الى سائر الاقطار العربية مشهورة[1] . ولم يكن ارتباط هؤلاء الشبان المسلمين مع الجامعة الاميركية سبباً من اسباب الدعاية لها في الاوساط الاسلامية فقط ، ولكن بعضهم كان من احسن المدرسين اقتداراً في فروعهم التي علموها . ان كنعان الخطيب وابراهيم طوقان في اللغة العربية ومحمد شبقلو في الكيمياء كانوا شموساً في المعرفة وفي المقدرة على التعليم .

ونجمت الازمة الاقتصادية الخانقة في العالم عام ١٩٢٩ ثم وصلت بعد ثلاث سنوات الى الولايات المتحدة فقلّت اموال التبرعات التي كانت ترد على الجامعة الاميركية في بيروت. عند ذلك فكرت الجامعة في شد الحزام على وسطها واختصار نفقاتها . ويحدث في المؤسسات العلمية ما يحدث في الدوائر السياسية وتستغني الجامعة عن المدرسين « الصغـــار » : لقد استغنت عن محمد شبقلو وعبدالرحمن البربير وابراهيم طوقان وامين نزهة ورجائي الحسيني ثم عن كنعان الخطيب نهائياً ، وطلب انيس الخوري* فريحة احالته الى الاستيداع فذهب الى شيكاغو يتابع درسه ريثما تمر العاصفة الاقتصادية فيعود الى عمله الاول ، اذا امكن .

ونعود الآن الى التوفر على الاحوال التى احاطت بابراهيم طوقان وهو استاذ في الجامعة الاميركية ثم جعلته يخرج ناقماً عليها اشد النقمة .

ارتبطت الجامعة الاميركية مع ابراهيم طوقان عام ١٩٣٠ باتفاق مـــداه ثلاثة اعوام

---

(1) cf. Penrose 301-2.

* A U B Directory 174 ، في الجامعة الاميركية في بيروت استاذان باسم انيس الخوري : الاستاذ انيس الخوري المقدسي والاستاذ انيس الخوري فريحة .

مدرسية : ١٩٣٠ ١٩٣١ و ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ و ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣ ، ولكنه اضطر الى الاستقالة بعد عامين اثنين ، ولا ريب في ان العامل الاول في هذه الاستقالة يعود الى نفرة شخصية بينه وبين استاذ كان له يومذاك تأثير عظيم في توجيه سياسة الجامعة . ولكن لا يجوز لنا التوسع في هذه النفرة الشخصية في هذا المكان ، ذلك لأن اعتمادي في تفصيل اخبارها الخطيرة سيكون مستنداً الى « معلوماتي الشخصية » . ان ابراهيم لم يكتب الي رسائل في المدة التي قضاها في الجامعة الاميركية استاذاً ، ذلك لأننا كنا نعيش في بلد واحد . ولكنه على كل حال كان يخبرني ما يجرى بشأنه تباعاً وتفصيلاً . ولقد اتفق ان ذكر ذلك في احدى رسائله[١] . ذكر انه قال لانيس فريحة[٢] في معرض حديث طويل : « ولكن عمر (مؤمن) ولا يُلدغ من جُحرٍ مرتين[٣] ـ وانا ملدوغ المرة الاولى ـ وهو مطلع على كل تصرفات الكلية[٤] معي .

على ان الجامعة الاميركية كانت تزعم ان في ابراهيم عيوباً مسلكية ، اشير اليها في سجله الجامعي بنقاط ، رمادية وسود[٥] ، هي التي جعلتها تفكر بألا تجدد عقده اذا انتهى اجله . ولكن ابراهيم استبق الحوادث واستقال قبل انتهاء اجل العقد بعام كامل . من هذه المزاعم ان ابراهيم لم يكن جلداً على العمل التعليمي ، وانه لم يبرهن على انه قادر على القيام بجهد للتأليف الجامعي ، وانه كان مريضاً بأمراض تجعله غير قادر على تحمل مشاق صناعة التعليم فضلاً عن ان تلك الامراض كانت تضطره احياناً الى الانقطاع عن التدريس . ولقد كان موقف الجامعة هذا مستنداً الى تقرير نظمه الاستاذ الذي كان بينه وبين ابراهيم نفرة شخصية .

على ان هذه كلها مزاعم كما قلت ولم يكن لها ثقل كبير في ميزان ابراهيم ، لأن الجامعة نفسها عادت فرغبت في الارتباط مع ابراهيم من جديد .

---

(١) نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣ .
(٢) الدكتور انيس فريحة ، cf. A U B Directory 1953, p. 174 .
(٣) اقتباس من حديث شريف : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، اي لا يخدع مرة بعد مرة .
(٤) الجامعة الاميركية لايزال اسمها الاول «الكلية» (السورية الانجيلية) غالباً عليها ودائراً على الالسنة .
(٥) مجلة الكلية ، نيسان ١٩٤٦ ، ص ٩ .

قال ابراهيم [١] : اليوم صباحاً زارني في الدائرة [٢] حليم نجار . وهو من هؤلاء القلائل الذين احببتهم بين زملائي المعلمين في الجامعة . ودار البحث عن الكلية [٣] فود لو اعود اليها . فاخبرته ان حبيب كوراني [٤] كان حضر لنابلس منذ اسبوعين وعرّض برجوعي الي الجامعة ، وقال ان الاستاذ انيس [٥] لايبرح يذكر ايام شغلي وأنه لا يتصور ان يشتغل الا مع ابراهيم طوقان . وكان البحث بيني وبين الكوراني يدور حول الظروف التي احاطت بتقديم استقالتي ، وحبيب يراها ظروفاً لا تدعو الى الاستقالة . . . »

ويؤكد ما يقوله هنا الاستاذ حبيب كوراني ما قاله الاستاذ انيس المقدسي نفسه لما قال كلمته الرثائية في ابراهيم طوقان ، قال [٦] :

« وفي سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال الاجتهاد والامانة . وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة الرؤساء والزملاء . وكان يرجى ان يكون له شأن كبير في حقل التدريس الجامعي حتى توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوروبة وإعداده لمستقبل علمي زاهر .

« ولكن الزمان لم يسمح بذلك فقد اخذ يشكو من قرحة في معدته اقضّت مضجعه وحرمته خدمة الجامعة والعلم ، واشار عليه الاطباء بالراحة وملازمة العلاج فاضطر الى ترك الجامعة بعد خدمة سنتين والعودة الى فلسطين . . . »

هذا ما يقوله الاستاذ انيس المقدسي استاذ الدائرة العربية في الجامعة الاميركية ـ وكان ابراهيم طوقان يعمل معه ـ والاستاذ المقدسي في غنى عن ان يمالىء إبراهيم طوقان . ولو كان سلوك ابراهيم العلمي او التعليمي يحتمل الغمز لأغفل الاستاذ المقدسي ذكر سلوكه هذا جملة ولما ورّط نفسه في شيء قد يحتاج يوماً الى ان يحاسب فيه نفسه .

---

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .
(٢) دائرة المياه في نابلس .
(٣) الجامعة الاميركية في بيروت .
(٤) استاذ التربية في الجامعة الاميركية ومن المنصلين بادارتها ، فقد كان زمنا « مسجلاً » فيها .
(٥) الاستاذ انيس المقدسي .
(٦) الامالي المجلد الثالث ، العدد الربع ، ص ٣ .

وعلى كل ، فان هـــذا طرف من الاحوال التي احاطت بابراهيم طوقان في الجامعة الاميركيـة . اما الطرف الآخر فيحسن السكوت عنه الآن ، لأنه لايتصل اتصالاً كبيراً بشعر ابراهيم .

✡

لا ريب في ان ابراهيم رغب في العمل في الجامعة الاميركية في اول الامر لما في مثل هذا المركز من الوجاهة ومن الفرص العلمية والادبية . على ان هنالك سبباً آخر كان اعظم اهمية في رأي ابراهيم : حبه لبيروت وكرهه لنابلس ، كانت نابلس لا توافقه صحياً . قال في صدد امكان عودته الى الجامعة الاميركية ما يلي[1] :

« وانا ـ على كل حال ـ اذا اردت ان اعود الى الكلية فعودتي اليها مطلوباً لا طالبا . . . انا يا عمر لم اكوّن جسمي في نابلس بل في القدس خمس سنوات وفي بيروت ثمان ، من سن ١٣ ـ ٢٧ ، وهـذا أثر في صحتي العامة . فلو تراني اليوم في حال من الحـالة الصحية لعجبت لي كيف ارضى بالاقامة في نابلس . واليك مثالاً صغيراً : غبت عن نابلس في لبنان وفي الشام خمسة عشر يوماً . فلما رجعت ، واقسم لك بالله ، ما شربت الشربة الاولى من مياه نابلس حتى ابتدأ معي مغيص المعدة الذي فارقني طيلة غيابي عن نابلس ! فما رأيك ؟ فاذا كان لي ان ارجع الى بيروت فذلك فراراً من وضعيتي في نابلس » .

وتعليل هذه النفرة من نابلس سهل : ان مياه نابلس كثيرة الرواسب من المواد الكلسية والقلوية ، اضف الى ذلك انها لم تكن قبل عام ١٩٣٦ قـــد جرت الى البيوت بأنابيب ، فكانت دائمـــاً معرضة للتلويث . وبما ان ابراهيم كان مصاباً بالقرحة وكان في امعائه استعداداً لانواع الالتهاب ، فان مياه نابلس لم تكن توافقه قط لما فيها من مواد كلسية وقلوية ولامكان تلوثها بالجراثيم المختلفة . ويبدي ابراهيم نفرة من نابلس في عدد من رسائله .

وفي بيروت ـ في هذه الفترة ـ عرف ابراهيم المستشرق نيكل[2] . والدكتور نيكل ولد

---

(١) نابلس ١٤ ايار ١٩٣٣ .

(٢) A. R. Nykl عبد الرحمن نيكل .

عام ١٨٨٥ في بوهيمية ، احدى المقاطعات التي نشأت منها جمهورية تشيكوسلوفاكية بعد الحرب العالمية الاولى . وفي عام ١٩١٦ تخرج من جامعة شيكاغو برتبة دكتور في الفلسفة . ولقد كان منذ ذلك الحين قد استقر نهائياً في الولايات المتحدة .

والدكتور نيكل متوفر على دراسة الآداب العربية ودراسة الصلة بين الموشحات الاندلسية ونشأة الشعر البروفنسالي[١] . وقد زار الدكتور نيكل العالم كله وقضى مدداً مختلفة متفرقة في المغرب ومصر ولبنان وسورية ، وهو كاتب خصيب فياض القريحة يجيد لغات متعددة منها التشيكية والفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية والعربية واليابانية وهو يقرأ ويتحدث ويكتب بهذه اللغات كلها . وللدكتور نيكل اهتمام بالاسلام وبالدراسات الاسلامية ، ولقد نقل القرآن الكريم الى اللغة التشيكية فطبع مرتين عام ١٩٣٤ و ١٩٣٨ .

وساعد ابراهيمُ الدكتور نيكل في نشر « كتاب الزهرة » لابن داوود الاصفهاني ، وهو مجموع شعر بارع[٢] . ولقد وفى الدكتور نيكل ابراهيم حقه من الاطراء في مقدمة كتاب الزهرة .

وفي هذا الدور عرف ابراهيم راقصة اسبانية تدعى مرغريتا كانت تعمل يومذاك في مقهى النجار ، غربي ساحة البرج ، في بيروت . ويذكر الدكتور نيكل[٣] انه حضر مع ابراهيم حفلة واحدة من حفلات مرغريتا رقصت فيها رقصاً اندلسياً بالصنوج الصغار .

وقد تدلّه ابراهيم بهذه الصبية الصغيرة الفاتنة التي كانت تمثل الجمال الاندلسي[٤] ، تمثيلاً صادقاً . وكان ابراهيم يتطلع اليها وهي ترقص مأخوذاً « سكران من غير خمر » . ويبدو انها كانت قد اصيبت في قلبها من قبل فخانها من احبته فكان يسرها ان ترى معجَباً

---

(١) او شعر الشعراء التروبادور في جنوبي فرنسه السابق على نشأة الآداب الحديثة في جنوبي اوروبة وغربيها . راجع مجلة الإمالي ، السنة الاولى : العدد ٤ ، ص ٤ – ٦ ؛ العدد ٥ ، ص ٤ – ٦ ؛ العدد ٦ ، ص ٤ – ٦ .

(٢) نشرته جامعة شيكاغو وتولت طبعه المطبعة الكاثوليكية في بيروت (١٩٣٢) .

(3) Cambridge, Mass., U.S.A., August 14, 1954.

(٤) الاندلس في الاصل مقاطعة في جنوبي إسبانية . وكثر اختلاط اهل هذه المقاطع بالعرب فنشأ من هذا الاختلاط الجمال الاندلسي المشهور .

بها مخلصاً . لذلك كانت تخصه ـ وهي تقوم برقصاتها ـ باشارات من مروحتها مقرونة بكلمات تدل على انها تبادل هذا المحب المعجب إخلاصاً باخلاص . وعرفت مرغريتا في بيروت عاشقاً غنياً كانت تُطمعه بنفسها طمعاً بماله ، اما في ما عدا ذلك فقد كانت حذرة يقظة تحسن اختيار الذي تلقي عليهم شباكها ـ كسائر ابناء جنسها . الا ان صلتها بابراهيم كانت بلا ريب صلة إعجاب صحيح وإخلاص عميق .

واجتمع ابراهيم الى مرغريتا اجتماعات كثيرة وجلس اليها مجالس انس متعددة ينهل من فتنتها . ولقد كانت من المنتظر في مثل هذه المجالس ان يتناول المجتمعون شيئاً من الشراب لخلق جو يعيد الى الذاكرة ايام بغداد وليالي الاندلس . وحتى ذلك الحين لم يكن ابراهيم قد أدمن على الخمر .

وتطورت صلات ابراهيم بمرغريتا حتى انتهت الى ما يُنتظر ان تنتهي اليه . ففي مجون ابراهيم قصيدة ـ او مشهد على الاصح ـ يُنحي فيه باللائمةعلى بني عُذرة لأنهم يحبون حباً روحياً ويسفّه رأيهم.ثم يختم هذه القصيدة بمقطع تمثيلي يصف فيه وصال مرغريتا[1]. ويبدو ان هذه القصيدة نظمت في منتصف عام ١٩٣٤ ، وبعد ان غادر ابراهيم ومرغريتا والدكتور نيكل كلهم بيروت .

وحمل الدكتور نيكل معه الى الولايات المتحدة صورة ابراهيم المولّه بحب مرغريتا . يقول ابراهيم في احدى رسائله (نابلس ١٩٣٤) :

« الدكتور نيكل رجع الى اميركا . وآخر ما بعث به إليّ كرتين بريديين على كل منهما غانية اندلسية ... وكتب لي عليهما باللغة الاسبانية » .

وتوثقت صلة ابراهيم في هذه الفترة ايضاً بعدد من الاصدقاء ارى ان اقتصر منهم على ثلاثة فقط : جمال القاسم وصديقان آخران .

جمال القاسم شاب من ابناء البيوتات المعروفة في نابلس وصديق وفي لآل طوقان ومن المعجَبين بابراهيم وبشعره . وجمال القاسم « صديق » بالمعنى العربي الخالص في السعة

---

(١) الدفتر ١٩٣٣ ، ص ١١-١٣ .

والضيق على السواء ومن ذوي الاخـــلاق الكريمة . وكثيراً ما كان ابراهيم اذا سئم من نابلس ذهب الى بيارة[1] جمال القاسم في حبلة (قرب قلقيلية من قضاء طـول كرم) ، كتب ابراهيم مرة في هذا الشأن [2] : « كنت في بيارة جمال القاسم اربعة عشر يوماً ثم عدت الى نابلس لأسافر منها الى القدس واقيم اسبوعين ، فانا غائب عن نابلس شهراً بلياليه » .

واما الصديقان الآخران فاحدهما من فلسطين والآخر من سورية . وهـذان شاعران تغلب عليهما المجانة . وابراهيم نفسه يصف اولهما بالرعونة ايضاً [3] . واما الثاني فلا يرى الحياة الا في التهتك والفسق [4] .

عرف ابراهيم هذين الصديقين في عـــام ١٩٣١ فدلاه على طريق الملذات المستأجرة ودلياه في الشراب وفي مطـاردة المحصنات والمتزينات للرجال . يتكلم ابراهيم عن هذين الصديقين في احدى رسائله فيقول [5] :

« ... ولذلك لم اهتم بالتنقـل في الجبل بل فضلت القرار في مكان[6] اللهم الا (مشوار) للجامعة قضيت فيه مهمة لقدري [7] ... ومشوار نزلت فيه مع ... في طاعة ابليس .

« ثم ذهبنا الى الشام من ٢٠ ـ ٢٥ آب ، وهناك انفدنا ما كنا ادخرناه في الجبـل من صحة وقوة ومال دفعناه لبنات امية إكراماً لعيني الوليد بن يزيد وذوابتي حبّابة [8] . يا روحي على دمشق ... » .

وقد ترك ابراهيم مجموعة من الشعر في المجون يدور اكثره على هذين الصديقين ووصف اعمالهما في هذا الباب لا ارى ان استشهد منه بشيء .

---

(١) البيارة بستان برتقال ، وفيه عادة اسباب للسكنى والراحة .
(٢) نابلس ، ١٤ ايار ١٩٣٣
(٣) القدس ، ١٣ تشرين الاول ١٩٣٨ .
(٤) نابلس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .
(٥) نابلس ، ٢٣ ايلول ١٩٣٤ .
(٦) في مكان واحد من الجبل (لبنان) .
(٧) قدري طوقان .
(٨) يقصد ابراهيم يزيد بن عبدالمـــلك وكان قد شغف بجاريتين اسم احدهما سلامة واسم الاخرى حبابة (الفخري ٩٥) .

على ان ابراهيم لم يعد الي العمل في الجامعة الاميركية مرة ثانية ، بل عُين في المدرسة الرشيدية في القدس ، وهي مدرسة حكومية . ولم يجد ابراهيم صعوبة في « نيل منصب معلم في مدرسة رسمية » . وهذا ما حمله على ان يكتب الي فيقول [1] : « امر استخدامي في المعارف مفروغ منه ، إلا ان المكان لم يعين لي بعد ، وعلى الاغلب اكون في القدس في المدرسة الرشيدية » .

وبعد نحو شهر عاد ابراهيم فكتب الي يقول [2] : « لقد تم تعييني في المدرسة الرشيدية وسأكون انا واحمد معاً في دار واحدة » . وقبيل افتتاح موسم التدريس كتب يقول [3] ، « يبتدىء التدريس عندنا في الثالث من اكتوبر . ويكون عندي ٢٨ حصة . ومواضيعي قواعد وانشاء وقراءة ومحفوظات ، واربع حصص تاريخ العرب » .

ابراهيم طوقان في عام ١٩٣٣

ولم ير اهل ابراهيم بأساً في ان يعـــود ابراهيم الى صناعة التعليم وان يعيش في القدس بعيداً عن « الدار » ، فقد كان اخوه احمد استاذاً في الكلية العربية في القدس ، وقرر ان يعيش احمد وابراهيم في بيت واحد كما رأينا . ولكن ابراهيم لم يمكث في المدرسة الرشيدية سوى ثلاثة اشهر ، هي الاشهر الثلاثة الاخيرة من عام ١٩٣٢ ، ثم ساءت حالته الصحية واضطر الى اجراء العملية الجراحية الكبرى في معدته في اوائل كانون الثاني من عام ١٩٣٣ [4] . وفي الثاني من

(١) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢

(٢) القدس ، ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٣) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

(٤) راجع قصة مرضه ، ص ١٩ وما بعدها .

شهر شباط خرج ابراهيم من المستشفى ومنحته حكومة فلسطين اجازة شهر . ولكن ابراهيم كان قد قرر ان يستقيل مرة واحدة من صناعة التعليم فكتب الي يقول [1] : « ينقضي الشهر ، وهو شهر شباط ، فاكون قد قدمت استقالتي لحكومة فلسطين مطلقاً مهنة التعليم طلاقاً لا رجعة فيه » . وفعلاً استقال نهائياً وترك التعليم [2] ولكن الى حين .

في هذا الدور القصير اكتسب ابراهيم عداوة احمد سامح الخالدي .

احمد سامح الخالدي مؤسس الكلية العربية في القدس ومن رجال التربية والتعليم الذين كان لهم اكبر الاثر في توجيه المعارف في فلسطين . وتوثقت الصلة بين آل طوقان وآل الخالدي لما تزوج احمد طوقان ، اخو ابراهيم ، في اوائل شهر آب من عام ١٩٣٢ [3] بنت نظيف الخالدي الذي كان مهندساً لسكة حديد الحجاز وساكناً في بيروت حيث توفي في منتصف الحرب العالمية الاولى . ومن طريق هذا الزواج اصبح احمد طوقان « عديلاً » للدكتور حسين الخالدي وصديقاً لاحمد سامح .

وكانت الصلات بين احمد سامح وبين ابراهيم دائماً حسنة اذ كان احمد سامح معجباً بابراهيم وصديقاً له منذ كان ابراهيم في بيروت ، وكان احمد سامح يتردد عليها لأنه متزوج في آل سلام . ويبدو ان النفرة بين الرجلين بدأت مع دخول ابراهيم في معارف فلسطين ، مع العلم بان احمد سامح كان قد ساعد ابراهيم على تحقيق هذه الرغبة . كان احمد سامح [4] - كما يبدو - رجلا يحب السيطرة ويرى فرض آرائه في جميع الاعمال ألتي يتولاها . ولا غرو فجميع الرجال الذين يتولون مناصب ذوات تبعة يفعلون ذلك . وكان أبراهيم ذاهباً بنفسه في كثير من الامور لأنه لم يطلب منصب معلم في المدرسة الرشيدية - ولا في الجامعة الاميركية من قبلُ - ليكسب معاشه ، فقد كان في غنى عن ذلك كله .

---

(١) القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ، ١٠ آذار ١٩٣٣ .

(٣) القدس ، ١٣ تموز ١٩٣٢ والقدس ١٠ آب ١٩٣٢ .

(٤) احمد سامح الخالدي من كبار المربين في العالم العربي ، كان رئيس الكلية العربية في القدس واحد مساعدي مدير المعارف العام في فلسطين يتولى الناحية الفنية ، اما الناحية الادارية فكان يتولاها جبرائيل كاتول . وكان للشؤون اليهودية في وزارة المعارف مساعد آخر يهودي .

ولكنه آثر ان يعمل دائماً كيلا يبقى عاطلاً من العمل لايدري كيف ينفق وقته . من اجل ذلك لم يكن كثير المداراة للاشخاص الذين كان يتصل بهم في نطاق وظيفته . ثم انه كان ـ اذا تحركت آلام معدته ـ سريع التأثر تثيره الامور العادية وتغضبه الملاحظات اليسيرة .

ونامت النفرة بين احمد سامح وبين ابراهيم حتى عام ١٩٣٤ حينما جرت الانتخابات البلدية في انحاء فلسطين ثم عين الدكتور حسين الخالدي في مطلع ١٩٣٥ رئيساً لبلدية القدس . ويفصل ابراهيم في احدى رسائله[١] السبب الذي ادى الى تلك الاستفاقة والمناسبة التي لابستها فيقول :

« اخي عمر !

« اسمع . الحديدة حامية بيننا وبين احمد سامح الخالدي . هنالك كتاب المحفوظات تقدم الى لجنة اختيار الكتب وهو باسم ابي سلمى[٢] واسمي . وكفى ان يكون اسمي عليه لتبذل المساعي في رفضه ولو كان فيه خلود معارف فلسطين . والاسباب سياسية (. . . .) ، من عهد الانتخابات البلدية وبضعة ابيات من الشعر قيلت في الموضوع[٣] فلم تكن على مزاج الفائزين بالبلدية اولاد الخالدي . حتى اخونا احمد طوقان لاينظر الينا بعين الرضى ، وكرمال عين[٤] . . . . فكيف وهذه العين خالدية (احمد عديل الدكتور الخالدي رئيس بلدية القدس الآن) . انا ارى ان يحذف اسمي من الكتاب ولا يبدو عليه اثر منه لأنه سيكون مقضياً عليه لا محالة » .

ووقف احمد سامح في وجه ابراهيم وقاوم تقرير كتاب المحفوظات المذكور في معارف فلسطين . فلم يثر ابراهيم هذه المرة بل ظل هادئاً وعدّ القضية ـ قضية الكتاب ـ

---

(١) نابلس ، ١٩ شباط ١٩٣٥ .

(٢) عبد الكريم الكرمي .

(٣) لم استطع ان اعرف الابيات التي نظمها ابراهيم في هذه المناسبة .

(٤) مقطوعة من المثل العامي : كرمال عين (إكراماً لعين واحدة) تكرم مرجعيون (اسم بلد) كناية عن الكثرة .

منتهية . اما النفرة فتحولت الى عداوة كان ابراهيم يرى انها لاتضره هو لأنه غير محتاج الى الكتاب ولا الى احمد سامح . وهكذا كتب يقول [1] :

ليس الامر بيني وبين احمد سامح بالامر المهم عنـــدي انا ولكن عنده هو (وانت لا تعرف اخلاقه) . . . . وهو يسيء الظن في مسائل ابعد ما تكون مناسبة عن حقيقتها وعما يفسرها ويجتهد فيها . ولله في خلقه شؤون ، كتاب محفوظات صغير لي ولأبي سلمى يقول صراحة : « لن يمشي » فتأمل . ويمر اول امس بنابلس فيشيح بوجهه عني . . . . . »

وبعد ان خرج ابراهيم من المستشفى واستقال من معارف فلسطـــين استجم بضعة اشهر ثم عمل في دائرة المياه التي كانت تابعة لبلدية نابلس . ولقد حمله الفرح من التخلص من التدريس على ان يكتب الي [2] : « انا اشتغل الآن . شغلي يتعلق بأول الاشياء التي تنفي عن القلب الحزن [3] : اشتغل بدائرة الميـاه في نابلس . الشغل لا يوجد فيه تصليح دفـاتر والسلام ... المعاش مليح » . على ان اعمال دائرة الميـاه شغلته فيما بعد كثيراً ، ذلك لأن مشروع المياه كان لا يزال في اوله ، فنابلس الى ذلك الحين لم تكن تتمتع بميـاه تجري الى البيوت . ومنذ شباط ١٩٣٥ شعر ابراهيم بكثرة العمل وخصوصاً بعـــد ان جعل ينظّم حسابات المصبنة التي يملكها والده عبدالفتاح آغا وعمه في نابلس . من اجل ذلك لايستغرب احد اذا رآه يقول في احدى رسائله [4] : « شواغل ، شواغل ، شواغل ، يا عمر ! دائرة المياه ، وطوفان الامطار في نابلس (ولعلك قرأت عنه) والمصبنة » .

وفي رسالة تالية ، بلا تاريخ [5] ، يخبرني ان نجاح مشروع الميـــاه في نابلس مطّرِد

---

(١) نابلس ، ١٣ نيسان ١٩٣٥ .

(٢) نابلس ، ٣١ تموز ١٨٣٣ .

(٣) من ابيات الشعر السائرة :

ثلاثة تنفي عن القلب الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن !

(٤) ١٩ الشهر الملعون ١٩٣٥ .

(٥) هذه الرسالة يجب ان تكون قد كتبت في حزيران او تموز من سنة ١٩٣٥ لأنه يـذكر فيها انني رشحته للتعليم مكاني في كلية المقاصد ويعتذر عن قبول النصب ، وانا غادرت بيروت الى المانيـة في اواخر آب ١٩٣٥ . ولكنه يذكر فيها ايضاً انه على وشك الفراغ من نظم قصيدة « الشهيد » التي يفهم من الديوان انها كتبت في ١٩٣٣ (للذكرى الرابعـة للثلاثاء الحمراء في تموز ١٩٢٩) . ولا ريب في ان ١٩٣٥ اصح من ١٩٣٣ لهذه الرسالة ولقصيدة الشهيد .

اطراداً حسناً بعد ان تم ورأت البلدية ان تستغني عن المهندس الذي سيّر المشروع . يقول ابراهيم في هذه الرسالة : « ومعنى ذلك انني انا مدير الدائرة فعلاً وان كنت كاتباً فقط ... وربْحُ المشرروع المنتظر يحتمل ان يزيد راتبي (منه). وما ذلك على رئيس البلدية بعزيز[1] ».

غير ان ابراهيم ما لبث ان استقال من دائرة المياه وانصرف الى تنظيم حسابات المصبنة . ولقد اخبرني في ١٧ تشرين الاول ١٩٣٥ [2] انه كان قد استقال من دائرة المياه وانه « يداوم على المصبنة كل يوم من الساعة السابعة حتى الواحدة بعد الظهر ويرجع عند العصر الى نحو الثامنة مساء، عملاً بحكمة زعيم الخلفاء الراشدين عمر رضي الله عنه حين قال : التجارة ثلث الامارة ، ولا بأس من مزاولة بعض الاعمال التجارية الآن ففيها تسلية وفيها فائدة ايضاً ، ولعلي اخبرتك انني استقلت من عملي في بلدية نابلس فاصبح ضرورياً ان املأ الفراغ المضجر المفسد [3] بما ينفع ويحفظ فينا القوة على العمل والانتاج » .

في الاذاعة الفلسطينية

وفي اواخر عام ١٩٣٥ كانت الحكومة تعد العدة لانشاء محطة اذاعية وتبحث عن اشخاص يتولون امورها . وكان ابراهيم احد هؤلاء الاشخاص ، قال في رسالة له [4] :

« حكومة فلسطين جادّة في انشاء محطة اذاعة لاسلكية يذاع منها باللغات الرسمية الثلاث العربية والانكليزية والعبرية . والبرنامج يحتاج الي موظفين جدد . وكل لغة يحتاج برنامجها الى مدير . والمدير يجب ان يكون شخصية ادبية معروفة في البلاد ومن اصحاب المكانة فيها . ولا ادري كيف تم الامر ، ولكنني لم اجد نفسي الا في جلسة غير رسمية مع

---

(١) كان رئيس البلدية في ذلك الحين سليمان بك طوقان احد اقارب ابراهيم .

(٢) الرسالة مؤرخة في ١٦/١٠/٣٥ نابلس . ولكن نصفها الثاني الذي يقص فيه هذا الخبر مؤرخ في ١٧/١٠/٣٥ .

(٣) اشارة الى بيت من ارجوزة ابي العتاهية :

ان الشباب والفراغ والجدَة . مفسدة المرء اي مفسدة

(٤) نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

المستر فيرنس[1] الانكليزي مدير المطبوعات ، في فندق الملك داوود بالقدس ، ومعه آخر هو مدير استخبارات الجيش وقسم الطيران منه . الجلسة عادية لا رسميات فيها مطلقاً ولا سؤالات تتعلق بعمل او باي شيء سوى ما كان من استغراب الرجل وزميله من ان يكون ابراهيم طوقان ، صاحب القصائد المهيجة بهذا الجسم الضئيل ، وكان يُظن قويّ العضل ضخم الجثة على رأسه عمامة . فقلت ما معناه : ترى الرجل النحيف فتزدريه . . . . الخ[2] . وذكرنا كلمة يوليوس قيصر في كاسيوس النحيف وبروتوس الجسيم !![3] .

انقضت الجلسة واصبح الصباح واذا بمستر فيرنس يوعز لاحسان هاشم[4] كي يحملني على تقديم الطلب لمركز « مدير برنامج الاذاعة العربي » ورتبته (Senior K.) وهو درجة اولى يبتدىء براتب قدره ٢٩ جنيهاً شهرياً . وقدمنا الطلب حسب الاصول ، وها نحن ننتظر شيئاً جديداً في عالم السعي في طلب الرزق ، والباب الذي يفتحه الله لا ينبغي للعبد ان يغلقه ، ولعل الله ييسر ، فالمركز طيب والمبلغ لايستهان به والمسئولية فيه لا تكبد حاملها كبير تعب وعناء » .

وسكت القائمون على « مصلحة الاذاعة » نحو شهرين ثم عادوا الى ابراهيم . يقول ابراهيم في رسالة بعث بها الي من عمان[5] .

« لايوجد شيء أمضُّ على المرء من الانتظار . ولا يوجد ما يعرقل العمل والبرنامج

---

(1) Furness.

(٢) ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي اثوابه اسد مزير

مطلع مقطوعة تتألف من تسعة ابيات للعباس بن مرداس ، وهو شاعر مخضرم وصحابي جليل . وقد اختار ابو تمام هذه الابيات في ديوان الحماسة .

(3) Tragedy of Julius Caeser, I, ii:

Yond Cassius has a lean and a hungry look ; He thinks too much : Such men are dangerous.

ان لكاسيوس الواقف هنالك وجهاً مسنوناً (اعجف ، نحيلاً) ونظراً ضارياً (جائعاً ، طماحاً) . انه يفكر كثيراً : والناس الذين هم مثله خطرون .

(٤) احسان شاكر هاشم ، كان من ١٩٣٤ – ١٩٣٦ السكرتير الخاص للمندوب السامي في فلسطين A U B Directory 1953, p 201

(٥) عمان ، ٣٦/٢/٤ .

كالانتظار . اقول ذلك على اثر ما حصل مما حدثتك عنه ، اعني (الاذاعة العربية لحكومة فلسطين) . فهذه بعد ان قابلت الجماعة المسؤولين وحصل القبول استولى عليهم نوم عميق كنت انا خلاله ساهراً . . . وبعد مضيّ ما يقرب من اربعين يوماً[1] عادوا وطلبوني للمقابلة وسألوني هذا السؤال البارد : هل انت مستعد لقبول هذا المركز ؟!! فأنصفني ، يا اخي ، من هؤلاء السخفاء ! ولا بد من القول أنني كنت اتحسس الاخبار فأجد انهم على اتصال مع اناس آخرين يفاوضونهم في المشروع ذاته ويقابلونهم ويقارنون بيننا أينا الاصلح ، فيرجعون ويرون انني الاصلح لولا انني مهدد بحالات صحية يخافون من عواقبها على العمل ان يتعرقل ، ومن السخف ان اقول يخافون من عواقبها علي انا . . . وكان قد تقدم اليهم طلبات عديدة منها ما هو موعز به من قِبَل دائرة المعارف !! واخيراً - على ما ظهر - قر قرارهم على اخذي وحولوا اوراقي للمندوب السامي ليوافق عليها ، وها انا اتوقع ان ادعى الى العمل في كل وقت . وقد تركت في فلسطين التعليمات اللازمة حين يحصل ما يستوجب استدعائي من عمان حيث انا الآن عند اخي احمد اقضي اياماً لا بأس بها » .

وفي آذار ١٩٣٦ تسلم ابراهيم إدارة برامج اللغة العربية في الاذاعة الفلسطينية ، وقد سر بعمله الجديد كثيراً لأن «مثل هذا العمل يوافق ذوقه ويمشي مع ميوله[2]» ، وبلغ من سروره ان كتب الي يقول[3] ،

«أسرعت بالكتابة اليك غير مفصل لكي ألحق بك في باريس قبل سفرك منها ويصلك كتابي قبل مغادرتها . انا الآن مدير البرنامج العربي في مصلحة الاذاعة اللاسلكية بفلسطين .

---

(١) الصواب نحو شهرين .

(٢) اخي ابراهيم ٧٥ .

(٣) هذه الرسالة بلا تاريخ . وهو يذكر فيها عنوانه الجديد : بانسيون المازي ، القدس ، صندوق البريد ٦٦٢ . ان محطة الاذاعة الفلسطينية افتتحت في الثلاثين من آذار ١٩٣٦ (المنتدى المجلد الاول ، العدد الثامن ، الجمعة ٢٩ آذار ١٩٤٦ ، ص ٦، ٨، ١٣) . وفي هذا العدد نفسه من « المنتدى » قالت فدوى طوقان : « ففي مثل هذا اليوم منذ عشر سنوات نقل الاثير على امواجه لأول مرة في تاريخ اذاعة القدس ، اول صوت عربي الى فلسطين خاصة ، والى الاقطار العربية عامة ولم يكن ذلك الصوت الحبيب الا صوت اخي ابراهيم - رحمه الله - (ص ١٠) فالرسالة اذن يجب ان تكون قد كتبت في نيسان ١٩٣٦ .

وقد بعثت اليك بكتاب في ذلك الى عنوانك القديم ببرلين ولم ارك اشرت إلا الى كتابي الذي بعثت به اليك من عمان قبل ان استلم عملي . العمل لذيذ وان كان لايزال كثيراً

ابراهيم طوقان (الى يمين القارىء) يتحدث الى يحيى اللبابيدي وهما موظفان في الاذاعة

متعباً باذىء ذي بدء ، وعسى ألا يمضي وقت طويل حتى يكون كل شيء جرى مجراه وهان الصعب فيه » .

(زواج ابراهيم)

لم يتزوج ابراهيم باكراً . وذلك راجع بلا ريب الى ان حالته الصحية كانت دائماً سيئة ويخشى ان يزيدها الزواج سوءاً ـ مع العلم بأنه كان ينهك قواه احياناً كثيرة . على ان والده حينما كان يعارض زواجه كان يحتج لمعارضته تلك بأن ابراهيم لم يكن قد استقر مادياً بعد . كتب ابراهيم مرة [1] يقول :

« لا ادري كيف فهمت من تحريري انني اسعى لأتمم مسألة الزواج . اظن ان هذا

(١) القدس ٧ اغسطس ١٩٣١ .

بعيد . والوالد ، كما قلت لك مرة ، لا يوافق عليه ما دامت مادياتي غير مكفولة . ويزيد هذه الفكرة [1] رسوخاً في ذهنه (وذهني ايضاً) ما شجر بيننا في الجامعة من الخلاف وترك مسألتي معلقة لا يعرف لها مصير » .

ولكن في عام ١٩٣٦ استقرت حالة ابراهيم الصحية وحالته المادية ايضاً ، فاخذ يفكر في الزواج . كان يعمل في ذلك الحين في الاذاعة الفلسطينية (الاذاعة العربية لحكومة فلسطين) . وكانت تتردد على الاذاعة آنذاك فتاة تلقي الحديث بعد الحديث فاعجب بها ابراهيم جداً وعزم على الزواج بها وكتم ذلك عن اهله وعني ايضاً حتى تمت جميع المقدمات . قال في احدى رسائله [2] :

« . . . وعولت على الزواج باذن الله تعالي وتوفقت جداً في الوقوع على نصفي الجميل الذي اتمم به نصف ديني . ومنذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ، قدمت هدية الخطبة الرسمية . وفي خلال الايام الباقيه من هذا الشهر يكتب كتابي . المدموزيل هي شقيقة روحي بك عبد الهادي . وانت ترى ان اليمانية (نحن) والقيسية (بيت عبد الهادي) قد عقدوا الاكف على نسيان خصوماتهم التي يرجع عهدها الى حرب بكر وتغلب ، والنزارية واليمانية .

« وانت تعلم انني ارفض كل الرفض ألا اكون شاعراً في اختيار عروستي . وانا اؤكد لك انني كنت شاعراً كل الشاعر ، وان العروسة لا تقل ابداً عن غادة هيفاء حسناء يبتدعها خيالي الغزلي. اما العيون فهي من النوع الذي قيل فيه (منصورة الاجفان بالانكسار)، واما الخصر فهو في غاية الاختصار » .

اما العروس فهي ساميه بنت قاسم عبدالهادي ، واخت روحي باشا [3] عبدالهادي (ت ١٩٥٤)

---

(١) الاضراب آنياً عن الزواج .

(٢) القدس – هذه الرسالة بلا تاريخ ، ولكنها كتبت في ٧ آذار ١٩٣٧ لان ابراهيم يذكر فيها قوله : منذ ثلاثة ايام ، اي مساء الخميس الموافق ٤ آذار الجاري ... ثم ان هذه الرسالة وصلت الي وأنا في قرية فلسبيرغ بالمانية في ١٢ آذار ١٩٣٧ .

(٣) نال روحي بك عبد الهادي ايضاً رتبة الباشوية من امارة شرقي الاردن .

كما مر . وهي فتاة مثقفة تلقت علومها في كلية البنات الانكليزية ودار المعلمات في القدس. وكانت مدرّسة في المدرسة الحكومية للبنات في القدس ايضاً .

وعارض والد ابراهيم في اول الامر هذا الزواج لسببين اساسيين ثم لسببين ظاهرين. اما السببان الاساسيان فاولهما حالة ابراهيم الصحية التي كانت ـ على الرغم من استقرارها الظاهر ـ عرضة لتقلبات مفاجئة . واما ثانيهما فهو ان آل عبدالهادي خصوم لآل طوقان منذ الفتح العثماني ـ او منذ الفتح العربي كما يقول ابراهيم ، أو منذ أيام بكر وتغلب في الجاهلية .

واما السببان الظاهران فهما ان مركز ابراهيم في « الاذاعة » لم يكن كثير الثبات ، بل كان قلقاً جداً . ثم ان ابراهيم لم يخبر والده بمشروع الزواج هذا قط ، ولكنه جاء من القدس الى نابلس قبيل كتابة الكتاب (العقد) وقال لوالده : غداً موعد عقد زواجي فارجو ان تحضُرَه . فاستغرب الوالد ذلك وقال لابراهيم : هبني رجلاً غريباً ، يا ابراهيم ، ألا تخبرني إلا قبل عقد قرانك بيوم واحد ؟ فقال ابراهيم انا لم اخبر احداً قط وهذا ، ما تم الآن فارجوك المعذرة . ثم ان لي عليك ديناً ايضاً . فسأله الوالد مستغرباً : وما هذا الدين الذي لك علي . فقال ابراهيم : لما تزوج اخي احمد اعطيته مائتي جنيه ، وانا اريد مثلها .

وبعد ان كان الوالد قد امتنع عن حضور عقد زواج ابنه عاد فقبل ، بما له من الحكمة والتعقل وبما في نفسه من المرح والعطف على ابراهيم ، ان يحضر وان يعطي ابراهيم ما اراد .

ورزق ابراهيم من هذا الزواج السعيد صبياً سماه جعفراً وابنة سماها عُريب[1] بالتصغير خطأ . ولما قلت لابراهيم ان هذا الاسم يضبط عَرِيباً بالفتح قال : هو كذلك ، وقد عرفت فيما بعد انني وهمت في قراءة هذا الاسم في كتاب الاغاني . اما الاسم قد عرف بلفظ هذا فلا سبيل الى تغييره الآن .

✡

(١) عريب بالضم تصغير لكلمة « عرب » ؛ وعرِيب بالفتح معناه الانسان المرح .

وكان ابراهيم عظيم النشاط في مصلحة الاذاعة، قال لي في احدى رسائله [1] : « لعلك تلاحظ فيّ روح التصيد للاذاعة [2] . هو كما تري ، لقد اصبح دأبي ان اجعل هذا البرنامج [3] تحفة من التحف بحيث ابز به برنامج مصر . وقد توفقت في ذلك الى حد بعيد . وقد جاءني الثناء العاطر على البرنامج من مصر نفسها ومن العراق وسوريا والهند والرياض ، فتأمل كم يدعو ذلك الى النشاط وكم يتسع العذر معه للتصيد » .

واستمر نشاط ابراهيم في الاذاعة استمراراً كان يقوى كل يوم ويتسع ويؤدي الى الاذاعة الخدمات العظيمة [4] حتى ان ذكر هذه الخدمات جاء في البيان الذي اعلن فيه القسم العربي لمصلحة الاذاعة وفاة ابراهيم ، كما سيرد في آخر هذه الترجمة .

غير ان هذا التقدم لم يكن يسر القائمين على المحطة، فالمحطة في جميع البلاد المستعمرة يجب ان تكون للدعاية للحكام لا لتثقيف الشعب وذكر مفاخره وأمجاده . ولم يكن بامكان اسياد المحطة ان يقولوا لابراهيم انك « بلغت بالمحطة الذروة » ، وان البرنامج الذي تعده رفيع جميل ، وأنك تنبه اهل البلاد الى حقيقة حالهم ، ولذلك يجب ان نقيلك من المحطة، بل حاولوا ان يقعوا منه على هفوة تصلح عذراً في اعين الناس . فكان اولَ ما فعلوه ان جعلوا يراقبون رسائله ، فكتب الي مرة يقول [5] في رأس الرسالة : « ارجو ان تضع لفظة « خصوصي » على مغلفاتك كيلا تفتح وتقرأ قبل ان استلمها ـ ابراهيم طوقان » .

وبعد قليل اشتدت الحملة على ابراهيم وعلى ما يعده هو للاذاعة او على ما يقبله ليذاع في البرنامج العربي . ولقد اتخذت هذه الحملة ثلاث صور [6] :

---

(١) القدس (٧ آذار ١٩٣٧) .

(٢) لمناسبة اذاعة حديث عن العباس بن الاحنف كتبه استاذي المستشرق يوسف هل Joseph Hell ، كان له كما يقول ابراهيم « رنة وطنة ولفتت الصحف اليه النظر وحثت على الاستزادة منه » فارسل يطلب بواسطتي حديثاً آخر للمستشرق نفسه .

(٣) اي البرنامج الادبي .

(٤) راجع عدداً من رسائل ابراهيم ؛ ثم مجلة المنتدى (العدد الآنف الذكر) ص ٥ – ٦ : كلمة القسم العربي . ثم ص ١٠ – ١١ : ابراهيم بقلم الآنسة فدوى طوقان، وراجع ايضاً كتاب « اخي ابراهيم » لفدوى طوقان ، ص ٧٥ وما بعدها .

(٥) القدس ، ١٣/١٠/٣٨ .

(٦) راجع « اخي ابراهيم » ص ٧٧ - ٨١ .

١ ـ كانت الجهات اليهودية ترى ان القسم العربي كان موجهاً توجيهاً «عربياً» يمكّن من اعداد القوى العربية في المستقبل لمقاومة اليهود .

٢ ـ ورأى الانكليز القائمون على المحطة ان « توجيه المناهج » كان يمنع توطيد الاستعمار . انهم كانوا يريدون ـ فيما يريدونه مثلاً ـ إحلال العامية محل الفصحى ، وملء البرنامج باشياء طريفة خفيفة لإلهاء الناس « وتمييعهم » لا لايقاظهم وشد عزائمهم .

٣ ـ ثم كان هنالك خصوم ابراهيم الشخصيين في الاذاعة نفسها وفي خارجها .

على ان هذا وامثاله ، كما سبق لنا القول فقلنا ، لا يمكن ان يتخذ عذراً رسمياً لاقالة ابراهيم . لقد كان هذا كله مزعجاً لابراهيم ولكن لم يكن مضراً به .

واخيراً سنحت الفرصة لازاحة ابراهيم :

قدم ابراهيم للاذاعة قصة من وضعه هو باسم عقد اللؤلؤ ، تدور حول الامانة . وقد رأى المشرفون على الاذاعة ان « الامين » ، بطل القصة ، انما هو رمز الى الحاج امين الحسيني . وبما ان الاذاعة حكومية ، والحاج امين مناوىء للحكومة ، فان عمل ابراهيم يعد خروجاً على « العرف المسلكي ، وذلك مما يؤاخذ به ابراهيم. على ان السبب الاساسي لاقالة ابراهيم كان قصيدة نظمها ابراهيم في ذلك الحين ، مطلعها :

وردٌ ومحن وغيد في البجامات ؛ يا شهر ايار يا شهر الكرامات !

هذه القصيدة في المجون ، وهي عجيبة من العجائب في حسن التصوير والسبك وفي الشاعرية . ولقد لاقت هذه القصيدة رواجاً كبيراً وانتشرت بالرواية والاستنساخ اكثر من شعره الذي نشر في الصحف والمجلات . غير ان في هذه القصيدة تعريضاً شديداً بأحوال دينية معينة وباشخاص كانت تحتضنهم السلطة الانكليزية ذكرهم ابراهيم باسمائهم .

وحرص ابراهيم على ألا تحمل هذه القصيدة قرائن مادية تكشف عن شخصيته فنسخها على الآلة الكاتبة ، ولكنه ترك نسخة منها في جرّار مكتبه ، بدائرة الاذاعة . ويبدو ان بعض خصومه في الاذاعة عرف بأمر القصيدة وعرف بأمر النسخة التي في الجرار فدل عليها رؤساءه .

وقامت الحجة على ابراهيم في ذلك ، « ومن مأمنه يُؤتى الحَذِرُ » . وهكـــذا أقيل ابراهيم من منصبه بدار الاذاعة في اول تشرين الاول عام ١٩٤٠ [١] . ولقد كانت اقالته هذه مفاجئة لكثيرين حتى قال الاستاذ انيس المقدسي [٢] : « لأمر لم نطلع على خوافيه استقال من منصبه (في الاذاعة) وقصد العراق ... » على ان خوافي الامر كانت قصة عقد اللؤلؤ وقصيدة شهر ايار وسياسة استعمارية واضحة .

ولما اخبرني ابراهيم قصة عقد اللؤلؤ وبقصة القصيدة ـ وكنا نسير معاً في الكرّادة ببغداد ـ قال لي : « ولكن الجماعة كانوا طيبين . لقد دفعوا لي تعويض الصرف كاملاً وقيمة الضمان على الحياة . فالاقالة من الناحية المادية كانت رابحة جداً » .

في بغداد

لما اقيل ابراهيم من عمله في مصلحة الاذاعة الفلسطينية فكر في العمل في محل آخر لاسباب مختلفة . انه اولاً رب اسرة يجب ان يعمل لتعيش اسرته من كسب يمينه هو ، مع ان والده كان قد اغناه عن هذا كله . ثم ان ابراهيم اراد ان يفقأ حصْرِماً في عيون اعدائه في مصلحة الاذاعة فيريهم ملء اعينهم ان ابراهيم طوقان يستطيع ان يعمل حيث أراد ويكون مكرماً ، وانه لا يبقى عاطلاً عن العمل ـ لو اراد ـ ساعة واحدة . على ان ابراهيم كان ايضاً قد أثار حفيظة المستعمرين والسائرين في ركاب المستعمرين أثارة جعلته ـ بعد ان خرج من الوظيفة الحكومية مغضوباً عليه ـ يخشى على حياته . من اجل ذلك اراد ان يعمل في خارج فلسطين اذا امكن .

واستطاع ابراهيم بوساطة صديقه طالب مشتاق ـ قنصل العراق في القدس يومذاك ـ ان يجد ترحيباً لدى وزارة المعارف العراقية بقدومه الى العراق للعمل في التدريس ـ من غير تعيين لمواد التدريس او مكانه . ولا ريب في ان ذلك دليل كبير على رغبة الحكومة العراقية في تأدية خدمة للاديب المبدع ابراهيم طوقان .

---

(١) اخي ابراهيم ٨٢ .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ص ٣ .

ولكن والد ابراهيم خشي مغبة الذهاب الى العراق. ان جو العراق القاسي في الصيف وفي الشتاء شديد على ذوي الجسوم الصحيحة، فما قولك بجسم مثل جسم ابراهيم. على ان الحيلولة بين ابراهيم والعراق في ذلك الحين كان جَرْحاً لكرامة ابراهيم. وفكر الوالد الرحيم طويلاً بين حجز ابراهيم في نابلس للمحافظة على صحته وبين الرضى عن ذهابه الى العراق حفاظاً على كرامته. واخيراً استسلم الوالد الى ما لا خِيَرَةَ له فيه ثم ابتعد عن عيون ولده ليذرف دمعة حملت جميع معاني الحنو الابوي.

وسافر ابراهيم الى بغداد ونفسه مملوءة بنشوة الظفر على خصومه، فقام له ذلك مقام الغذاء المفيد والعلاج الناجع والراحة التامة. ولكن ابراهيم لم يكن يدري بأن الخصومات الصغيرة والحزبية الضيقة قد سبقته من فلسطين، بل من نابلس، الى بغداد.

وكان المفروض والمفهوم ان يكون ابراهيم استاذاً في دار المعلمين العالية في بغداد نفسها فيكون عمله حينئذ اسهل وأقرب الى اختصاصه في اللغة والادب، ثم يكون بامكانه ان يعيش في وسط ادعى للراحة وعلى مقربة من اخوانه من اهل بغداد ومن المدرسين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين في مدارس بغداد. ولكن احد خصوم ابراهيم السياسيين والشخصيين في نابلس [1] كان يومذاك في بغداد. وكان ابراهيم رحمه الله يعتقد بان هذا الخصم يكيد له.

ويبدو ان المكيدة قد نجحت فعين ابراهيم في دار المعلمين الريفية في الرستمية على بعد اربعة كيلومترات من الكرادة وعلى بعد سبعة كيلومترات من الباب الشرقي في بغداد. من اجل ذلك اضطر الى السكنى في الكرّادة [2]. وبعد مدة يسيرة لحقت بابراهيم اسرته المؤلفة من زوجه وابنه جعفر وابنته عريب، وجاء معهم اخوه رحمي ليظل الى قربه وليصرف شؤون الاسرة المنزلية لأن اهتمام ابراهيم وطاقته كانا يقصّران عنها. وان من يرى حمية رحمي ونشاطه في ذلك كله يرى عجباً.

---

(١) راجع نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣.

(٢) تبعد الكرادة عن بغداد نحو خمسة كيلومترات (موجز تاريخ البلدان العراقيه ٤١). اما الباب الشرقي فهو الطرف الجنوبي للوسط التجاري في بغداد.

والى سكنى ابراهيم في الكراده وتعليمه في الرستمية يعود السبب الاول في انتكاس صحته . ان نجاح المكيدة قد حز في نفس ابراهيم الى حد بعيد . ثم انه لم يكن بين الكرادة وبين الرستمية مواصلات عامة ، فكانت سيارة دار المعلمين الريفية تأتي في الصباح الباكر من كل يوم لتجمع المعلمين من بيوتهم فيضطر ابراهيم الى مغادرة البيت باكراً وقبل ان تكون عملية الهضم بعد طعام الصباح قد تمت) لما عرفناه من حال معدته بعد اجراء العملية فيها عام ١٩٣٣). وكذلك كانت تلك السيارة تعيد المعلمين الى بيوتهم مساء . واذا اتفق ان كان ثمت اجتماع لبعض المعلمين او اذا اتفق ان تأخر احد المعلمين في واجبٍ ما فان ابراهيم ايضاً كان يتأخر في الرجوع الى بيته . ولقد سمعت ابراهيم مراراً يتأفف من ذلك كله .

ثم هجم الحر في بغداد مع نيسان . وفي صباح احد الايام ، من اوائل شهر نيسان ، ارسلت ام جعفر اليّ ان ابراهيم مريض ، وذهبت الى الكرادة وعلمت منها ان ابراهيم لما خرج في الصباح الى مجلسه الاول برز مقدار من امعائه .

واستدعينا على الفور الدكتور محمد روح غندور [١] ، وكان هو ايضاً في ذلك الحين في بغداد ، فقال : ان هذا الامر لاينطوي على خطر مباشر ، ولكن ابراهيم ـ على كل حال ـ يجب ان يغادر بغداد الى نابلس تجنباً للحر الهاجم . ان الحر الشديد يزيد امثال هذه الحالات سوءاً .

ولقد استنفدت انا والطبيب وام جعفر والحاج رحمي جميع وسائل الاقناع قبل ان رضي ابراهيم بالعودة الى نابلس . ثم عاد فتعلل بان اثاث البيت يجب ان يجمع ويحزم ، وهذا يقتضي وقتاً . ولكننا اقنعناه بأن يذهب هو اولاً مع الاسرة الى نابلس ثم يتبعه اثاث البيت مع الحاج رحمي كما فعل في مجيئه إلى بغداد . وهكذا كان .

اما ما حدث بعد ذلك لابراهيم فأرى ان آتي به مقصوصاً حرفاً حرفاً من رسالتين وردتاني منه الى بغداد في السابع ثم في السادس عشر من نيسان عام ١٩٤١ . ولا ريب في ان هاتين الرسالتين هما آخر ما كتب .

واحب من قارىء هاتين الرسالتين ان يلاحظ ان مرض ابراهيم وظرفه لم يفارقاه حتى

(١) الدكتور محمد روح الغندور ، من بيروت ، وهو طبيب الدائرة البلدية .

في آخر ايامه ، وان الاستزادة من المعرفة الادبية كانت دَيدنه حتى في أحلك ساعات حياته .

الرسالة الاولى : نابلس ـ فلسطين ، ٧ نيسان ١٩٤١

اخي عمر !

اسفت كثيراً لعدم امكاني وداعكم قبل سفرنا. وجاء الحاج رحمي فمنّاني بأنك كاتبٌ الي كتاباً سرعان ما اتلقاه ؛ لكنه لم يصل بعـــد ، وليس لي صبر على انتظاره فرأيت ان اكتب انا بادئاً .

كانت الطريق مريحة ، لم يمض اربع وعشرون ساعة حتى كنـا في الناصرة ، ومنها الى نابلس ساعة واحدة . هذا وام جعفر وولدانا جعفر وعريب على احسن حال وانا ازداد نشاطاً كلما دنوت من ارض الوطن وفي النفس شيء [1] لبغداد .

يومان في نابلس ثم الى القدس حيث اجريت الفحوص اللازمة . المسألة (بحمد الله) ليست ذات بال . الراحة والتقوية هما كل ما في الامر . وانا الآن اتقدم نحو العافية بأذن الله بخطوات محسوسة ، سيما وبركات السيدة الوالدة قد شملتنا ، وطعامها النفيس المختار قـد جرى في جسمي مريئاً هنيئاً .

لا نفتأ نذكركم خصوصاً عند سهراتنا على لعب الورق . سَقياً ورعياً لايام لنا سلفت، وحبذا تزاورنا ومسيرنا على الضفاف ضفاف دجلة . لا تستطيع ام جعفر ان تقدُرَ جمال بغداد كما اقدره انا او انت . فهو (عندنا) جمال مستمد من التاريخ والادب الذي عشنـا فيه عشرين سنة على الاقل . بغداد في نظرنا غير بـاب الشرجي والمعظم والكرادة وشارع غازي وغير ذلك من المسميات [2] ، ولكنها بغداد العباس بن الاحنف وابي نواس وصريـع الغواني واضرابهم من احبائنا شعراء بني العباس !! من اجل ذلك تستطيع ان ترى كيف

---

(١) من الحب ، راجع الاسطر التي ستـلي .

(٢) كرادة ، كامب ، باب الشيخ ، باب شرقي ، شارع غازي : اسماء كان سائقو البصات (سيارات النقل) يصيحون بها لتنبيه الراكبين الى الاماكن التي تمر بها سياراتهم .

كانت الحال مع ام جعفر عند بلوغها فلسطين ! اما انا فوالله لقد كنت آسفاً ولا أزال ، وبودي لو اسعدتني[1] صحتي فاقمت واقمت واقمت .

عمر ، بلغ سلامنا واشواقنا الى السيدة آمنة. ام جعفر ليس لها في بغداد ذكرى سواها. عريب وجعفر يقبلانكما . سلامي وسلام الخاتون[2] الى رفيق[3] وزوجته وعساها الآن بخير وعافية . كذلك للسيد زكي[4] وزوجته . اكتب الي اذا كنت لم تكتب بعد . مركزي نابلس وفيها مستقر ومتاع الى حين ! واي حين ؟ لا اعلم[5] ، فقد اختلف المفسرون في قوله تعالى : « هل اتى على الانسان (حين) من الدهر »[6] .

ام احمد على عهدها بولدها عمر[7] وهي تهديك التحية وتضيف اليك السيدة آمنة مبارِكة لك داعية بالرفاه والبنين .

الجميع : قدري ويوسف والحاج رحمي يهدونكم السلام ، واسلم لاخيك .

ابراهيم طوقان

الرسالة الثانية : نابلس ، الاربعاء في ١٦ نيسان ١٩٤١

اخي عمر

وصلني كتابك ليومين مضيا على ارسالي كتابي الاول إليك ولم أشأ ان أعُدَّ كتابي جواباً مسبقاً ، فبي من الشوق الى التحدث اليك ما لا يحتمل هذه المقاصرة . وجدت بين اوراقي بطاقة كتب عليها هذان البيتان :

« عجباً من دم يعود فقيراً كنت تغني ببذله الغانياتِ .
لاتظنَّ البخيل احسن حظاً رُبَّ فقر لم يتصل بهبات »

---

(١) أسعد : ساعد .

(٢) الخاتون (في العراق) : السيدة ، الزوجة . ويقال للزوج الافندي .

(٣) رفيق العشي ، وهو اليوم مندوب سورية الدائم في هيأة الامم .

(٤) السيد زكي النقاش . وهو اليوم الدكتور زكي النقاش مدير كلية المقاصد الاسلامية في بيروت .

(٥) هذا الحدس يدل على خوف من المستقبل .

(٦) آية من اول سورة الانسان (رقم ٧٦) .

(٧) ان صلتي الوثيقة بابراهيم جعلت والدة ابراهيم تهتم باموري – حينما كنت معلماً في مدرسة النجاح في نابلس ١٩٢٨ – ١٩٢٩ – كأنني أحد أولادها .

وتاريخهما المسجل تحتهما ٣٤/١٠/١٨ ! فلمن البيتان ؟ وما مناسبتهما ؟[١] أنا وأنت سواء الآن ، كلانا متزوج ، فلا تخش من ذكريات العزوبة شراً !! وليعلم كل متخرّص ان « الذكريات صدى السنين الحاكي »[٢] ... فيا لهف قلبينا او يا لهف قلبي وحدي اذا كان لايسرك التعاون معي في اللهف .

لديّ كتاب غريب عجيب لمؤلف قديم يلوح لي انه لم يَخْلق الله لها شبيها في سعة الاطلاع ورسوخ القدم في علم الباه . ولعل جميع من عرفتُ وما عرفت في هذا الباب كانوا عيالاً عليه في علمهم وادبهم ... عنوانه « جوامع اللـــذة » واذا شئت ، فهو قاموس الالفاظ الفنية ، ومختارات الشعر ، والنوادر والتفلسف . حصلت عليه منسوخاً على الآلة الكاتبة نسخاً فيه كثير من الغلط ، وحسبك ان تعلم بعد هذا كيف اقضي وقتي في نابلس حيث اقيم اليوم ما اقام صَبْرها وكنافتها[٣] .

الحالة الصحية او تقريري الطبي

اشعر بتحسن يبشر بان العودة الى الصحة الطبيعية توشك ان تكون ملك يدي . ان الراحة والدوام على المعالجة المنظمة هما ركنان اساسيان في الخلاص من هذه الزُمانة . وبهذه المناسبة ـ على هامش هذا التقرير ـ اقول انني اجتمعت في المصبنة الى رجل فاضل اعرفه ، وبعد السلام والكلام اخذ من جيبه (سامحه الله) اوراقاً مطوية فاختار منها اثنتين فتح اولاهما وانشدني لولده ـ حفظه الله له لا للادب والشعر ـ قصيدة . ثم ـ وبلا هدنة ـ فتح الثانية وتلا ضريبتها . يا عمر ، لا أراك الله مكروهاً ، لم يكد ينتهي حتى اخذت البرداء تعض في صلبي . قمت الى البيت معتذراً ، ثم انطويت على نفسي في الفراش ، وانا احسب الملاريا قد عاودتني . واخـــذت المحرار واذا الدرجة (٣٩ ١/٢) ! لا حول ولا . . .ودعوت الطبيب ففحص وجس وطبطب هنا وهناك ثم قرر انها انفلونزا ! سليمة . ثلاثة ايام في

(١) بيتان كنت تركتهما لابراهيم لما جاء الى بيروت للعلاج من فقر الدم. راجع ص ٢٥ .
(٢) شطر من قصيدة لشوقي في مدينة زحلة .
(٣) الصبر : الصبير ، التين الشوكي . والكنافة النابلسية حلوى تشتهر بها نابلس ، وكذلك الصبر (التين الشوكي) فيها كثير .

الفراش وسيل من العرق بعد اتخاذ التدابير . . . وصُرف العارض ـ والحمد لله ـ بسلام . لاتسلني عن القصيدتين ، ذاكرتي اضعف من ان تحمل منهما بيتاً ، وهل سمعت بذاكرة تحمل رصاصاً وحديدا ؟ الموضوع سل عنه اعالي جبال صنين . . . . والله حسبي وحسبك ونعم الوكيل . . . .

ابو جعفر
ابراهيم طوقان

وفاتـــه :

غير ان درجة الحرارة (التي اشار اليها ابراهيم في رسالته السابقة) لم تنخفض انخفاضاً محسوساً فيما بعد ، بل ظلت مرتفعة . وقد رافقها شيء من الانحطاط العام والضعف فنقل الى المستشفى الفرنسي في القدس ليكون تحت المراقبة السريرية لمعرفة سبب تلك الحرارة المرتفعة . وظن الاطباء ان الامر قد يكون مرحلة اولى من مراحل الحمى التيفوئيد فاخذوا شيئاً من دمه للفحص المجهري . ولكنه توفي ـ رحمه الله ـ قبل ظهور نتيجة ذلك الفحص .

غير ان الذي تناولته الملاحظة في ذلك الحين ان انحطاطاً عاماً كان يعمل في جسمه كله ولم يكن ثمة سبب من مرض واحد معين .

تشييعه [1] :

« وعند الساعة الواحدة من بعد ظهر السبت في الثالث من ايار نقل جثمانه إلى مدينة نابلس في سيارة تغمرها الاكاليل والزهور، ورافقها عدد كبير من رجالات المدينة في مقدمتهم اصحاب السعادة والفضيلة رئيس البلدية وبعض اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى للاشتراك في تشييع الجنازة في نابلس . . . وفي الساعة الثالثة والنصف (من يوم السبت نفسه) شيعت جنازته في نابلس . وقد صُلي على الجثمان في المسجد الكبير ثم سارت الجنازة على الترتيب

(١) راجع « فلسطين » ، جريدة يومية (يافـــا) ، الاحد ٤ ايار سنة ١٩٤١ ، ٧ ربيع الثاني ، ١٣٦٠ ، السنة ٢٥ ، العدد ٥٦ ـ ٤٦٩٦ ، الصفحة الاولى والرابعة .

التالي : الجثمان محمولاً على الأكف يتقدمه كشافة كلية النجاح الوطنية ثم طلاب المدارس الوطنية ثم حملة الاكاليل وعددها عشرون اكليلاً قدمتها هيئات وطنية وكلية النجاح الوطنية (نابلس) ، ثم اعضاء المجلس البلدي والوجهاء والعلماء ووفود البلاد . وقد سار الموكب في خشوع وإجلال حتى المقبرة الشرقية . وهنالك ابّنه عدد كبير من الخطباء تأبيناً مؤثراً ابكى الحضور . ثم وُوري الفقيد التراب مأسوفاً على شبابه » .

ونعت مصلحة الاذاعة الفلسطينية ابراهيم الى العـــالم العربي ، بعد ان كان قد نال ابراهيم من هذه المصلحة اكبر العنت والارهاق وبعد ان أقيل منها اقالة لمواقفه الوطنيـــة المشرفة . وها هي هذه المصلحة نفسهـا تنعي ابراهيم ذاكرة خدماته الجلى وان موته كان خسارة كبرى . ذلك هو نفاق الاستعمار يقتل المخلصين ثم يقف متأسفاً عـلى وفاتهم . وعلى كل فان نعي ابراهيم من الاذاعة الفلسطينية كان كما يلي [1] :

« يؤسف القسم العربي في هذه المحطة ان يعلن نبأ وفاة الاستاذ ابراهيم طوقان الليلة الماضية في المستشفى الفرنسي ، ولا يسعه إلا ان يذكر خدماته الطيبة التي قام بهـا في هذه المصلحة فأدّى بها خدمات جلى الى اللغة العربية وآدابها . على ان وفاة هذا الشاعر الممتـاز هي في الواقع خسارة كبرى على الادب واللغة . وان القسم العربي يكرر الاسف ويقـدم اصدق التعزية الى ذوي الفقيد ، رحمه الله رحمة واسعة ، ولا حول ولا قوة الا بالله » .

رثـــاؤه

ولما ووري ابراهيم في مضجعه الاخير ألقى صديقه جمال القاسم كلمة موجزة . ولقد اقيمت حفلة الاربعين في مدرسة النجاح فتكلم ابو سلمى (عبدالكريم الكرمي) وجـلال زريق وحسني فريز واسكندر الخوري البجـالي . وكذلك اقام له اصدقاؤه حفلة تأبين في القدس في نادي جمعية الشبان المسيحيين . وفي العام التالي اقيمت لذكراه حفلات متعددة في حيفا ويافا وغيرهما .

---

(١) فلسطين ، العدد المذكور آنفاً .

ورثاه الاستاذ فؤاد قاسم [1] بكلمة قال فيها [2] :

« وكان في هذه الفترات من حياته مخلصاً لقوميته اشد الاخلاص ، مؤمناً بعدالة قضية العرب ، ورسولاً من رسل وحدتهم ونهضتهم فلم يغفل عن تأدية رسالته استاذاً في بيروت وبغداد ، ولم يَهَبِ التبعات في محطة اذاعة القدس . فكان وقراً في آذان اعداء العرب وقذى في عيونهم حتى آل الامر به الى موئل شبابنا ممن تضيق بهم سبل الحرية فيرحلون الى بغداد ».

وكتب الاستاذ انيس المقدسي [3] في ابراهيم كلمة تحليلية طيبة استشهدتُ بشيء منها في ترجمة حياته وفي خصائصه . ولكنني اعيد هنا بعض ما جاء فيها [4] :

« طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعت فيه بآمالي الى الكذبِ ؛
حتى اذا لم يدع لي صدقه كذباً شرِقت بالدمع حتى كاد يشرق بي [5] ».

ذلك ما شعرت به بالامس اذ وقعت عيناي فجأة على خبر هز مني الاعصاب واوقد في القلب ناراً ذات التهاب .

صديقي العزيز ابراهيم طوقان قد مات ! يا لَفجيعة العربية . يا لَخسارة الوطنية . مات فطوى معه في التراب شباب أناره الايمان وصقله الذكاء ، وحلاه الوفاء للاخوان والاخلاص للاوطان .

نشأ الفقيد في بيت نابلسي كريم رضع منه الاخلاق الشريفة والمكارم العالية ... وفي

---

(١) فؤاد قاسم من الادباء والكتاب المبدعين المبتكرين وخصوصاً في المشاهد التمثيلية القصيرة اللاذعة. وهو اليوم مدير البرامج العربية في الاذاعة اللبنانية .

(٢) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ (الخميس ١٠ جمادى الاول ١٣٦٠ = ٥ حزيران ١٩٤١) ، ص ١ . في ترقيم هذا العدد خطأ مطبعي السنة ٤ مكان السنة ٣ .

(٣) الأستاذ انيس المقدسي استاذ اللغة العربية والادب العربي في الجامعة الاميركية (١٩٠٦-١٩٥٠). ولد في طرابلس ١٨٨٥ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة بكالوريوس علوم (١٩٠٦) وبرتبة استاذ في العلوم (١٩٠٨) . له بحوث ادبية كثيرة ، وله من الكتب : امراء الشعر العباسي في الادب العربي ، تطور الاساليب النثرية ، العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (جزءان) .

(٤) الامالي ، السنة الثالثة ، العدد ١٥ ، ص ٢-٤ .

(٥) البيتان مطلع مرثية قالها المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة .

سنة ١٩٣٠ عينته الجامعة (الاميركية في بيروت) مدرساً في الدائرة العربية فكان مثال الاجتهاد والامانة. وقد استطاع برفيع ادبه وحسن سجاياه ان يكتسب محبة الطلاب وثقة الرؤساء والزملاء. وكان يرجى ان يكون له شأن كبير في حقل التدريس الجامعي حتى توجهت الانظار الى ترشيحه للتخصص العالي في احدى جامعات اوروبة واعداده لمستقبل علمي زاهر ...

ابراهيم طوقان استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت

كان الفقيد شاعراً ملهماً متوثب العاطفة صادق الوطنية رقيق حواشي العبارة. اذا كتب سال الكلام من قلمه كما يسيل الزلال الصافي من منبعه الفياض، واذا خطب او حدث جذبك مسحوراً الى ما له من الاغراض، وله نفوذ الى المعاني لا تكلف فيه وعرض للعواطف دون جعجعة او تمويه ...

على ان نبوغه الادبي لم ينحصر في الشعر، بل كان الى ذلك بحاثة ذا نظر صائب في

الامور، عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا بالجامعة وبعد ان نقح ادبه خارجها بالتنقيب والمطالعة.

اما وطنيته فأبرز من ان ادلك عليها هنا، فهو من اصدق المدافعين عن الحقوق الوطنية في فلسطين وفي البلاد العربية ...»

وقال الاستاذ محيي الدين النصولي [1] في الفجيعة بابراهيم كلمة بعنوان «الشباب لن يَكِلّ» [2] امتلأت عاطفة وتقديراً وأملاً [3]:

في نابلس البلد العربي الفلسطيني شباب كالزهر تضوع اريجه في الدنيا العربية وطاب شذاه وعم خيره في وطنه الصغير ووطنه الكبير فآثاره العلمية والادبية والوطنية تدل عليه وتنم عنه وتشهد ان في نابلس يقظة تنبض بالحياة ونهضة تناولت كل شيء.

ما هبطت نابلس يوماً من الايام الا وأكبرت فيها نهضتها الفتية واعجبت بشبابها الميامين وراعني ان اتحدث الى هذا الشباب المثقف الراقي وان المس مآتيهم في كليتهم الناشئة وناديهم الصغير وحركة الكشفية عندهم، وان اجد فيهم الشباب العربي البررة الذين يتذوقون الحياة ويعرفون ان عليهم رسالة يجب ان يؤدوها وان يجاهدوا في سبيلها لا يبغون من وراء ذلك الا وجه ربهم وصالح وطنهم.

من هذا الشباب الذين كنت اسكن اليه في نابلس شاب اسمر اللون حلو الشمائل رقت نفسه ورق شعوره فاذا به هزيل الجسم شاحب اللون يذوب لطفاً وأدباً واذا به رغم مرضه طلق المحيا يرسل النكتة أثر النكتة ويبسم للحياة رغم عبوسها ويضحك في وجهها رغم تقطيبها له وازورارها عنه.

---

(١) الاستاذ محيي الدين النصولي صحافي قدير وصاحب جريدة «بيروت» (بيروت) ورئيس تحريرها. ولد في بيروت ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م). تخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة بكالوريوس علوم (١٩٢٠) ثم برتبة استاذ في العلوم (١٩٢١). اشتغل بتجارة الاجواخ (١٩٢١ – ١٩٣٦) وكان نائباً في مجلس النواب اللبناني. A U B Directory 1953, p. 132, cf. 136. وولي الوزارة في لبنان مرتين: مرة وزيراً للانباء ومرة وزيراً للمال وللانباء معاً.

(٢) احد مصاريع نشيد ابراهيم طوقان؛ «موطني».

(٣) الامالي، السنة الثالثة العدد الخامس عشر، ص ٤/.

اما هذا الشاب فهو الشاعر الملهم ابراهيم طوقان خريج الجامعة الاميركية وربيب بيت من ارفع البيوتات العربية وصاحب النشيد الخالد « وطني ! »[1] الذي أودع في كل كلمة من كلماته روحه العالية وما يلتهب بين جانحتيه من وطنية صادقة وعقيدة عربية رفيعة .

ابراهيم طوقان عام ١٩٢٤ حينما دخل الى الجامعة الاميركية في بيروت

ما اجتمعت اليه يوماً الا وسكرت بشعره الذي يسيل عذوبة ورقة وحباً وما سمعته ينشد « موطني ! » الا وأحسست انه يجب ان يستقل العرب ..... وشعرت ان هذا الشاب الهزيل تحول الى رماد جبار ينفث ناراً ويرسل حمما :

الشباب لن يكل همه ان يستقل او يبيد
نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيد
لا نريد لا نريد ذلنا المؤبدا وعيشنا المنكدا
لا نريد بل نعيد مجدنا التليد ، موطني !

(١) « وطني ، انت لي والخصم راغم » .

لقد اطفأ الردى تلك العينين السوداوين الهادئتين اللتين شع منهما نور اضاء الدنيا العربية ونفذ الى قلب الشباب العربي فايقظ هممآ كانت راكدة وبعث نفوساً كان ميتة وحرك امة كادت تبيد .

رحمة الله عليك يا صديقي الحبيب وبلل ثراك بَطلّ رضاه فانت شاعرنا الشاب وانت رائد من روادنا الابطال وانت العربي الصادق الذي وان لم يتح له القدر ان يرى وطنه « سالماً منعماً وغانماً مكرماً » الا ان الاجيال المقبلة ستراه فتذكرك يا ابراهيم وتحج في نابلس العزيزة الى مثواك الطيب حيث ترقد بامان .

وداعاً يا ابراهيم والى الملتقى . . . . .

ورثاه الاستاذ زكي المحاسني [1] في مجلة الاحد الدمشقية [2] بكلمة عاطفية رقيقة ختمها بالابيات التالية :

يا ويح قلبي ، حين جاء نَعيه ... ناديت : يا دمعي ، فرد عَصيُّهُ .
يا آل نابلسَ ، استبيحوا عبرتي ... فقتاكم المحبوب جف جَنيُّهُ .
حزني عليه اذا سمعت نشيده ... « يا موطني » ، إني إذن لشجيُّهُ .
رنّاته قلب الشباب صدىً لها ... تدعو لمجد سالفٍ عربيُّه .
يا فاتح الاجفان تنظر كوكباً ... قد لاح في اعلى السماء ، قصيُّه ،
هو نجمك الخفاق في افق العلى ، ... وبشعرك المعسول بان سنيه .

لهفي ، ابا سلمى [3] ، وانت خليله ... مذ كنت في يوم الصبا وصفيه [4] ،
ما حال طرفك [5] ؟ هل يكفكفه العزا ... أو هل يظل على البكاء نديّه ؟
طوقان ، يا براهيم ، يا حلو الهوى ... يا جَيّدَ الدهر الكثيرِ رديّه ،

---

(١) الدكتور زكي المحاسني ، وهو اليوم الملحق الثقافي في المفوضية السورية في القاهرة .

(٢) السنة الثالثة ، العدد ٩٤ (٢٢ ربيع الثاني ١٣٦٠ = ١٨ ايار ١٩٤١) . في التاريخ خطأ مطبعي ١٣٦١ مكان ١٣٦٠ .

(٣) ابو سلمى هو عبدالكريم الكرمي .

(٤) صداقة ابراهيم لابي سلمى لم تكن منذ ايام الصبا ، بل منذ ١٩٣٣ .

(٥) الطرف : جانب العين ، العين ، النظر ، وهي مستعملة هنا مجازاً مرسلا : يقصد الدمع .

يا بسمة الحسناء ، يا زهـــر الربى يا ضيعة الحـــظ القريب شهيه ،
ان مت فالاشعـــار منك خوالدٌ وعلى الزمان يضمها ابديـــه .

ونظم الشاعر الرقيق انـــور الجندي [1] قصيدة عنوانها : احبـــك ، وهبها الى روح ابراهيم ، هي [2] :

أحبُكِ ، انت الليل والشعر والهوى ووشوشة الاحلام في الفَنَنِ النّضْرِ .
أحبكِ ، والدنيا بعيني هجعـة ... معطرة الاشواق طيبـــة النشر .
أحبك سكرانَ الامانيّ ذاهـــلًا أكبّ عياءً ما يُفيق من السكر .
أحبك ، يا زهو الندامى وضحوةً هي الامـل الممراح لوّنه شعري .
أحبك ، والكاسات ملأى وليلنـــا شهـــيّ ونجوانا معتقـــة العطر .
أحبك ، انت الروض في همساتـــه نعـــيمٌ من الآباد يعبـــق بالسحر .
أحبك ، يا طيبَ الورودِ ، نديّة ، ويا حُمرة الذكرى ويا حلم الفجر .
أحبكِ ، يا كفّ الشعاع على الربى وعينك في عيني وثغرك في ثغري .
اضمك من وهج الهـــوى فكأنني اضم لذاذات الحيـــاة الى صدري .
وتَغرَقُ عينانا ، وللجفن رَفّةٌ ارق من الانداء في شفـــة الزهر .
وللقُبَلِ الحمـــراء همس منعّم [3] تَنَهَّدَ مخموراً على قُبَـــلٍ حمر .
نغيب فلا تدري أكنا سُلافةً من الخمر ام كنا لهيباً من الجمر .

(١) من سلمية في سورية .
(٢) قصيدة ارسلها الشاعر الى المرحوم الدكتور محمد خير النويري (ت ١٩٥٢) احد اصحاب مجلة الامالي للنشر في المجلة. وتاريخ الرسالة اول تشرين الاول ١٩٤١ .
(٣) كذا في الاصل بالعين المهملة .

خصائص شعر ابراهيم

— ١ —

في الوقت الذي اعد فيـــه انا هذه الدراسة ينصرف الاستاذ احمد طوقان الى اعداد « ديوان ابراهيم » للطبع . ولا أعلم اي الكتابين سيصدر اولاً ، وان كان المعقول ان يسبق الديوانُ هذه الدراسة في الصدور[١] . على ان ديوان ابراهيم لن يضم كل شعره ، فان ابراهيم نفسه كان قد اختار ما يريد نشره من شعره ونسخه بيده ، ثم عاجلته المنون فحالت بينه وبين تحقيق غايته . هنالك قصائد اسقط منها ابراهيم ابياتاً ، وهنالك قصائد اسقطها ابراهيم جملة . وفي هذه القصائد التي اسقطها جملة جميع ما قاله في الهجاء والمجون ، وهو غير قليل .

من اجل ذلك ينتظر القارىء ان تكون الخصائص المثبتة في هـذا الفصل خصائص شعر ابراهيم المنشور لا جميع خصائصه ، وان كنت انا اعطف احياناً بين المقطع والمقطع فاثبت خصائص تتعلق بشعره المحذوف من ديوانه .

✡

تعودت انا وابراهيم ـ يوم كنا تلميذين في الجامعة الاميركية ـ ان نتنزه بعد ظهر كل خميس[٢] عند الجانب الغربي من بيروت[٣] . ولقد كنا نتحدث في اثناء تلك النزه احاديث العلم والادب اللذين كنا نعرفهما يومذاك . وتفاوضنا مرة حديث الطـلاب الذين كانوا

(١) لم يصدر ديوان ابراهيم بعد .
(٢) نابلس ١٤/٥/٣٣ ، نابلس ١٤/٥/٣٤ .
(٣) على شاطىء البحر ، قرب المنارة .

ينظمون الشعر في الجامعة ، فقلت له : « إنك ، يا ابراهيم ، تأخذ المعاني من متناول يدك ». واقر ابراهيم هذا الرأي وعزاه الى نوع مطالعاته . والواقع ان ابراهيم لم يكن يغوص على المعاني بل كان يتقبل منها ما يرد على طبعه ولكنه كان يطبعه بالطابع الوجداني ثم يسبكه في لغة متينة جميلة عذبة .

وشعر ابراهيم متفاوت جداً في خصائصه اللغوية وخصائصه المعنوية . لقد نظم في عام ١٩٢٤ ـ بعد ان تخرج من الدائرة الاستعدادية مباشرة وقبل ان يدخل الدائرة العلمية في الجامعة الاميركية ـ قصيدته الرائعة : « بيضُ الحمائمِ حسبُهُنَّهْ » فأتى فيها بكل احسان وبلغ ذروة الشاعرية من حيث الاسلوبُ والموضوع والعبقرية . ثم كان له بعد ذلك قصائد لا يرضاها فلم يشأ ان تظهر في ديوانه . اما تعليل هذا التفاوت في شعر ابراهيم فيسير . ان ابراهيم شاعر وجداني ـ في صف عمر بن ابي ربيعة وبشار وابي نواس وابن الرومى وابي فراس ـ والشاعر الوجداني لا يجيد إلا اذا انفعلت نفسه انفعالاً شديداً . اما اذا « أراد » ان ينظم فانه يبطىء في نظمه كثيراً ويتعثر ثم لا يرضى بعد ذلك كثيراً مما تأتي به قريحته . وكذلك كان ابراهيم ، فمن الامثلة البارزة على شعره الوجداني الرائع قصائده « ملائكة الرحمة ـ الفدائي ـ الثلاثاء الحمراء[١] ـ رثاء فيصل ـ غادة اشبيلية ». اما شعره الذي لم يرض عنه ـ وان كان قد أجاد فيه ـ فمنه قصيدته في مهرجان المتنبي[٤] مثلاً ، ثم قصائد او اقسام من قصائد لم ير ان يضمها ديوانه . وشعره الضعيف ليس من عهده الاول بنظم الشعر فحسب ، ولكنه مفرق في جميع حياته الشعرية .

وهنالك تفاوت لغوي في شعر ابراهيم . كان ابراهيم طالباً في الجامعة الاميركية ، في الجيل السابق يوم اجتمع فيها نخبة من احسن الطلاب طبعاً في اللغة العربية ، حتى لقد ألقى الاستاذ انيس المقدسي ذات يوم كتابه على المنضدة ثم قال : ان الجامعة الاميركية لا تأمل ان يعود اليها « صف » يشبه هذه الصف في مقدرته العربية قبل خمسين عاماً . وها قد مضى الآن على هذه الكلمة ثلاثون عاماً كاملاً .

(٣و٤) راجع فنون شعره .

غير ان التفاوت في لغة ابراهيم كان تابعاً للتفاوت في خصائصه المعنوية ، فحيث اتسقت لغته مع وجدانه كان لغة قوية . اما اذا جانب طبعَه في النظم فان لغته كانت تَركّ احياناً . على انه من غير الانصاف ان نقول ان لغة ابراهيم المتينة الجميلة كانت نتاج الجامعة الاميركية في بيروت او نتاج مدرسة المطران في القدس . وانما هي في الحقيقة نتاج مطالعته الواسعة التي لم تنقطع[1] . كان ابراهيم دائم القراءة للقرآن الكريم منذ فتح عينيه على عمته كريمة التي كانت لا تعرف القراءة الا في مصحفها مهتدية بعلامة من الورقة تنقلها بين صفحاته . فاذا تخابث ابراهيم مرة واخرج هذه العلامة من موضعها اقامت عمته الدنيا وأقعدتها لأنها تضِلُّ طريقها حينئذ في المصحف ثم لاتحسن القراءة بعد ذلك . وكان ابراهيم يقرأ القرآن تَفقُّهاً وتَلذُّذاً وصِقالاً للغته . قال[2] : « الجميل في رمضانَ عندي خاصةً انني اقرأ القرآن فيه ، واقرأه كله . هذا ما اصنعه في كل سنة وأتلذذ به فاصقُل به لغتي ، ونِعْمَ صِقالُ اللغة القرآنُ . وتستوقفني بعض التراكيب فأرجع الى كتب البلاغة فاتفقّه بكشف أسرارها ، وتُشْكِلُ عليّ بعض المعاني فارجع الي سيد المفسرين استاذ الدنيا جار الله محمود الزمخشري فاصدِرُ عنه رَيّانَ شبعان . وأتنبه الى طريفة تاريخية فارجع الى ابي جعفر محمد بن جرير الطبري فأنسى نفسي بين احاديثه ورواياته . هذا هو فضل رمضان علي ، وهكذا أحْسنُ استغلال شهر كامل في مدينة نابلس . . . »

وكذلك كانت مطالعته واسعة في كتب الحديث ولا سيما صحيحُ البخاري . كتب الي يوماً في شأن مقال في العباس الاحنف كتبه المستشرق الالماني يوسف هل (١٨٧٦ - ١٩٥٠) . وليوسف هل بنت واحدة اسمها عائشة ، فحملته هـــذه الاشارة الغريبة الى الاستطراد الى العوائش فذكر عائشة بنت طلحة ثم قال[3] : « واما عائشة ام المؤمنين وزوجة

---

(١) يقول الاستاذ انيس المقدسي (الامالي ، السنة ٣ ، العدد ١٥ ، ص ٤) : « عرفته بذلك منذ كان طالباً في الصفوف العليا في الجامعة الاميركيه وبعد ان نقح ادبه خارجها بالتنقيب والمطالعة » . هذه الكلمة من استاذ ابراهيم في الادب العربي لا تدل فقط على حقيقة بل تدل ايضاً على الانصاف والخلق السمح اللذين يتمتع بهما استاذنا الاستاذ انيس المقدسي .

(٢) نابلس ، ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ (١٤ رمضان المبارك ١٣٥٤) .

(٣) نابلس ، ١٦ تشرين اول ١٩٣٥ .

سيد المرسلين وابنة اول الخلفاء الراشدين فتلك يرحم الله روحها ما كان اشدّ مرحَها واكثر تَيْهها على رسول الله ودلا لها . وحديث الافك ـ كما روي على لسانها في البخاري ـ قطعة خالدة من الادب الحي الرّفاف . . . »

وكان أحبّ امهات الادب اليه كتابُ الاغاني فاكثر من مطالعته[1] وبلغ من اعجابه ان قال[2] : « اذا ضاع كتاب الاغاني ـ لا سمح الله ـ فقدنا ثلاثة ارباع الادب العربي». وكانت مطالعاته عاقلة يقرأ فيحفظ ويتثقف . لما صدر كتاب « تاريخ حياة معدة » لتوفيق الحكيم وقرأه ابراهيم ـ فُضولاً على الاقل لأن اسمه يجتذب من اصيب بمعدته ـ قال[3] :

« . . . تاريخ حياة معدة لتوفيق الحكيم أغار فيه على ما انتثر من نوادر اشعب وطرائفه فساقها كما يسوق المغيرون امامهم قطيع الماشية وسماها كتاباً لا فضل له فيه إلا انه عنوان خيِّل اليه انه جذاب . اما وقد (أغار) على كتب الادب فانه لم يحسن الغارة فقد أعمى الله قلبه عن ذخائر اشعب المودعة في بنك (الاغاني) عند مولانا ابي الفرج الاصفهاني. وعندما استراح الى مرابعه واخذ يصنف المنهوبات وجدته يخلطها بما لابي دُلامة ويحمل اشعب من احضان بني امية وسُكينة بنت الحسين ويلقي به بين يدي المأمون . . . فتأمل واعجب ».

وكذلك كانت له مطالعات واسعة في كتب التواريخ كما ترى في المقطع التالي من احدى رسائله[4] ، قال :

« بعث اليّ الاستاذ المقدسي[5] بديوان ابن الساعاتي هدية وإثر رسالة بعثت بها اليه اشكره على التنويه باسمي في سلسلة المقالات التي نشرها تباعاً في المقتطف حول حركة الادب الحديث . والديوان كما قلتَ فيه[6] ، جهد يذكر رأيت ان اخصه باذاعة[7] انوه فيها

---

(١) القدس ، ؟ آب ١٩٣٢ .
(٢) نابلس ، ١٣ آذار ١٩٣٤ .
(٣) القدس ، ٣٨/١٢/١٠ .
(٤) القدس ، ٣٩/٢/٣ .
(٥) الاستاذ انيس المقدسي .
(٦) كنت انا قد نقدته في مجلة الامالي (السنة الاولى ، العدد ٢٠ ، ص ٦٣٧ – ٦٣٨) .
(٧) يريد ان يذيع عنه كلمة من محطة الاذاعة الفلسطينية .

بالاستاذ وعمله . انما احب ان اقول لك شيئاً ـ ليس للنشر [1] ـ وهو ان المصادر التي رجع اليها الاستاذ قد اهمل من بينها مصدرين هامين، احدهما كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (دولتي نورالدين وصلاح الدين) وهو لشهاب الدين ابي شامة الدمشقي . وقد ورد فيه ذكر ابن الساعاتي مراراً واثبت له فيه قصائد ومقطعات في صلاح الدين لم يُشر اليها في الجزء الذي اصدره الاستاذ واخشى ألا يرد ذكرها في الجزء الثاني ، ذلك لأن في (الجزء) الاول الذي صدر قصائد مبتورة رأيت تمامها في (كتاب) الروضتين او لأن هـذا القسم المبتور ليس مما تستسيغه نفس [الذين هم حول] الاستاذ لما يحتويـه من ذم للحركة الصليبية ، لقول الشاعر :

وبكت جفون القدس ثانية دماً لترنُّم النـــاقوس في افنائـــه

وما هو على هذا الطراز ، وانت ادرى بالحال [2] .

« هذا ، وهنالك التاريخ الكامل لابن الاثير . ولا إخـال ان الشاعر قد خلا ذكره منه ولو كان التاريخ بين يدي لصدق ظني [3]. وسترى عند المراجعة في الاذاعة انني سأمس هذه النقاط ما رفيقاً ـ رفقاً بالقوارير [4] » .

ولم يكن ابراهيم حافظـاً للادب فقط ، بل كان ناقداً بصيراً ايضاً [5]. لمـا نظم شوقي قصيدته في زحلة :

---

(١) كان لهذا التحفظ قيمة قبل وفاة ابراهيم .

(٢) يظهر ان ابراهيم طوقان قد قرّظ الجزء الاول من ديوان ابن الساعاتي ومس النقاط التي اشار اليها مساً رفيقاً . لذلك رأيت ان الاستاذ المقدسي قد عاد الى كتاب الروضتين واستدرك في الجزء الثاني من الديوان كل ما لم يذكره في الجزء الاول . فذكر كتاب الروضتين بين المصادر المستدركة (الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي، ص ٤١٢)، ثم جمع من الابيات التي وردت في كتاب الروضتين ، ما لا يوجد في مخطوطات الديوان (راجع الجزء الثاني من ديوان ابن الساعاتي ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ مع الحواشي) . واستاذنا الاستاذ المقدسي منصف جداً في دراساته الادبية .

(٣) راجعت انا كتاب ابن الاثير (طبع ليدن) فلم اعثر على اسم « ابن الساعاتي » في فهرسه .

(٤) رفقاً بالقوارير حديث قاله الرسول للحادي الذي كان يسوق القافلة التي فيها نساؤه . ويقصد ابراهيم أنه سيرفق حينما يصل في نقد ديوان ابن الساعاتي الى قضية إغفال هذين المصدرين او الغفلة عنهما .

(٥) راجع مثلاً بيروت ، ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ؛ نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ ؛ رام الله ، ؟ تموز ١٩٣١ : نابلس ، ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

شيّعت احلامي بطَرْفٍ باكِ ولمت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردهِ أمشي مكانها على الاشواك

ومنها :

وتأوّدت أعطاف بانكِ في يدي واحمرّ من خفريها خدّاكِ

كتب إلي رسالة [1] يقول فيها في تعليق على البيت الثالث خاصة : وهنا اريد انا قول كلمة لعلني استطيع ان اعبر بها عما يجول في فكري . إن تأوّد اعطاف البان شيء ذكر منذ هلهل الشعر وبقي يُنسج على منواله حتى تكاد لا تمر بديوان الا وترى فيه عطف البان . ولكن جمال الشيء يبدو ويخفى بزيادة عليه او اخذ منه . وقد يحسن الشيء بزيادة شيء عليه أو اخذ شيء منه ، وقل مثل ذلك في الحسن اذا قبح . وقد تبتذل الفكرة ثم يقال عنها طريفة مبتكرة بمثل ذلك . هذا ما فعله شوقي حين زاد كلمتي (في يدي) على فكرة عطف البان المتأود المبتذلة . الحق ان شوقي توفق في هذه القصيدة . ولا بأس بها ابداً » .

وكان ابراهيم قد قال في هذه الرسالة نفسها وقبل بضعة اسطر : « قصيدة شوقي فيها غزل رقيق جميل سيما نظرته الي ايام الصبا ، وهنا الابداع . غير ان هنالك بيتاً وددت لو لم يقع في القصيدة وهو قوله :

خرزات مسك او فصوص الكهربا

... وما ادري ، يا اخي ، كيف يغيب عن ذوق شوقي بالكلمات وعلمه بمواضعها ان يتنكب **الخرز** والفصوص . انا لا اريد ان اقول ان هذه الكلمة قبيحة . كلا ، ولكن اصبح لها عند الناس **شخصية** بارزة ؟ والذي اعجبني في القصيدة هذه التعبيرات : لَمُّ الشباكِ من طريق الملاح والرجوع **ادراج الشباب** ، وقوله : فتأودت اعطاف بانك **في يدي** » .

ويجب ان نعلم ان هذه الملاحظات ابداها ابراهيم وهو تلميذ ، وقبل ان يتخرج في الجامعة الاميركية بعامين اثنين .

هذا التذوق الادبي مكنه من ان يعمل في دراسة المخطوطات وتحقيقها فقد ساعد

---

(١) نابلس ٢٨ آب ١٩٢٧ .

المستشرق الدكتور نيكل في تحقيق كتاب الزهرة ونشره [1] كما حقق وحده ديوان العباس ابن الاحنف [2] ، ولكنه لم ينشره، فعسى ان يتاح لاهله واصدقائه نشره قريباً [3] .

وكذلك كان ابراهيم مطلعاً اطلاعاً وافياً على التوراة. حينما كان ابراهيم يعد قصيدته للرد على رؤوبين الشاعر اليهودي الذي عير العرب باصلهم من هاجر وهي جارية لسارة ام اليهـــود :

هاجر امنـا وَلودٌ رؤوم لا حسود ولا عجوز عقـيم

كتب الي يقول [4] : « واراني ساجعل كل بيت من هـــذه القصيدة ماخـوذاً عن مصدر تاريخي ، بل من التوراة نفسها فانها تفيض بخبثهم » . .

ولابراهيم مشاركة طيبة في التاريخ [5] فلقد درس التاريخ في الجامعـة الاميركية في بيروت ، ولكنه لم يكن كثير التعمق فيه [6] لأنه لم يدرسه للاختصاص .

وامتاز ابراهيم ـ كسائر اخوته وكابناء اعمامه ـ بذكاء فطري . ولكنه اتجه بذكائه هذا الى النواحي الادبية عازفاً عن ميدان العلوم الطبيعية والرياضية حتى اصبح مع الايام يكره هذه العلوم ، مع ان اخاه احمد [7] وابن عمه قدري [8] خاصة من الذين يشار اليهم في هذا الباب . وهكذا غلبت على ابراهيم الاحاديث الادبية في جلساته ورسائله ومقالاته . ولقد كان اعظم اعجابه بالشعراء العباسيين وبابي نواس خاصة ، حتى طبع شعره على منواله .

---

(١) راجع ص ٤١ .

(٢) القدس ، ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ القدس ، ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ ؛ نابلس ، ١٠ آذار ١٩٣٣ ، راجع نابلس ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ .

(٣) يرى المستشرق نيكل ان فدوى طوقان خليقة بان تنشر هذا الديوان احياء لذكرى اخيها .

(٤) نابلس ، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٥) راجع رام الله ، ٣ ايلول ١٩٣١ .

(٦) نابلس ، ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .

(٧) تخرج في الجامعة الاميركية برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٥ A U B Directory 1953, p 163 وكان تخصصه في الرياضيات ، ثم تابع دراسة الرياضيات في جامعة كمبردج بانكلترة .

(٨) قدري حافظ طوقان عضو الجمعية الرياضية في لندن ، وعضو الجمعيـة الرياضية الاميركية واستاذ للرياضيات وله فيها تآليف كثيرة .

— ٢ —

ان الشاعر الوجداني لا يستطيع ان يقول الشعر في كل مناسبة ، بل هو محتاج الى جو خاص يحيط به حتى تنشط قريحته ، كما ان الانفعال النفسي والتأثر بالمشاهد والاحوال يساعدان على الرغبة في قول الشاعر . وكذلك كان لابراهيم طوقان مواسم يقول فيها الشعر ويجيد قوله . وقد اتفق ان ابراهيم لم ينظم شيئاً يرضى عنه في بعض النصف الثاني من سنة ١٩٢٩ [١] وكذلك كان في النصف الاول من عام ١٩٣١ ، قال [٢] : « لا ادري ياعمر ، شاعريتي قاحلة ولا استطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . وكذلك كان في اواخر ١٩٣٣ كسلان عن الشعر [٣] . اما في مطلع ١٩٣٥ فكانت قريحته فياضة . يقول [٤] : « ليس لديّ من جديد سوى انطلاق القريحة في هذه الايام على السياسات ولا اعلم السر في ذلك . خلال عشرة ايام نظمت خمس قطع (سبعة ابيات الواحدة) والحبل على الجرار كما يقولون . وهذه القطع تظهر اسبوعياً في جريدة الدفاع عندنا وفي صوت الاحرار عندكم . وقد ثبت لي انها تثير اهتماماً في الاوساط الحزبية لأنها قائمة على مناوئة المسمّوْن بيننا زعماء ورجال الحركة » . وهكذا نرى كيف تثير الاحداث عبقرية الشاعر . ان الكوارث تلهب الشاعرية وتدفع الشاعر الوجداني الى نظم الشعر ، واكثر شعر ابراهيم من هذا الباب .

اما المرض فانه يصرف عادة عن قول الشعر لأنه يصرف عن كل شيء . قال ابراهيم [٥] : « لعلك تعجب من قعودي عن النظم في هذه الفرص الطويلة . فعذري يا عمر بيّن وهذا هو : اظن انك لا تجهل ان باحدى اذني صمم . ولقد ازعجني ألمها كثيراً في الايام الاواخر . . . »

---

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .
(٢) رام الله ؟ تموز ١٩٣١ .
(٣) نابلس ٩ نوفمبر ١٩٣٣ .
(٤) نابلس ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٥ .
(٥) نابلس ، ٢٣ تموز ١٩٢٤ .

واحياناً يمتنع هو عن النظم لأن الشعر الوجداني يحتاج الى اجهاد . فاذا اتفق ان كان مريضاً فان اجهاد الفكر للمجيء بالشعر الجيد يزعجه جداً . قال[1] : « حركتني بقصيدتك هذه الى القول ، ولكن انازع نفسي هذه الايام فلا اود ان اقول شيئاً لانني الى الراحة احوج . والمعدة الى الدم افقر من الدماغ اليه » .

ومع ذلك كله فان ابراهيم كان يرتجل الشعر احياناً ، ولكن ارتجاله كان قاصراً على الاشعار الخفيفة التي تكثر فيها المداعبة او تكون في الغزل الصريح او الهجاء المملوء بالتهكم . اما القصائد الكبرى عنده فكان ينظمها في اوقات متطاولة ومتباعدة احياناً .

والشعر الجيد عند ابراهيم يجب ان يقترب بخصائصه اللفظية من النثر ، او هو ـ كما قال ابراهيم[2] ـ عبارات نثرية اتفق ان تقع موزونة . « اريد ان اقول او ان اضع تعريفاً للشعر السهل الممتنع فلم اجد احسن من تعريفه بعبارات نثرية موزونة لا أثر لكد الخاطر عليها ، بل اتفق لها هي ولم يتفق لك انت ان تكون موزونة » .

اما من الناحية الفكرية فابراهيم يحب « الفكرة البسيطة » تخرجها عاطفة معقدة[3] .

ولم يكن ابراهيم يحب الصناعة : لا يحب ان يقرأ الادب المثقل بالصناعة ولا ان ينظم شعراً فيه مثل ذلك . يقول[4] : « . . . مرت علي كل هذه المدة من الحياة الادبية وانا استثقل دم الكتاب العرب اصحاب الرسائل والمقامات وابطال السجع والبديع . ولكن في المدة الاخيرة منذ شهر او شهرين اخذت اضغط على نفسي بالمطالعة في كتاب الدرة اليتيمة[5] وارهقها في قراءة نماذج النثر الموجودة فيه فلم يتغير رأيي في النثر العربي القديم الا بمقدار . . . وهكذا فقد (استحليت) لبديع الزمان الهمذاني هذه القطعه الآتية وقد بعث بها الى من كتب اليه : لِمَ لا تديم الجود بالذهب كما تديمه بالادب ؟ قال : لا قرابة

---

(١) نابلس ، ١٢ آب ١٩٢٩ .
(٢) نابلس ١٩٣٥ .
(٣) نابلس ١٩٣٥ .
(٤) نابلس ١٣ آذار ١٩٣٤ .
(٥) لعله يقصد : يتيمة الدهر للثعالبي .

بين الذهب والادب ، فلِمَ جمعت بينهما ؟ والادب لا يمكن ثرده في قصعة ولا صرفه ثمن سلعة . . . »

واذا اراد ابراهيم ان ينظم في مناسبة ، او اذا اضطر الي النظم فيها ، فانه عادة ينصرف عن تلك المناسبة الى موضوع عام من الادب او الوطنية او الاخلاق والتاريخ . لما رثى ابراهيم موسى كاظم باشا الحسيني قال له احدهم : « اراك اتكأت على الرجل ثم انصرفت عنه الى بحث آخر » . وقال له نفر آخرون مثل هذا ايضاً . فعقّب ابراهيم على هذه الاقوال بقوله : لا انكرك يا عمر انني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها انني لم أعْدُ الغرض الذي اردته في تأبين الباشا [1] » . وابراهيم يحب البحث لا الدعاية [2] .

وكان ابراهيم حسن الالقاء جداً : كان فصيح الكلام صحيح اللفظ جميل الأداء ، يتمهل في انشاده ، جَهْوري الصوت فخم المخارج مما يضفي على قصائده حينما ينشدها رونقاً وروعة . ولقد كان هو مدركاً لهذه الخصائص فيه ومدركاً موقعها من الناس .

في عام ١٩٣٣ اقامت مدينة نابلس حفلة تكريم للاستاذ قدري حافظ طوقان لمناسبة منحه عضوية الجمعية الرياضية في لندن ، فاراد ابراهيم ان يكون لي ابيات تلقى في هذه الحفلة فارسلت اليه ابياتاً منها [3] :

أن قدري أهلٌ لأن يخدم العلـ ـم ويُجزى عن سعيه بالشكور
نال في العلم رتبة لم ينلهـا غير اهـل لها وغير جـدير
رتبة لا تُنال بالجـاه والاهـ ـل ولا تشترى بمال كثير . . .

وكانت الابيات موافقة جداً للجو الذي اقيمت فيه الحفلة او على الحقيقة للجو الذي كان السبب في اقامتها. فكتب الي ابراهيم بعد الحفلة يقول [4] : « . . . فجاءت قصيدتك قنبلة على

---

(١) نابلس ١٤ مايس ١٩٣٤ .
(٢) القدس ١٩٣٨ (في الاصل بلا تاريخ ولا اسم مكان) .
(٣) الجامعة الاسلامية ، يافا ، السنة الاولى ، العدد ٢١٣ .
(٤) نابلس ٢٩ آذار ١٩٣٣ .

الرؤوس كما اثلجت صدور قوم آخرين . واذا علمت ان هذا العاجز كان ملقيَها ادركت ما اضيف الى تأثيرها » .

— ٣ —

بين يدي صفحة من مجلة فيها مقال في خصائص ابراهيم الفنية عنوانه : « هذا شاعر » للاستاذ عبدالحميد ياسين ، احد اصدقاء ابراهيم الحميمين المخلصين ، آثرت ان انقله هنا لما فيه من اصابة وتوفيق . قال الاستاذ ياسين[1] :

« ... ولعلنا نحسن صنعاً حين نقيس شاعرية ابراهيم بالمقياس الذي وضعه ، وندلل عليها بأمثلة من شعره . فقد جرت له مناظرة ادبية ، عرّف الشعر فيها بأنه قول ذو ميزات خمس : أولاها حسن تخير الالفاظ ، وثانيتها موسيقى الوزن والقافية ، والثالثة خطاب الحس مباشرة وفي اقتضاب ، والرابعة اتساع أفق الخيال ، والاخيرة توهج العاطفة . وقال : « ان الشاعر ، حين ينظم البيت ويعز عليه وجود الكلمة المختارة ، ليشعر انها تراوغه وتماطله وتدانيه وتباعده ، حتى اذا هبطت في مكانها الذي اختاره لها ، تنفس الصعداء ، ومشى في قصيدته مضاعف النشاط . الشعر اذن هو الجمال مقتنصاً بالالفاظ » . رحم الله ابراهيم ! فقد كان شاعراً حتى في نثره ! .

كان شاعرنا يحسن تخير الالفاظ ، اذ كان يضم الى ثروته اللغوية ذوقاً ادبياً مصقولاً . وثروته اللغوية جاءته من ادمان قراءة عيون الادب ، كما تعاونت هذه القراءة مع الهبات

---

(١) ليس على هذه الصفحة اسم للمجلة التي قطعت منها ولا تاريخ . ويغلب على ظني انها مقطوعة من مجلة « المنتدى » (القدس) . اما تاريخها فيجب ان يعود الى عام ١٩٤٥ لأن على ظهرها نعي لفرانكلين روزفلت ، رئيس الولايات المتحدة ، ولأن المقال نفسه يبدأ هكذا : « ابراهيم عبد الفتاح طوقان شاعر مجيد فقدناه قبل اربع سنوات ... » . اما رقم الصفحة فهو على كل حال ١٢ .

وكذلك على ظهر هذه الصفحة ، مع نعي روزفلت (ص ١١) ، مقال عام في ابراهيم كتبه « صديق » .

الطبيعية على صقل ذوقه . ولذلك كانت الالفاظ تنقاد له في سلاسة ورقة ، كما يتبين في الابيات التالية ، وهي من قصيدته (معين الجمال) :

ضجعتي في الرياض بين الرياحين قريباً من ماء عين معين
فتناولت اقحواناً نديا ونداه كاللؤلؤ المكنون
ونزعت الاوراق عنها تباعا أتحرّى شكى بها ويقيني
فاذا وافقت مناي تفاءلت والا كذبت فيها ظنوني
ذاك لهو فيه العزاء لنفسي فاضحكي من تعللي وجنوني

والموسيقى في شعر ابراهيم وفيرة مطربة ، وما كان أوفرها حين ينشد شعراً يعجبه ، من نظمه او من نظم غيره . وفي الابيات التالية شاهد على ذلك ، وهي من قصيدته (واحنيني !) :

ذاكرٌ أنت عهدَنا يا غديرُ
يوم كنا والعيش غض نضير
وعلى ضفتيك كنا نسير ،
فرويتَ الحديث عنا شجونا وأخذنا عليك ألا تخونا ؟
فأعد لي ذاك الحديث ، فاني أذهلتني النوى عن التذكار .

أما في الخطاب المباشر المقتضب للحس ، فقد قال شاعرنا : « الشعر نكتة . قد يحسن الشاعر قولها وقد لا يحسن ، وقد (يلقطها) القارىء او السامع ، وقد تفوتهما . » والمقصود بالنكتة هنا وثبة الفكر ، او انطلاقه الخيال ، الى القول البارع او الجامع ، لا مجرد الدعابة او محض التظرف والتندر . ومن الامثلة على ذلك قوله في (رثاء فيصل) واصفاً ذاك الفقيد العظيم :

راقد ينعم في ضجعته خلّف الدنيا به في شغل

ثم مشيراً الى نجله المرحوم (غازي)وما عمله في غيبته :

غضبة من رجل في أمة جعلته أمة في رجل

ومنها (في هذا الباب) قوله في (الشهيد):

لا تسل أين جسمه واسمه في فم الزمن

أو قوله مخاطباً مصر:

سُقوا (القناة) عساها عنك تبعدني أنّى ومن لغتي جسر سيدنيني

.... لمسنا، في الابيات التي اوردناها من قصيدة شاعرنا: (معين الجمال) قدرته على اجادة التصوير. والتصوير قد يكون نقلاً عن واقع، وقد يكون من ابداع الخيال. فمن ابداع الخيال قوله في وصف معركة (حِطّين):

تتطاير الارواح فيه من السنان الى السنان

ووصفه لعميدة المسرح فاطمة رشدي بقوله:

بين ابتسامتها وزفرة صدرها جند من الأفراح والأحزان

وأخيراً نأتي الى عنصر العاطفة، وهي عند شاعرنا جد مشبوبة. رأينا مثالاً منها في الأبيات المقتبسة من قصيدته (واحنيني!)، ونورد مثالاً آخر من قصيدته (عند شباكي):

وأخشى أن يرف الجفن يحرمُني محياك
مررت وقيل مرّ الناس هل أبصرت إلاك

وقد كان قوي العاطفة الدينية، فقال في دور نقاهته من مرض:

اليك توجهت يا خالقي بشكرٍ على نعمة العافية
تباركتَ أنت معيد الحياة متى شئت في الرمم البالية!

وكان يولي العاطفة النصيب الأوفر من العناية في الشعر. فقال عن قصيدة نظمها سنة ١٩٢٥ بعنوان (نحن)، انها «قصيدة باردة العاطفة، مفككة الأوصال، رخوة المعنى والمبنى. وهل أدل من هذا العنوان عليها؟ شعرت ان زمناً طويلاً مر بي دون ما نظم. لماذا لا أنظم؟ يجب ان انظم! هذه هي النتيجة. حذلقة!» إذن كان ابراهيم أديباً ناقداً، الى جانب كونه شاعراً مجيداً. وقد كان نزيهاً جريئاً في النقد، حتى على نفسه، كما كان مبدعاً في الشعر، رحمه الله!»

اغاريد الهوى

لانستطيع ان نفهم غزل ابراهيم عامة إلا اذا عرفنا طَرفاً من صداقته وحبه لطالبة كانت تدرس في الجامعة الاميركية اسمها ماري . . . . فلنرجع اذن الى الايام التي قررت فيها الجامعة الاميركية ان تفتح ابوابهـــا للفتيات يتلقين العلوم والفنون مع الشبان جنباً الى جنب .

وهذا « التعليم المختلط » الذي نقص خبره هنا لا يتناول انشاء مدرسة التمريض عام ١٩٠٥ [١] التي بدأت بتخريج طالباتها عام ١٩٠٨ [٢] ، ولا التجارب الاولى بقبول الفتاة اليهودية ساره ليفي في دائرة الصيدلة حيث تخرجت عام ١٩٢٥ [٣] . وكذلك لا نعد الآنسة هنريت حكيم ، او هنريت حكيميان على الاصح ، وكانت قد دخلت الجامعة عام ١٩٢٣ ثم تخرجت برتبة بكالوريوس علوم عـــام ١٩٢٧ [٤] ، ولا سنية حبّوب [٥] الـــتي بدأت دراسة الطب في الجامعة الاميركية في بيروت ثم ذهبت الى الولايات المتحدة لمتابعة دراسة الطب هناك .

على ان التعليم المختلط بالمعنى المقصود هنا لم يبدأ قبل العام المدرسي ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ حينما سجلت سبع طالبات اسماءهن في الدائرة العلمية منهن مسلمـة واحدة هي السيدة

---

(1) Penros 252.

(2) A U B Directory 1953, p. 67.

(3) Penrose 253, A U B Directory 1953, p. 160.

(4) A U B Directory 1953, P. 175.

(٥) الدكتورة سنية حبوب ، القابلة والطبيبة القديرة المشهورة .

احسان احمد[1] القوصي المصرية . وكانت تتلقى العلم هي وزوجها معاً . وفي العام المدرسي التالي دخل الى الدائرة العلمية ثلاث عشرة فتاة اثنتان منهن مسلمتان[2] .

هذا الاختلاط اطلق هِزّةً شديدة بين الفتيان ، ولكنها هزة كانت منتظرة على كل حال ، ولم يكن ثمت بد للجامعة من ان تدفع ثمن هذه التجربة مشاكل متعددة . وأنا لا استطيع ان أزعم ان هذه المشاكل قد زالت الآن . ولكن نظر الناس الي « المشكلة » قد تبدل . ان وقوف الطالب والطالبة اليوم في بعض أنحاء الجامعة الاميركية يدرسان او يتسامران اصبح امراً مألوفاً ، ولكن الطالب في ايامنا كان يعرض نفسه للتأنيب او للطرد ايضاً لو حاول ان يستوقف طالبة ليسألها عن عدد الصفحات التي فرض الاستاذ قراءتها .

على ان هذا التزمت من قِبَل الجامعة الاميركية كان ظاهرياً ، فالجامعة يوم أقرت التعليم المختلط كانت عالمة بالنتيجة التي سيصل اليها الطلاب والطالبات بعد حين ـ وقد كانت تقصد ان يصلوا إليها ـ ولكنها كانت تقصد ان يتدرج إليها الجنسان تدرجاً حتى يتم الاختلاط على مقاعد الدرس وفي مياه البحر وفي حلقات الرقص على ما اصبحنا نرى منذ أمد .

ولنعد الآن الى حديث ابراهيم طوقان . ان ابراهيم قد نظم معظم قصائده الغزلة وأروعها في ماري هذه ، وهي فتاة فلسطينية من الناصرة كانت طالبة في السنة الثانية من الدائرة العلمية في العام المدرسي ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ .

ولفتت هذه الفتاة الفارعة الانيقة انظار عدد من الطلاب فأضاعوا قسماً كبيراً من وقتهم في تتبع حركاتها وتتبعها هي . من هؤلاء الطلاب ابراهيم طوقان . وجعل ابراهيم يقول فيها الشعر الرائق والغزل الصادق منذ بدء ذلك العام المدرسي . وكان ابراهيم يسكن في الجامعة الاميركية ، وكان غرفته في الجهة الجنوبية من بناية الدائرة العلمية المطلة على المدخل الرئيسي . وكانت الفتيات يسكنّ في خارج الجامعة . فكان ابراهيم يقف كل

(1) Penrose 253.
(2) Penrose 253.

صباح في نافذته يترقب مجيء فتاته . وفي ذلك يقول قصيدته : « وقوفي عند شباكي » ، عام ١٩٢٦ . غير انه حينما رتب ديوانه قبل موته جعل المطلع « بكوري عند شباكي » [١] :

بكوري عند شبّاكي لأنشقَ طيب ريّاكِ .
ولا سلوى سوى نجوى أسرُّ بها لمغناك .
أسرّح نحوه طرْفاً أمنّيه بمرآك ،
وطرفاً في قرار « الدا ر » موعوداً بلقياك [٢] .
تمرُّ عليَّ ساعاتٌ أشيّعُها بذكراك ؛
وأخشى ان يرفَّ الـ جفن يحرُمني محيّاك !

*

طلعتِ ، فما لقلبي شا ء يفضحُني فسمّاك .
صباحُ النور من دَنَفٍ تنهّد ثم حيّاك ؛
سلامُ الرَّوْح والرَيحا ن ، أنت نعيمُ دنياك .
مررْتِ ، وقيلَ مرّ النا س ! هل شاهدتْ إلّاك ؟

*

وَداعاً ، يا مُعذّبتي ، وعين الله ترعاك .
وَداع سُويعةٍ تمضي على جمرٍ وألقاك .
وأنسى ليلةً سَلَفت وطرْفي ساهرٌ باك ،
ومضجَع اضلعٍ مُنيتْ بنيرانٍ وأشواك .

*

شكرت الله أنِ « الدا ر » تجمعني وإياك ،
وتُلقين السؤال عليّ في أمرٍ تعدّاك

---

(١) نشرت في العدد ٣٩ من الاحرار المصورة (عام ١٩٢٦) .

(٢) الدار هنا تعني الجامعة الاميركية لأنهما طالبان في معهد واحد . ويمكن ان تعني « الوطن » لأنهما كليهما من فلسطين .

وحـــين أُجيب تمنحُني ابـ تسامَ الشكر عينـــاك

*

هجرت الدار أضربِ في فضاء الله لـــولاك [1] .
ولولا رحمـــةُ العينيـــ ن قلباً بات يهواك [2] ،
وعطفٌ من لَدُنْكِ عـــلى أسىً في النفس فتّـــاك ،
إذن لرأيْتِني يومـــاً صريعـــاً عنـد شباكي .

وقبل ان ينصرم عام ١٩٢٦ اخذ ابراهيم يقترب من فتاته ويتقرب إليها . ولذلك نرى في قصيدته الثانيـــة جرأة أكبر ووصفاً أدق وأشد تفصيلاً لها ولجلوسها وهي تطالع في مكتبة الجامعة الاميركية ☆ :

وغريرة [3] في المكتبـهْ بجمالهـــا متنقّبـه .
أبصرتهـــا عنـد الصبا ح الغض تشبه كوكبه [4] .
جلستْ لتقرأ او لتكـ ـتب ما المعلم رتبـــه .
فـدنوت أستَرِق الخُطى حتى جلست بقربَـهْ .
وحبست ، حتى لا أُرى ، أنفاسيَ المتلهّبـــهْ .
ونهيت قلبيَ عن خفـو قٍ فاضحٍ فتجنّبـه .

*

راقبتها ، فشهِدتُ ان الله أجزل في الهبه .
حمل الثرى منها على نور اليدين وقلّبـه ،
وسقاه في الفردوس مخـ ـتوم الرحيق وركّبه ،
فاذا بهـا ملَكٌ تنزّ ل للقلوب المتعَبـــه [5] .

---

(١) لولاك لهجرت الدار ...

(٢) قلبـاً مفعول به من المصدر « رحمة » المضاف الى فاعله « العينين » . ولولا ما في عينيك من رحمـة لقلبي ومن عطف علي لرأيتني ...

(*) نشرت في العدد ٤٠ من الاحرار المصورة (عام ١٩٢٦).

(٣) الغرير : المغرور المعجب بجماله ، والجميل والذي لا تجربة له .

(٤) كوكب الصباح .

(٥) نزل لتراه القلوب المستريحة فتتعب .

يا ليت حظَّ كتابها لضلوعيَ المتعذبه :
حضنتْه تقرأُ ما حوى ، وحنت عليه وما أنتبه .
فاذا أنتهى وجهٌ ، ونا ل ذكاؤها ما استوعبه ،
سمحت لأنملِها الجميـ ـل بريقها كي تقلبه [1] .

*

وسمعتْ ، وهي تغمغم الـ كلماتِ ، نجوى مطربه .
ورأيت في الفم بدعةً خلاّبة مستعذَبه :
إحدى الثنايا النيِّرا ت بدت وليس لها شبه
مثلوبةً من طرْفها لا تحسبَنها مثلبه [2] .
هي ، لو علمتَ ، من المحا سن عند أرفع مرتبه
هي مصدر « السينا ت » تكسبها صدىً ما أعذبه!

*

وأمَا وقلبٍ قد رأت في الساجدين تقلُّبَهْ ،
صلى لجبار الجما ل ولا يزال مُعذِّبَهْ .
خفقانه متواصلٌ ، والليل ينشر غيهبه .
متعذبٌ بنهاره حتى يزور المكتبه .
وأما وعينِك والقوى الـ سحريةِ المتحجّبه ،
ما رُمتُ اكثر من حديـ ـثٍ طيبُ ثغرك طيّبه .
وأرومُ سِنَّك ضاحكاً حتى يلوح وأرْقبه [3] .

وصلة ابراهيم بفتاته هذه لم تنقطع بعد خروجها من الجامعة الاميركية ، بل إن صلته بها زادت فيما بعد وثوقاً وخصوصاً في فلسطين . إلا انه كان يتذكر ايامه معها فيذكر تلك

---

(١) في القاموس : الانملة : طرف الاصبع مؤنثة وجمعها أنملات وأنامل . أما أنمل بمعنى انملة فلم ترد في اللغة . وكان يمكنه ان يقول : لأصبعها ، ولكن ربما منعه من ذلك معرفته ان أصبع مؤنثة .

(٢) الطرف (بسكون الراء او بفتحها) : الجانب . المثلبة : العيب .

(٣) السن مؤنثة ايضاً وتذكيرها خطأ .

بالخير او يشكو صبابة ويرسل زفرة بعد زفرة . فمن الذكريات الجميلة التي تنطوي على مرح وعبث ما ضمنه في موشح عذب جميل قاله في بيروت بينما لم تكن هي في بيروت [1] :

حملتني نحو الحمى اشجاني
فتهيّبتُ من جلال المكان .
وإذا فوق مُقلتيَّ يدان
فتلمَّستُ نضرةً ونعيما وتعرَّفتُ ما لثمتُ قديما .
قلت : « يا مرحباً » ، وقبّلت كفاً أنزلتني ضيفاً بأكرم دار .

•

خَطَراتُ النسيمِ في واديكِ
صبَّحَتْني بقُبْلةٍ من فيكِ .
ثم عادتْ بقبلةٍ تَشْفيكِ .
فسلاماً ، يا واديَ الرُّمانِ ، فُزتُ بالرَّوْحِ منكَ والرَّيحانِ .
واحَنيني الى ديارِكَ والرُّما نُ دانٍ يُظِلُ أهلَ الديارِ !

•

ولكنه بعد بضعة اشهر طغى به الحب فزفر زفرة حرّى حينما قال [2] :

أطفئي غُلَّتي بقبلة ثغرٍ كوثري اللمى بَرودِ الثنايا .
وابسمي لي، لعلَّ فيضاً من النو ر يُريني من الضلال هُدايا .
أنتِ لا تعلمين ما لوعةُ الوجـ ... ـدِ ؛ ألا إنها نذير المنايا .
أنت لا تدركين ما يصنعُ الشو ق إذا هبَّ عاصفاً بالحنايا .
إن في أضلعي لناراً تلظّى طار من هولها فؤادي شظايا .

وبعد عام كامل عاد ابراهيم فزفر زفرة شديدة اخرى من ألم الشوق الى فتاته بلا ريب مما ترى من الابيات التالية. ومع أن هذه الابيات ليست من النمط العالي، فانها صادقة العاطفة

---

(١) البرق ٢١ ايار ١٩٢٨ .
(٢) نابلس ٢٧ آب ١٩٢٧ .

عذبة الكلمات ، ولا غرو ، فهي مقطوعة مرتجلة . في ثنايا رسالة في آب من عام ١٩٢٨ كنت اشكو ضعفاً في عيوني من اثر الاجهاد ، فكتب الي ابراهيم رسالة فيها هذه الابيات [١] :

كيف عيناك ، يا عمرْ ؟ أنـا أدماهما السهر ،
وعصيٌّ من الدمـو عِ طغى الهمُّ فانهمر ،
وخيـالٌ ألمَّ بي من حبيب لدى السحر :
طـاف حيناً بمضجَعي وتوارى عن النظـر .
أتبعتْـه جـوانحي مهجتي عندمـا نفر [٢] .

. . .

أين ليـلي على شوا طىء بيروتَ ، يا عمر .
كان من « فَرعها » الظلا مُ ومن « وجهها » القمر [٣] .
وسميـري مُقبَّـلٌ طيب اللثم والسمر [٤] .
ومدامي ، وقـد ظَفِرْ ت بها ، نشوةُ الظفر .

. . .

من مُعيـدٌ مسرَّتي والزمانَ الذي غبر [٥] ؟
حـين لم افتكر بهجـ رٍ ولا الهاجرُ افتكر .
ولقد قيـل في الحيـا ةِ هي اللمح بالبصر .
هكذا يـذهب السرو رُ سريعـاً إذا حضر .

وفي تموز من عام ١٩٢٩ ذهب ابراهيم الى القـاهرة للاستشفاء في الدرجة الاولى وللقاء اخيه احمد الذي كان راجعاً يومذاك من انكلترة بعد إتمام دراسته في جامعـة كمبردج [٦] . ويظهر بوضوح ان ايـام الجامعة الاميركية التي كان قد ودعها في ذلك العام

---

(١) نابلس ٣١ آب ١٩٢٨ .
(٢) جوانحي فاعل اتبعته . مهجتي مفعول به .
(٣) فرعها : شعرها .
(٤) مقبل : فم . السمر : الكلام .
(٥) غبر : مر ، مضى .
(٦) نابلس ٢٨ تموز ١٩٢٩ .

نفسه ، اذ تخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم ، كانت لا تزال تملأ قلبه من هوى الغريرة التي نظم فيها بضع قصائد . وفي هذه القصيدة عتاب واضح لأخيه احمد وتعريض جلي . ان ابراهيم لم يكن يريد ان يترك هوى فتاته على الرغم مما كان به من السقم والنحول. ويبدو ان ابراهيم قال (في آب ١٩٢٩) بعد رجوعه من مصر [١] :

أعيدي الى المُضى – وان بَعُدَ المدى –
بُلهنِيَةَ العيشِ الذي كان أرغـــدا [٢] .

تباركَ هذا الوجهُ ما اوضحَ السنى وما اطيب المُفترَّ والمتورّدا [٣] !
فقدتكِ فُقدانَ الصبي ؛ وهلِ امرُؤٌ تولى صباه اليوم يَرجعه غـــدا ؟
فقدتك لكنيّ فقدتُ ثلاثـــةً سواكِ : فؤادي والاماني والهدى .
وأبقيتِ لي – غير القنوطِ – ثلاثةً : هواكِ وسُقمي والحنينَ المؤبدا .

* * *

أيا واديَ الرُّمّان [٤] ، لا طِبْتَ منزلاً إذا هيَ لم تنعَمْ بظلك سرمدا ؛
ويا وادي الرمان ، لا ساغ طعمُهُ إذا أنا لم أمدُدْ لهذا الجنى يدا ؛
ويا وادي الرمان ، واها ! وعندهم حرامٌ على المحزون ان يتنهَّدا ؛
كأنيَ لم أنزلْ ديـــاركَ مرةً ولم ألْقَ في أهليك حباً ولا ندى ،
ولم تسقني كأسَ المُدام حبيبةٌ وَرَدتْ ثناياها مع الكأس موردا ،
ولم تُوحِ لي شعراً ، ولا قُمتُ منشداً ، ولم يَرْوِ شعري عندليبُك منشدا .

* * *

أخيْ وحبيبي ، كنت أرجوك مُسعِدا ؛ يُسامحُكَ الرحمن لم تكُ مُسعِدا .
ألم ترني في مصر أطلب شافيـــاً وراعَك إشفائي على هُوَّة الردى ؟

---

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ ؛ الامالي ٣ : ٢٣٩ .
(٢) بلهنية العيش : طيبه ورخاؤه .
(٣) ما اوضح السنى : ما أشد صفاء بياضك . المفتر : الفم . المتورد : الخد .
(٤) وادي الرمان عند كفر كنة قرب الناصرة من شمالي فلسطين .
(٥) يخاطب الشاعر اخاه احمد طوقان .

ألم ترني في مَضْجعي متقلّباً أُقلّب في الأفلاكِ طرفاً مُسهّدا .
ومِنْ عجبٍ أنّا شبيهان في الهوى ؛ بِمَنْ[1] انت تهوى، هل أطقتَ التجلدا .

وتقلبت الاحوال بفتاة ابراهيم فنسيها او اضطر الى ان يتناساها . فاراد صديقه ابو سلمى[1] ان ينكأ جراحه ويستثير حبه القديم فنظم على لسانه قصيدة مطلعها :

يا صبايا كفركنّهْ ، آه من اعينكنّهْ !

وذيلها باسم ابراهيم طوقان . وسارت القصيدة على الالسن . قال ابراهيم طوقان[2] في رسالة له إليّ[3] .

« **ابو سلمى** : آخر ما فعله ان نشر قصيدة مطلعها : (يا صبايا كفركنه : آه من اعينكنه) وذيلها باسم هذا العاجز . فقام شاعر آخر وخاطبني بابيات يتشوق فيها ويتوجع ويبث هواه لكفركنة . والابيات مذيلة بامضاء ابي الخطاب . فاضطررت ان اكذب الخبر شعراً فنشرت قصيدة اولها :

« احبس يراعك ، يا ابا الخطابِ قد حل بي ما لم يقع بحسابي . »*
« تلك القصيدة لم أقل ابياتها لكنها لمزوِّرٍ (نصّاب) »
« هذا ابو سلمى ، ولا واللهِ ما نكأ الجروح سواه من اصحابي »
هيهات ان يخفى علي وكله قلب بلا باب ولا بواب[4] »

***

إلى ان اقول :

« هل كفركنّةَ مُرْجِعٌ ليَ ذكرُها ما فاتني من عنفوان شبابي »[5] ؟

---

(١) الباء في « بمن » للقسم .

(٢) « ابو سلمى » امضاء مستعار للشاعر عبد الكريم الكرمي من طولكرم بفلسطين . وهو اليوم في دمشق ، وقد اخرج مجموعاً صغيراً من شعره سماه « المشرد » (دمشق ١٩٥٣/١/١).

(٣) رسالة فقدت صفحتها الاولى ، ولعلها كتبت عام ١٩٣٤ .

(*) الابيات المحصورة بين الاهلة الصغار وردت في رسالة ابراهيم إلي . والابيات المطلقة اخذتها من ديوان ابراهيم . على ان الابيات الاربعة الاولى غير موجودة في هذا الديوان .

(٤) في هذا البيت تورية : قلب بلا باب ولا بواب : كتوم للسر او مذيع للأسرار (من رسالة ابراهيم).

(٥) مرجع خطأ والصواب راجع . « ما » مفعول به .

« ام في صباياها وفي رُمّانها ما يبعث المدفون من آرابي » ؟
« لو تنفع الذكرى ذكرتُ عشيّةً زهراء بين كواعب اترابِ » .
« فيهن آسرة القلوب بحسنها ودلالها وحديثها الحلّاب » .
روح أخف من النسيم وخاطرٌ كالبرق مقرونٌ بحسن جواب .
غُرٌّ ثناياها ، وأشهد أنها ممزوجة رشفاتُها بشراب .
نُلقي أحاجيَ بيننا فتثيرُنا للضحك خاطئةً وذاتَ صواب ؛
ونردّدُ الألحان بين شجية تُمْري مدامعنا وبين عِذاب [1]
ولقد نعرّض باللقاء لموعدٍ فيها ، ونسلُكُها طريقَ عتاب .
قمنا وقد سقط الندى وتزاحفت سُجُفُ الغمام ثقيلةَ الاهداب ،
تُخفي محيا البدر ثم تُبينُه عَبَثَ المليحة دوننا بنقاب .
وجفت مضاجعَها الجُنوبُ وملؤها خفقان مضطرم الهوى وثّاب [2] .
بِتنا على صفوٍ وخوفِ تفرُّقٍ للعاشقين مهيِّأ الأسباب .
نيسان هان عليَّ حكمك بالنوى لما تحطمت المنى في آب [3] .

واصف تلك الليلة بدقة [4] ثم اختم القصيدة بـ :

« يا ليت من فَجَعَتْ فؤاديَ بالمنى لم تُبق لي ذكرى تُطيل عذابي » .

على ان هذه الفتاة التي اوحت الى ابراهيم فنون الغزل لم تسد على قلبه سبل الهوى ، فلقد احب ابراهيم بضع مرات بعد ذلك .

حينما كان ابراهيم استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت [5] كان يتردد على قهوة النجار ، في الجانب الغربي من ساحة البرج ، ليحضر ليالي راقصة اسبانية من اشبيلية تدعو نفسها مرغريتا [6] . وشغف ابراهيم بمرغريتا الحسناء وبمرغريتا الراقصة معاً فأوحت اليه ألواناً

---

(١) تمري ادمعنا : تسيلها . العذاب بكسر العين جمع عذب : حلو .
(٢) مضطرم الهوى وثاب : القلب .
(٣) وصف الليلة يجب ان يكون الأبيات السابقة .
(٤) في العامين المدرسيين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ .
(٥) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ ؛ نابلس ١ تشرين الاول ١٩٣٢ .

جديدة من الغزل ، واوحى اليه رقصها مشاهد نظمها شعراً جميلاً جديداً .

ولكن يبدو ان هذا الشعر الجديد لم يثر في نفس ابراهيم الا بعد ان ترك ابراهيم بيروت وانقطعت صلته بمرغريتا هذه . كتب الي من القدس [1] يقول : طيه قصيدة لا بأس بها بعنوان « حسرة وأمل » [2] اقرأها واعطني رأيك فيها . هذه القصيدة موشح جميل صادق عذب :

أفدي بروحي غيدَ إشبيليهْ وإنْ أذَقْنَ القلبَ صابَ العذاب

* * *

عَلِقْتُ منهن بتِرْبِ النهارْ وجهاً ، وصنوِ الليل فرعاً وعَينْ [3] .
في مثلها يخلَعُ مثلي العِذار ولا يبالي كيف أمسى وأين .
أشربُ من فيها وكأس العُقار معاً ، فكيف الصحو من سكرتين ؟
لهفي عليها يومَ شطَّ المزار وساقها البينُ الى النيربين [4] .

*

ودَّعتُها ومهجتي مُشفِيَهْ لم يشْفني رشفُ الثنايا العذاب [5] .
وودَّعتْ بالنظرةِ المُغرية تصْحبُ لُبّي معها في الرِكابْ .

* * *

يا أعصرَ الاندلسِ الحالياتْ قد فاز من عاش بتلك الربوعْ .
أهكذا كانت هناك الحياة مترفةَ الأيامِ ملء الضلوع ؟
أهكذا الفتنة في الغانيات ونشوةُ الوصل وحرُّ الولوعْ ؟

---

(١) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٢) لما اعد ابراهيم ديوانه جعل عنوان هذه القصيدة « غادة اشبيلية » . هذه القصيدة نظمها ابراهيم في نابلس والقدس وانتهى من نظمها في ١٢ تموز ١٩٣٢ ، راجع الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ١-٣) وارسلها الي في اليوم التالي ، ١٣ تموز ١٩٣٢ .

(٣) الفرع : الشعر .

(٤) النيربين – النيرب اسم قريتين قرب دمشق : احداهما قرب دمشق والاخرى قرب حلب . يلمح من البيت ان الراقصة سافرت بعد مكثها في بيروت الى دمشق .

(٥) مشفية : قريبة من الهلاك .

لئن مضى عهدُ ذوينا وفات [1] ولم يعدْ من أملٍ في الرجوع ،

*

فذمتي بعهدهم موفيةٌ أردُّ ماضيهم ببذل الشبابْ
انا « ابن زيدون [2] » وتصبو لِيه « ولاّدةٌ » في دمها والاهاب .

***

أوّلُ عهدي بفنون الهوى بيروتُ ؛ أنعِمْ بالهوى الأولِ .
وقيل : هل يرشُدُ قلبٌ غوى ؟ والرشدُ غيٌّ في الصِبى المُقْبل [3] .
مددتُ ، لما قلتُ قلبي ارتوى ، يدي فردّتْه عن المنهل .
بيروتُ ، لو شئتُ دفعتُ النوى طوعاً ولم أهجُرْك ، فالويلُ لي [4] !

*

في ذمة الله مُنىً مُوديَهْ باسقةٌ خضراءُ لُدنٌ رِطابْ [5] .
لعلّ في أختِك ، يا سوريه ، حُسنَ عزاءٍ عن جليل المُصاب [6] !

***

يلذُّ لي ، يا عينُ ، أن تسْهَدي وتشتري الصفو بطيب الكرى .
لي رقدةٌ طويلةٌ في غد لله ما أعمقَها في الثرى .
ألم تَرَيْ طيرَ الصبى في يدي أخشى مع الغفلة ان ينفِرا .
طال جناحاهُ ، وقد يهتدي إلى أعالي دوحِه مُبْكِرا .

*

أرى الثلاثين ستعدو بِيَهْ مُغيرةً أفراسُها بأقترابْ

---

(١) اشارة الى وجود العرب في الاندلس .
(٢) ابن زيدون شاعر كان مغرماً بولادة بنت الخليفة المستكفي . الاهاب : الجلد . انا اشبه ابن زيدون بحبي وشعري . ومرغريتا تشبه ولادة بحبها وجسمها .
(٣) في الصبى المقبل : في زمن الاقبال (عنفوان الشباب) .
(٤) كنت استطيع ان ابقى في بيروت ولا اتركها .
(٥) مودية : هالكة ، زائلة . لدن : طرية .
(٦) ?...

وبعد عَشْرٍ يلتوي عُودِيَه وينضَبُ الزيت ويخبو الشِهاب [1] .

* * *

لا بدَّ لي إن عشتُ أن أعطِفا على رُبى الاندلس الناضره [2] .
وأجتلي أشباحَ عهد الصفا راقصةً فتّانةً ساحره .
هنالك لا أملك أن أذرُفا دمعي على أيامنا الغابره .
عساكَ ، يا دمعَ محبٍّ وفى ، ترُدُّ جنّاتِ المُنى زاهره !

*

يومئذ أُلقي على عُودِيَهْ لحن الهوى أمزِجُه بالعتابْ :
أفدي بروحي غيد إشبيليه وإن أذقْنَ القلب صاب العذاب .

وكان ابراهيم قد اعطى الاستاذ الفنان مصطفى فرّوخ صورة صغيرة لمرغريتا وطلب منه ان يكبرها بالالوان المائية [3] . وانهى مصطفى فروخ الصورة وارسلها الى ابراهيم فاعجب بها ابراهيم فقال : « ولا زالت انامل مصطفى تخرج المبدع [4] » . واوحت اليه الصورة ما كانت توحي اليه السنيورة [5] ، فنظم فيها مقطوعة جميلة . ولكن نسي ان يرسلها الي في حينها فارسلها بعد مدة [6] :

برّح بي الشوقُ ، فلما طغى فزِعتُ للرسم فكبَّرتُهُ .
وما شفى داءً ... ولكنما قلبي شكا البعدَ فعلّلته .

---

(١) ولد ابراهيم طوقان عام ١٩٠٥ ونظم هذه القصيدة عام ١٩٣٢ يوم كان عمره ٢٧ عاماً . وتوفي عام ١٩٤١ فيكون قد توفي بعد تسع اعوام من نظمها مما يعد اتفاقاً عجيباً ، سواء اكان ذلك حساً صحيحاً بدنو الاجل او اتفاقاً عادياً .

(٢) كان ابراهيم يريد ان يزور اسبانية وكان يحب ان نزورها معاً . وقد بدأ يتعلم اللغة الاسبانية (راجع : القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣) .

(٣) القدس ١٣ تموز ١٩٣٢ ؛ ١٠ آب ١٩٣٢ ؛ ؟ آب ١٩٣٢ .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ ؛ نابلس ١ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

(٥) لما كلفني ابراهيم بأمر الاهتمام بارسال الصورة المكبرة قال (القدس ١٠ آب ١٩٣٢) : « لك اجر وثواب عند الله لقاء احسانك لهذا الغريب المقطوع الذي اصبح يتعلل بالخيال عن الحقيقة وتكفيه الصورة بدلاً عن (السنيورة) » .

(٦) نابلس ٢٣ اغسطس (آب) ١٩٣٣ .

ولم أجدْ في الرسم أخلاقها جرّبتها حيناً وجرّبتـــه .
منتظري في مضجَعي دهره : جودُ بخيلٍ ما تعوّدتُه .
ظل ، وقد كامته ، باسماً ، ولم يمانع حين قبّلتـــه .

. . .

عرفتُ للرسّام إبداعه وعدتُ للرسم فأنكرتـه :
قد فاته دَلٌّ تمنّيْتـــه منها ومُطلٌ كم تذوّقته .
لو جاءني الرسامُ بالمُشتهى كفرتُ بالله وأشركته !

ولكن مما يؤسف له ان هذه الصورة مفقودة الآن كما اخبرني الاستاذ احمد طوقان.

ومنذ اواسط عام ١٩٣٢ بدأ ابراهيم ينظم مشهد « البلبل الصريع » ، وهو مشهد مستوحى من احدى رقصات مرغريتا،ومن قصيدة البلبل والوردة للشاعر الانكليزي اوسكار وايلد[١] . هذا المشهد يمثل الشاب الساذج يدخل المدن ممتلئاً صحة وثروة واملاً بالمستقبل فيزلق في مزالق اللهو فيخسر صحته وماله ومستقبله . فالشاب يمثله البلبل ، والوردة ترمز الى بائعة اللهو والعبث ، والروض رمز للحانة او الملهى . اما مطلع هذا المشهد فهو :

قدرٌ ساقه فآواه روضاً لم يكن طار فيه قبلُ وغنّى .

ومن اقسام هذا المشهد :

صارتِ الوردةُ الخليعة للبلـ ـبل همّاً ومأرباً يُشقيه .
حسْرتا للغرير ، اصبح كرباً ما يلاقيه من دلال وتيه .
شفّه السُّهدُ فاعتراه من الحـــب سَقامٌ مبرِّحٌ يُضنيه .
من رآها ، وقد تحامل يهفو نحوها، كيف أعرضت تُغرية ؟
من رأى روحه تسيلُ نشيداً لاهباً لوعةُ الأسى تُذكيه ؟
هي حواءُ ذلك الخلد . فاحذرْ ، لا تكوننّ أنت آدمَ فيه !
لا تهبْ قلبَك الكريم لئيماً تحت رجليه عابثاً يُلقيه .

---

(١) المنتدى ، احد اعداده ١٩٤ (راجع ص٨٠،الحاشية الاولى) ص ١٢ .
Oscar Wilde كاتب وشاعر انكليزي (١٨٧٦–١٩٠٠) .
ولقد نقل الاستاذ عبدالحميد ياسين هذه القصة الى اللغة العربية باسم العندليب والوردة (اقاصيص،ص٥–١٨).
(٢) القدس ١٠ آب ١٩٣٢ . عنوان هذا المشهد في الديوان الذي اعده ابراهيم « مصرع بلبل » .

وينتهي مشهد البلبل الصريع بالمقطع التالي :

ضمّها الطيرُ مُطبقاً بجناحيـ ـه وهمّت بثغره شفتاها .
لم يُمتّعْ بنشوة الحب حتى أشرعت شوكةً تلظّى شباها .
أوردتْها قلباً ، إذا رفّ يوماً خافقاً للهوى فذاك هواها .
كرعتْ في الدم البريء ، فلما عكستْه وهّاجةً وجنتاها ،
نظر الطيرُ نظرةً أعقبتها روحه طيَّ شهقةٍ معناها :
وردة ، تبهرُ العيون .. ولكنْ كثرةُ الشم قد أضاعت شذاها .

ومن اللواتي وجدن سبيلا الى قلب ابراهيم فتاة مسلمة يسميها فوزَ كان يلقاها في غدوه ورواحه ثلاث مرات كل يوم ، فيما يقول . ثم إنها مرضت فلم يرها اياماً . وبعدئذ شفيت فعاد الى الالتقاء بها في طريقه . ولقد اوحى اليه هذا « اللقاء » في « الطريق » مقطوعة هي :

يا فوزُ ، ويلي منك يا قاسيهْ ؛ عذّبْتني ظلماً ، كفى ما بيهْ .
أراك في اليوم ثلاثاً ولا أنال إلا النظرة الجافيه .
واللهِ ، لو تدرين ما قصتي ما كنت عن حالي إذن راضيه .
بل كنتِ لي عوناً على غربتي ، وكنت لي راحةً آسيه .
مرضتِ أياماً فلم تطلُعي ظللتُ فيها مهجتي داميه .
أسأل عنك الناس مستخبراً ولهانَ أدعو لك بالعافيه .
حتى إذا أبللتِ ، يا منيتي ، خفّف عني اللهُ بلوائيه .
بُشراكَ ، يا قلبي ، فقد أصبحتْ تغدو إلى ملعبها ثانيه .
مليكةُ ما بين أترابها ؛ يا ليتني كنت مع الحاشيه .
يا وردةً تُرسل أنوارَها فيضاً على الكون من الرابيه .
يا ربّة المنديل من تحتِه نبعةُ حُسنٍ ثرّةٌ صافيه ،
ناشدتُك الاسلامَ ، لا تقتلي أخاك في دينك يا قاسيه .

اما فوز هذه فيجب ان تكون من المصطافات في بحمدون لأن هذه المقطوعة نشرت

في السابع من تموز ١٩٣٥[١] . في ذلك الحين كان ابراهيم في بحمدون بلا ريب فقد كتب الي بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٣٥[١] يقول : انا هنا اقضي اوقاتاً لا بأس بها مع عبدالله مشنوق ولفيف من الاصحاب منهم الجديد وفيهم القديم . اما متى اعود الى فلسطين فالمرجع فيه الى الطبيب . ثم كتب الي رسالة بتاريخ ٦ آب ١٩٣٥ من بحمدون ايضاً وذكر لي انه ما زال يتردد على الدكتور خياط[٣] . والبيتان الثالث والرابع يدلان على انه لما نظم هذه المقطوعة كان غريباً (في غير فلسطين) وكان يتداوى .

وكذلك فتن ابراهيم بممرضة روسية يبدو انها كانت في نابلس في عيادة احد الاطباء . وكان ابراهيم يتردد على ذلك الطبيب ليصير حقنه بابر تتعلق محتوياتها بمرض القرحة في المعدة[٤] . والظاهر من المقطوعة ان هذه الممرضة الروسية هي التي كانت تتولى امر حقنه بتلك الابر . قال ابراهيم يتشوق الى تلك الممرضة ويبثها شكواه :

يا حلوةَ العينين يا قاسيهْ ، سِرعان ما أصبحتِ لي ناسيهْ .
أما أنا فلست أنسى يداً ناعمةً تجود بالعافيه .
لئن شفى الطِبُّ ضنىً عارضاً فمهجتي أنتِ لها شافيهْ .
وإبرةُ الآسي ، على نفعها ، أفعلُ منها نظرةٌ ساجيه [٥]
تبعثها عيناك في أضلُعي فيّاضةً بعطفها آسيه .
تلأمُ قلباً نكأتْ جرحَه فعاد يهوى مرةً ثانيه ؛
وتطفىء النار التي حُرِّكت فأرجعتها زفرةً حاميه .

* * *

قيصرةَ الحسْن ، ألا أشتكي إليك من جَورك يا طاغيهْ :

---

(١) جريدة فلسطين .
(٢) جعل عنوانه في هذه الرسالة : بحمدون – المحطة – لوكندة تابت .
(٣) جورج خياط .
(٤) نابلس ٢٧ ايلول ١٩٣٥ .
(٥) الآسي ، الطبيب ، الشافي . الساجي : الساكن ، الهادىء . ويقصد الشاعر هنا : العين الفاترة الفاتنة المملوءة بالدلال .

هل كان نسيانك لي هفوةً ام خطةً أشراكها خافيه ؟
سيدتي ، ذنبُك مهما يكنْ تغفِره أعذارُك الواهيه .

وغزل ابراهيم عفيف ، واكثره نسيب فيه ذكر للايام الماضية وتشوق الى المحبوبة ، كما ان فيه تحليلاً بارعاً لنفسه في تلك الميادين . ولكن له ايضاً مقطوعاتٍ عليها نفحـــة من الصراحة والجرأة . وسأكتفي هنـا بقطعتين فقط : اما الاولى ففيها وصف حسي وتحليل نفسي معاً ، وهي من شعره الاول قيلت عام ١٩٢٩[١] ، ويبدو انها في م.ص :

ما كنتُ أرغب ان أُسمّى قاسياً فأنفّرَ الأحلامَ من عينيها .
والشوق يدفعني الى إيقاظهـا ، ويدي تحاذرُ أن تُمدَّ اليها .
وكأنما شعَرَ الرقادُ بنعمةٍ فأقام غيرَ مُفارقٍ جفنيها .
ويلٌ لقلبي ، كيف لم يفتِك به مرأى تقلُّبِها على جنبيها .
وتنهدتْ مما تُكنُّ ضلوعها ؛ ياشوقُ ، ويحك لا تُرعْ نهديها !
حسبي جوىً أني نظرت لشعرها ينكبُّ مرتشفاً ندى خديها .
وأغارُ منه إذا اطمأنَّ به الكرى ، ويُثيرني متوسّداً زَنديها .

. . .

أدنو بلهفة عاشقٍ لم يبق من صبرٍ لديَّ وقد حنوت عليها ،
فيصدُّني أدبي وأبعُدُ هيبةً ، وأودُّ لو أجثو على قدميها .
فالنفسُ بين تهيُّبٍ مما ترى وتلهُّبٍ ، فاحترت في امريها[٢] .
ولعلَّ أشواقي بلغنَ بيَ المدى فوقعتُ لا أصحو على شفتيها .

اما القطعة الثانية فهي ايضاً من اول شعره ، قيلت عام ١٩٢٩ . ولكنها ابعدني المجون :

لم ألقَ بين ليـاليَّ التي سلَفتْ كليـلةٍ بتُّها في دير قِدّيس .
ضممتُ حسناء لم يُخلق لها مثَلٌ بين الحسان ، ولا حورُ الفراديس .
ما عرشُ بلقيسَ في إبّان دولتها ، ولا سليمان مزفوفـاً لبلقيس ،

---

(١) راجع ايضاً مجلة الاحد (دمشق) السنة الثالثة ، العدد ١٠٩ ، ٢ شباط ١٩٤١ .
(٢) احتوت من احتار لم ترد في اللغة ، يقصد حرت من حار يحار .

يوماً بأعظم منّا في السرير وقد دام العناقُ الى قرع النواقيس !

وهنالك مقطوعة ثالثة في هذا الباب قالها يوم كان يسكن في رام الله (قرب القدس). قال[1] : « ولي جارة اسمها بهية وتسمي نفسها بهاء ، وهي بهاء حقيقة . . . » ولقد كانت بهاء هذه فلاحة في رام الله وكانت جميلة جداً ، ولم يذهب غزل ابراهيم فيها سدى . قال ابراهيم :

« بها » يا جنّةَ الحسن ويا كوثرَه الصافي ،
ويا أفضلُ بين الغيـ ـد من عشرة آلاف ،
فديتُك حُقّ للهمز ة ان توضع في الكاف[2] .

المجون :

يبدو من مراجعة رسائل ابراهيم واشعاره انه ظل ينزه نفسه عن العبث وينزه شعره عن المجون حتى اواسط عام ١٩٣١ . فبين دفاتر ابراهيم دفتر فيه قطع موسومة بالشرارات : الشرارة الاولى ، الشرارة الثانية . . .الخ نظمها بالاشتراك مع وجيه البارودي* بين ٢٥ تشرين الاول ١٩٣٠ و١٨ ايار ١٩٣١[3] . هذه الشرارات في الغزل المؤنث وفي فتيات كن في الجامعة الاميركية ومن خارج الجامعة الاميركية . غير ان في هذا الدفتر اربع قطع في الغزل المذكر استقل بها وجيه البارودي وحده . وظل ابراهيم الى آخر حياته لم ينظم في الغزل المذكر قط .

في اواسط عام ١٩٣٢ كانت صلات ابراهيم قد توثقت بالصديقين اللذين اشرت

---

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) ك – رسم الحرف هكذا ابراهيم نفسه بعد كلمة « الكاف » . اما الاشارة فواضحة « سوى صورة حرف الكاف بالهمزة » : الهمزة مقطوعة من اول كلمة ، والكاف مقطوعة من أول كلمة اخرى.

(*) ص ٣٠–٣١ .

(٣) الشرارة الخامسة اشترك في نظمها ابراهيم طوقان ووجيه البارودي وغالب عرفات (ولد غالب عرفات في نابلس سنة ١٩١٠ وتخرج في الجامعة الاميركية في بيروت برتبة B.B.A. بكالوريوس في الادارة التجارية سنة ١٩٣١ . (A U B Directory 1953, p 212) .

اليهما في ترجمته [1] وكانت المياه قد عادت بينه وبين وجيه البارودي الى مجاريها فبدأ يتأثر باتجاه هؤلاء الاصدقاء في المجون والنظم فيه .

ولم يلبث ابراهيم في اعقاب ١٩٣٢ أن سلك سبيل الهوى والكأس فذكر ذلك في قطعة له عنوانها مغامرة [2] :

رب يوم كأنما كرع البحر فغطى السماء بالمعصرات [3]
يتزاحمن في الفضاء الهوينا مسبلات الذيول منهمرات .
جمّد القرّ معشر الطير حتى بكمت في الوكون مرتكمات [4].
عصف الشوق يومذاك بأضلاعي فأزرى بثورة العاصفات.
لم يزل بي [5] حتى تجشّمت هول السير عدواً الى الحبيب المؤاتي .
اتقرّى بين الضباب طريقي مستنيراً مقادحَ الزفرات [6].
أترعت لي كأس المدام وقالت: هاك ، لا ترفضنّها بحياتي .
قلت : منها اشربي قليلاً . فلما فرعتها [7] بريقها قلت : هاتي .

وابراهيم لم يسم هذا الصديق الذي دله على طريق الهوى في هذه « المغامرة »، ولكنه ذكره باسمه الصريح وبكنيته في قطع اخرى ، ثم هو يذكر اساليب ذلك الصديق نثراً ايضاً ، قال [8] :

« جاءني . . . عصاري يوم وقال لي بلهفة : انها اجتازت من هنا قبل دقائق معدودة !

---

(١) ص ٤٣ .
(٢) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ، ص ١٣ .
(٣) المعصرات هي السحب التي امتلأت بالماء وحان لها ان تمطر. جاء في سورة النبأ : « وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » (٧٨ : ١٤) .
(٤) بكم : خرس . الوكون : المواضيع التي تعشعش فيها الطيور . مرتكمات : مجتمعات بعضها على بعض (طلباً للدفء) .
(٥) الضمير في « يزل » يعود على احد صديقيه .
(٦) زفراتي الشديدة (من الشوق) كانت تقدح ناراً فتنير طريقي .
(٧) هنا : مزجتها .
(٨) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٦ .

ولك إمشي معي بتلحقها . . . فتبعته . . . » ثم يذكر ابراهيم شعوره بعد هـــذه الحادثة في ثمانية ابيات [1] .

وفي عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٤ نظم ابراهيم شيئاً كثيراً من المجون مما ينطوى على صور شعرية صحيحة ولكن لا يصـح اثبات شيء منها في هذه الدراسة . على ان آخر ما نظمه في المجون قصيدته المشهورة « شهر ايار » . ولا شك في انها رائعة في صورها الشعرية .

✡

ومما يدخل في غزل ابراهيم قصيدة مشهورة جداً ، ولكنها ليست لابراهيم وحده . هي قصيدة « يا تين يا توت » او حدائق الشام . هذه القصيدة نظمهـا ابراهيم طوقان وحافظ جميل ووجيه البارودي في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٢٨ [2] .

اما القصيدة تامةً فهي [3] :

يا تينُ يا توت يا رمان يا عنبُ يا درُّ يا ماس يا ياقوت يا ذهبُ .
اللهُ الله ، ما هذا الدلالُ ؟ وما هذا الصدود ؟ وما للقلب يضطرب ؟
يا تين يا توت يا رمان يا عنب !
الشمسُ ما الشمس ، إن الشمس تنكسفُ ؛ البدرُ ما البدر ، إن البدر ينخسف .
والدمع يا تين ، إن الدمع ينذرف ، يامنيةَ القلب ، هل وصلٌ وأنصرف !
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .
يا تين ، يا ليت سرحَ التين يجمعُنا ؛ يا توتُ ، يا ليت ظل التوت مضجَعنا ؛

---

(١) الدفتر المخطوط ١٩٣٢ ص ٨ .

(٢) الدفتر ١٩٢٦ ، الصفحة ١١ .

(٣) كتب الي الدكتور وجيه البارودي (حماة ٧ ايلول ١٩٥٤) ان ابراهيم وحافظ جميل عادا ذات يوم من البحر وهما ينشدان المقاطع الثلاثة الاولى من هذه القصيدة فاشترك معهما فأكملوا كلهم القصيدة على ما هي مثبتة هنا .

... والدكتور وجيـــه البارودي لا يرى هذه القصيدة بارعة جداً . قال : « ومما يؤكد نظريتي هذه ان حافظ جميل ، بعد مضي سنوات ، عارضها بنفسه (وحده) فهذب وشذب واضاف وجدد فيها فجاءت احـــلى واشهى وارق معنى ومبنى » .

وأنت ليتك، يا رمانُ ، تُرضعنا ؛ والكرم، ياليت بنت الكرم تصرعنا.
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا يومَ أقبلْنَ امثال التماثيلِ مكلّلاتٍ بهالات الأكاليلِ ،
تبعت لِيلي ، ولِيلي ذات تضليل . لِيلي فديتُك ما أقساك ، يا لِيلي .
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا جارة القلب يا قُمرية الوادي يا غادةً لا عداها رَيِّقُ الغادي ،
لئن ظفرت بقرب بعد إبعاد يوماً فإني من الزلفى بميعاد .
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا نفحةَ الآس يا ورد البساتين، ويا شذا نرجسٍ غضٍ ونسرين،
ويا هزاراً شدا بين الأفانين ، أراحل انت أم باقٍ الى حين ؟
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

يا كوكب الحسن يزهو في العشيّات ، ويا ربيبة اتراب السماواتِ ،
يا مطلع الفجر وضّاحَ الثنايات ، طوفي علينا بأكواب الحُميّات
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

باكرت ، يا تين ، نحو التين أجنيهِ وأذرف الدمع من عيني وأسقيه؛
أسندت رأسي الى فرع أُناجيه فرجّع الطير نوْحي في أعاليه .
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

هل نظرةٌ لعميد القلب مفتون ام نهلةٌ من لَماك العذب ترويني .
أوّاه ، أبكي على من ليس يبكيني. يا من رأى نرجساً يبكي على تين !
يا تين يا توت يا رمان يا عنب .

حدائقَ الشام ، عين الله ترعاكِ ولا سرت نسمة إلا برَيّاك .
يا مرتع العُرْب الأتراب، نُعماك ؛ تفترّ عن بهجة الدنيا ثناياك .
يا تين يا توت يا رمان يا عنب !

تجار السياسة والوطن

ان الشعراء الذين قالوا في فلسطين وفي الكفاح العربي في وجه العـــدوان البريطاني اليهودي كثار جداً . فليس في العالم العربي من لم يشعر بالكارثة التي هَضَّتِ العرب حيث كانوا في وطنهم المترامي الأطراف . ولا غرو « ففلسطين تعد قضية قومية عامـة ، ولذا نرى الأدب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرهـا . ولو جمعت الأقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني إلى هذا العهد لملأت مجلدات [١] » .

اما في فلسطين نفسها فهنالك نفر وقفوا معظم شعرهم في الأكثر على هذه الناحيـــة القومية الوطنية السياسية، منهم ابراهيم طوقان وعبدالرحيم محمود[٢] وعبد الكريم الكرمي[٣] وبرهان الدين عبوشي [٤] وعبد المنعم الرفاعي [٥] وفدوى طوقان اخت ابراهيم [٦] . على ان

---

(١) الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ ؛ راجع العوامل الفعالة ١٠٧ ، ١٠٩ ؛ الفلسطينيات .

(٢) عبد الرحيم محمود يأتي في المرتبة الثانية بعد ابراهيم طوقان في هذا الباب من القول . ولكنـــه فوق جميع الذين قالوا لأنه كان من المجاهدين وقد سقط شهيداً في معركة الشجرة في ١٣ حزيران ١٩٤٨ . (راجع بعض قصائده الوطنية في مجلة الأمالي : الشهيد ، موت البطل ، ذكرى الزمان ، ١ : ٦٦٦ ، ١٠١٨ ، ١٤٠٤) .

(٣) راجع مجموع شعره « المشرد » ، وهو يضم قصائد وجدانية يمتزج فيهـــا الغزل بحب الوطن والنسيب بالحماسة ، ما عدا « الثوب الازرق » (٩٥-٩٧) فانها غزل خالص .

(٤) برهان الدين العبوشي من جنين ، ومن الذين جاهدوا باقوالهم واموالهم وانفسهم . تجد عـــدداً من قصائده الوطنية في مجلة الامالي : المرج الكئيب مرج ابن عامر – امة العرب – أتصفو الليالي ؟ – في ما التجمل يا زمان (الامالي ١ : ٦٩٧ ، ٧٩٢ ، ٨٨٨ ، ١٠٥١) . ولبرهـــان الدين العبوشي « شبح الاندلس » ، وهي مسرحية شعرية عن نكبة فلسطين ومعركة جنين الكبرى (بيروت ١٣٦٨ هـ – ١٩٤٩ م) .

(٥) عبدالمنعم الرفاعي، نجد له ثلاث مقطعات في الامـــالي (١ : ١٠٧٨) بعنوان : الفردوس الملتهب أو ألحان فلسطين .

(٦) فدوى طوقان (ولدت في نابلس نحو عام ١٩١٤) نجد لها قصيدة في الامالي (١ : ٤٠٣) بعنوان : « الله فيك وفي بنيك » . ولها ايضاً مجموع شعر « وحدي مع الايام » فيه خمس قصائد فيها نفحة من الوطنيـــة والحماسة : الروض المستباح – اليقظة – بعد الكارثة – مع الاحبة في العيد – رُقية (ص ١٢٠-١٣٧) .

ابراهيم كان اوسعهم قولاً وانفذهم بصراً . ومع انه توفي قبل وقوع الكارثة بسبع سنوات كاملة ، فانه كان يجزم في اشعاره ، وفي رسائله إلي ، بالنتائج المنتظرة من تخـــاذل العرب وتنازع رؤسائهم على سفاسف الأمور وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح . اما نقمته البالغـــة فكانت على الزعماء المنافقين كما سنرى ذلك في مواضعه . ولم يبالغ استاذنا ـ استاذي واستاذ ابراهيم ـ الأستاذ انيس المقدسي لما قال : « ولعل شعر ابراهيم طوقان أصدق مرآة لحـال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفثاته الوطنية الحـارة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها . . . ولولا حرج الحال لأثبتنا هنا كثيراً من نفثاته الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها [1] » .

بدأ الانكليز منذ بدء انتدابهم على فلسطين يُرسون قواعد الوطن القومي اليهودي فارسلوا الى فلسطين مندوباً سامياً يهودياً ثم جعلوا يسنون القوانين حتى يفسحوا المجال امام اليهود بالهجرة وبشراء الاراضي وبالاستقرار ونيل الامتيازات . ثم انهم اخذوا يضطهدون العرب ـ والمسلمين منهم خاصة كما يحدث في جميع البلاد المستعمرة ـ او يهملـون شأنهم فتبقى قراهم او احياء المدن التي هم فيها على ما كانت عليه ، فنشأ الجيل العربي في فلسطين جيـلاً جاهلاً ضعيفاً فقيراً . بعدئذ قام الانكليز بافساد الخلق العربي فنشروا المسكرات ـ والويسكي على الاخص ـ بين الشبان وخصوصاً من اهل البيوتات الكبيرة حتى ندر ان نجد بين رجال الطبقة الاجتماعية العليا من لا يشرب الوسكي ولا يلعب البريدج ، لاهين بذلك بعض اللهو او كلّه عن الاهتمام بحال بلادهم . اما الطبقات الوسطى والدنيا فتولى امرها اليهـود يسهلون لها سبل الفسق في كل مكان فيسلبونهـا صحتها ومالها واخلاقها . ويعود الانكلـيز واليهود معاً الى جميع الطبقات في فلسطين فيغرونهم بالاموال لبيع اراضيهم ويبذلون لهم فيها اثماناً جنونية مِئينَ وآلافاً . فالفلاح الذي كان لا يستغل ارضه الا ببضع جنيهات في

---

(١) العوامل الفعالة ١٠٩ ، الاتجاهات الادبية ١ : ١٤٧ – يذكر الاستاذ المقدسي (الاتجاهات الادبيـه ١ : ١٤٧ ، الحاشية ٣) قوله : « وقد جمعت شقيقته شعره ونشرته في ديوان خاص » . ان ديوان ابراهيم لم ينشر بعد ، الا اذا كان الاستاذ المقدسي يعني بديوانه الذي جمعته اخته فدوى ونشرته في كتابها «اخي ابراهيم» (المكتبة العصرية – يافا ١٩٤٦) .

العام باع ارضه بعشرات الالوف . ولكنّ هـــذا الاثمان لم تفد عرب فلسطين كثيراً لأن اليهود كانوا يأخذون منهم بالشمال ما يعطونهم باليمين ، كما يقول ابراهيم . كان الفلاح يبيع ارضه بعشرة آلاف جنيه مثلاً فتتعلق به فتاة يهودية ولا تزال به حتى تبتز بدلالهـــا ودهائها منه آخر جنيه منها ثم يعود هو فلا يجد فلساً من ثمن ارضـه ولا يجد ارضه . ان هذه السياسة لم تكن قاصرة من جانب المستعمر على فلسطين وحدها، ولكن المستعمر طبقها تطبيقاً واسعاً مستعجلاً على فلسطين . واغرب من هذا كله ان هذه السياسة تطبق الى اليوم في اقطار مختلفة ولما ينتبهْ مجموع المسلمين بعدُ الى خطرها الداهم .

ثم ان الانكليز عادوا مرة اخرى الى المسلمـين من عرب فلسطين وشغلوهم بالسياسة المحلية التافهة وقسّموهم أحزاباً وشِيَعاً يقاتل بعضها بعضاً على الاستئثار بمركز في المجلس البلدي في القرى . أما رئاسة البلدية في القدس خاصة ثم في يافا وحيفا فكانت البلاء الاكبر. وحديثُ النزاع بين « دار الحسيني ودار النشاشيبي ، ثم تدخُّل دار الخالدي » تدخلاً فرعياً في هذا النزاع امر مشهور الأسباب مشهور المجري مشهور العواقب . ولكن محله في كتب التاريخ لا في هذه الدراسة التي يكفينا ان نعرف فيها هذا القدر الذي قصصناه مجملاً لنفهم به شعر ابراهيم في هذا الباب .

غير اني أحب ألا يذهب الوهم بالقارىء إلى أني ألوم المسلمين في فلسطين على ضياع فلسطين . لا ، ان جميع المسلمين في جميع اقطارهم ملومون في ذلك ، ولكني « أصف هنا العمل الاستعماري الذي عمله الانكليز في فلسطين ويعمله سائر المستعمرون في بـــلاد الاسلام ، ولكن بصورة أهدأ وأبطأ » . وعلى كل فاننا لا نستطيع ان نفهم الشعر الوطني السياسي في ديوان ابراهيم طوقان إذا لم نفهم هذه الأحوال او إذا لم نُحِطْ بتلك العوامل. اما انا شخصياً فأرجو من بني أمتي في كل صقع خاضع للاستعمار الظاهر او البـــاطن ان يفتحوا أعينهم على وسائل إضعافهم بالسياسة التي كانت تتبع في فلسطين .

هذه الحال التي أبسطها شعر بها كل مخلص نافذ البصر . كتب السيد برهـان الدين العبوشي ـ وقد عرفتُه تلميذاً متوقداً حميةً وحماسة يوم كنتُ استاذاً في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس في العام المدرسي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ ـ يقول عن الانكليز وعن سياستهم في

فلسطين [1] : « فقد خدعوا الوجوه والأعيان وطلاب الوظائف . . . فجردونا من كل ما يُهيِّئُ لنا بناء دولة عربية مستقلة وأيقظوا في العائلات في المدينة والقرية الفتنة النائمة . . ثم اقتحموا مضارب الخيام فأطمعوا أهلها بالذهب وأفسدوا بين العائلات الحاكمة وأغرَوا غيرها (لما أشاروا إليها ان) تتهيأ للحكم فأصبحت الرؤوسُ أطوعَ لهم من بنانهم. وكانوا قبل ذا قد ابتدعوا وعد بلفور فترعرع على أكفهم بينما العربُ مشغولون بالشقاق العائلي والتنافس على العرش الذي يصنعه العدو » .

لم يحتجِ الانكليز واليهود الى اكثر من بضع سنوات حتى تمت لهم الخطوة التي ارادوها وتشقق العرب في فلسطين ودخل عليهم الوهن واصبح اليأس اغلب عليهم من الرجاء . لقد خسر العرب معركة فلسطين الاولى عام ١٩٢٨ قبل عشرين عاماً من دخول الجيوش العربية اليها لتخرج منها هي واهل فلسطين الى حين .

في الحفلة الختامية لكلية النجاح الوطنية في نابلس (أيار ١٩٢٨) القى ابراهيم طوقان قصيدة عرَض فيها لضرورة التفاؤل ثم استنهض الهمم وحمل على محترفي الوطنية والدجالين حملة شديدة . وها أنا مُثبتٌ المقطعين الاولين من هذه القصيدة :

كفْكِفْ دموعَك ليس ينـ ـفعُك البكاء ولا العويلُ .
وانهَضْ ولا تشْكُ الزما نَ، فما شكا إلا الكسول [2] .
واسْلُكْ بهمتك السبيـ ـلَ، ولا تقلْ : كيف السبيل؟
ما ضلّ ذو أملٍ سعى يوماً وهمّتهُ الدليل ؛
كلا ، ولا خاب امرؤٌ يوماً ومقصِده نبيل .

•

أفنيتَ ، يا مسكينُ ، عمـ ـرَك بالتأوُّهِ والحزَنْ .
وقعدتَ مكتوفَ اليديـ ـن تقولُ : حاربني الزمن .

---

(١) شبح الاندلس ٩ .
(٢) يقصد الكسلان ، لأن « كسول » صفة للفتاة المنعمة التي لا تبرح مكانها كثيراً . و « كسول » عند العرب صفة مدح .

مـــا لم تقُمْ بالعِبء أنـ ـت فمن يقـوم به إذنْ ؟

. . .

كم قلتَ : « أمراضُ البلاد » ! وأنتَ من أمراضِهـــا ؛
والشؤمُ علّتُها ، فهـــل فتشت عـن أعراضهـــا ؟
يا من حملتَ الفأسَ تهـــدمها عـــلى أنقاضهـــا .
أقعُـدْ فمـــا أنت الذي يسعى الى إنهاضهـــا .
وانظـرْ بعينيـكَ الذئـا ـبَ تَعبُّ في أحواضها .

●

وطنٌ يُبـــاعُ ويُشترى وتصيح : « فليَحْيَ الوطنْ ! »
لو كنتَ تبغي خـــيرَهُ لبذلْتَ من دمك الثمن .
ولقُمْتَ تضمدُ جرحـــه لو كنتَ من أهلِ الفطَـن .

إن هذا العتاب الرقيق وهذا الأمل الغض في شعر ابراهيم سرعان ما تحولا نقمة مُحنَقة على سماسرة الأراضي الذين يبيعون البلاد من غير ان يفكروا في مصير «احفادهم»، فنظم في النصف الأول من عام ١٩٢٩ قبل الثورة (آب ١٩٢٩)[1] مقطوعة صريحة جداً تنضح بالتشاؤم :

باعوا البـــلاد الى أعدائهم طمعاً بالمـال ، لكنما أوطانهم باعوا .
قد يُعذَرون لو أن الجوعَ أرغمهم . والله ، ماعَطِشوا يوماً ولاجاعوا .
وبُلْغَةُ العار عند الجوع تلفِظُها نفسٌ لها عن قبول العار ردّاعُ .
لكنهم ، وعذابُ الله يمحَقُهم ، للبطن والفرج دون الخير نزّاع[2] .
تلك البلاد إذا قلت اسمُها « وطنٌ » لا يفهمون ؛ ودون الفهْم أطماع .
أعداؤنا ـ منذ أن كانوا ـ صيارفةٌ ؛ ونحن ـ منذ هبطنا الأرض ـ زرّاع .
لَمْ تعكسوا آية الخلاق ، بل رجعَتْ الى اليهود بكم قُربى وأطباع .

●

(١) نابلس ١١ ايلول ١٩٢٩ .
(٢) هذا البيت غير موجود في الديوان الذي يعده احمد طوقان للطبع .

يا بائعَ الأرض لم تحفِلْ بعاقبةٍ ولا تذكرتَ[1] أن الخصمَ خدّاع .
لقد جنيت على الأحفاد ، والهَفي ، وهم عبيـــد وخُدّام وأتباع .
وغرّك الذهبُ اللمّاع تحرزه ، إن السراب - كما تدريه - لمّاع .
فكّرْ بموتك في أرضٍ نشأت بها وأترك لقبرك أرضاً طولُها باع .

في عام ١٩٣٢ كانت مساحة الأراضي التي انتقلت إلى اليهود بطرق مختلفة قد أصبحت واسعة جداً أرعبت اهل فلسطين. فتنادي نفر منهم إلى وجوب إيجاد وسيلة لانقاذ الأرض من التسرب إلى اليهود، ورأوا ان افضل السبل إلى ذلك ان يؤسس صندوق عام تشترى من الأموال المجموعة فيه تلك الأراضي التي يحاول أهلها ان يبيعوها الى اليهود اضطراراً من فقر او حاجة او طمعاً بمال كثـــير يدفعه اليهود . وقد أنشىء يومذاك صندوق الامة . ثم اصدرت جريدة فلسطين عدداً ممتازاً لتلك المناسبة نشرت فيه رسوم القائمين عـــلى هذا الصندوق وهم الحاج امين الحسيني وموسى كاظم باشا الحسيني مع اعضاء اللجان في المدن الفلسطينية المختلفة ، وكان عدد اعضاء هـــذه اللجان ثمانية وعشرين . ولم يؤمن ابراهيم بمشروع « صندوق الامة » لاسباب منها - كما يقول في رسالة له إلي[2] - ان ثمانية من هؤلاء جميعهم كانوا سماسرة على الاراضي لليهود . ومنها ايضاً ان اللجان لم تستطع ان تجمع - على الرغم من الخطب والقصائد والاناشيد الحماسية - إلا اقل من الف جنيه . يقول ابراهيم في هذه الرسالة :

و « (تيّست) فلبيت دعوة جريدة فلسطين للمعاضدة بقصيدة . واقسم بالله والرسول والملائكة اجمعين إنني لو علمت ان النتيجة ستكون برهـــاناً على موت اهل فلسطين ما حركت قلمي . ولكن هكذا كان ، ونظمت القصيدة[3] وذيلتهـــا بامضاء (ابو جعفر) . واليك هي :

حبـــذا لو يصومُ منا زعيمٌ مثل «غندي» ، عسى يفيد صيامهْ .

---

(١) في الديوان الذي يعده احمد طوقان للطبع « تعلمت » .
(٢) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .
(٣) نظمت هذه القصيدة في ١٤ ايلول ١٩٣٢ (الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ١٣) .

لا يصُمْ عن طعامه ... في فلسـ طينَ يموت الزعيم لولا طعامه[1] .
ليصُم عن مبيعه الارضَ يحفظْ بقعـــة تستريح فيها عظامه ،
بارك الله في حريصٍ على الأر ض غيورٍ يُنْهَى إليها اهتمامه .
هم حماة الديار من كل سوء[2] وهمُ معقِلُ الحمى ودِعامه .
نهَجوا منهَجَ القويِّ وصفُّوا لجهـــادٍ منصورةٍ اعلامه .
إنما حجّةُ الضعيف احتجاجٌ لم يجاوزْ حدَّ السطورِ احتدامه .
كلَّ يوم حزبٌ وحُلم، فحدِّثْ عن ضعيفٍ سلاحه أحلامه[3] ،
مُغْرَمٍ بالبلاد صبٍّ ولكنْ بسوى القولِ لا يفيض غرامه .
بَطلٌ إن عـــلا المنابرَ كرّا رٌ ،سريعٌ عند الفعال انهزامه .

●

آزِروا القائمين بالعمـل الصا لح ، إنَّ الكريم هذا مَقامه .
آزروهم بالمال، فالأرض «صندو قٌ» حفيظٌ لمالِكم بل قِوامه .
إشتروا الارض تشتريكم[4] من الضيـ ـم وآتٍ مُسْـــوَدَّةٍ أيّامه .

واشتدت نقمة ابراهيم على باعة الارض وعلى الزعماء الذين كانوا «دلالين». ثم زاد قنوطه من صلاح حال العرب في فلسطين وازداد تشاؤمه من الايام المقبلة وقرب جلاء العرب عن بلادهم فذكر ذلك في قصائد ومقطعات مختلفة نظمها كلها في عام ١٩٣٥ :

لا تلمني إن لم اجـد من وميضٍ لرجـــاءٍ ما بين هـذا السوادِ .
– أجـــلاءً عن البـــلاد تريدو نَ[5] فنجـلو ام محقَنا والازالهْ ؟
– بني وطني ، هل يقظةٌ بعد رقدةٍ ، وهل من شعاعٍ بين تلك الغياهب ؟

(*) الملاحظات التالية (١ – ٤) لابراهيم نفسه:
(١) وفي سوريا ولبنان .
(٢) هنا التياسة (يقصد انه قال هذا عن حسن نية ، ولكن هذا غير صحيح) .
(٣) عزة دروزة واشياعه قاموا حديثاً بتشكيل حزب يسمى « حزب الاستقلال » .
(٤) تشتريكم يجب ان تكون تشتركم (بجزمها بحذف حرف العلة لأنها في جواب الامر) ولكنها لم تقع له الا هكذا . ثم يعلق عليها فيقول ان تشتركم غير جميلة ، ولكن هذا عذر فقط .
(٥) يخاطب الانكليز .

فوالله ما أدري – وللبأس هيبةٌ – أنادي «أميناً» ام أهيبُ «براغب»[1] ؟
– يا قوم ، ليس عدوُّكم ممن يلين ويرحمُ .
يا قوم ، ليس أمامكم إلا الرحيلُ فحزّموا !
– يا حسرتا ، ماذا دهى اهلَ الحمى ؟ فالعيش ذل والمصير بوار !

وكان ابراهيم يشكو في ذلك كله قلة المخلصين من الذين يتصدون للزعامات وللمناصب، وقد ردّد شكواه في سنوات كثار . من ذلك ما قاله عام ١٩٣٣ و١٩٣٥ :

رحم الله مخلصاً لبلادٍ ساوموه الدنيا بها فأباها .
لو أتوهُ بالتبر وزنَ ثراها لأباهُ وقال : أفدي ثراها !
صكّتِ الألسنُ المسامعَ حتى لقيتْ من ضجيجكم ما كفاها .
– وما حسرتي إلا على مُتعفّفٍ يقوم لوجه الله بالنهضة الكبرى !

وفي العام ١٩٣٥ كان العرب قد تناسوا قضيتهم الكبرى في فلسطين واستحال كفاحهم النبيل ضد الانكليز واليهود نزاعاً فيما بينهم هم في سبيل الفوز برئاسة البلديات المختلفة وخصوصاً في القدس بين آل النشاشيبي وآل الخالدي ، وكان آل الخالدي في صفوف الحاج امين الحسيني . فقال ابراهيم يخاطب المتنازعين على رئاسة البلدية :

بَليتْ قضيتُكم فصارت هيكلاً يتهدّمُ .
ضمُرَت الى بلديةٍ فيها العدا تتحكّم[2] .

وكان في فلسطين مواسم شعبية متعددة يقيمها الناس في اماكن مختلفة . اشهرها موسم النبي موسى في القدس وموسم النبي روبين في يافا . هذه المواسم تعود الى ايام الحروب الصليبية ابتكرها صلاح الدين الايوبي حتى يكون الشعب مجتمعاً مرة بعد مرة في اماكن معينة بعاطفة دينية وطنية فتظل شعلة الدين والوطنية متقدة في النفوس ، كما تكون الجموع نفسها إرهاباً للصليبيين . ولما انقضت الحروب الصليبية زال المعنى المقصود من تلك المواسم

---

(١) أهاب به : دعاه . امين : الحاج امين الحسيني . راغب : راغب النشاشيبي خصم الحاج امين .
(٢) « كان الخصام بين الاحزاب العربية وقتئذ على اشده بسبب انتخاب البلديات في فلسطين » (تعليق ابراهيم طوقان) .

ولكنها بقيت اعياداً رمزية . فلما احتل الانكليز فلسطين وبدأ امر اليهود يستفحل عاد لهذه المواسم شيء من معناها الاول . وكان الانكليز عادة يتخذون لمناسبة هذه المواسم احتياطات مختلفة غايتها في الاكثر ان يدافعوا عن اليهود لو وقع عليهم اعتداء من جانب الجموع المحتشدة . وفي عام ١٩٣٥ ـ عام النزاع الشديد على الانتخابات البلدية ـ اتخذت الحكومة الانكليزية احتياطات اوسع .

وكان يصحب موسم النبي موسى موكب يسير على رأسه قائد الموسم يركب جواداً ويحمل في يده سيفاً مما اصبح مع الايام مظهراً فارغاً . في هذا العام قال ابراهيم سبعة ابيات يعرّض فيها بذلك المظهر الفارغ ويشير الى عنعنات العرب بعد ان يخاطب الحكومة الانكليزية ويلومها على كثرة احتياطاتها التي لم يبق لها ، بعد استفحال التنازع بين العرب ، مبرر كبير . قال ابراهيم :

علامَ احتراسُكِ ؟ لا أعلمُ ! وفيمَ احتشادُك ؟ لا أفهمُ !
وهل في فلسطينَ ما ترهَبين سوى أنه اجتمع الموسم ؟
جوادٌ براكبه عاثرٌ ؛ ... وأين له الفارس المُعْلَمُ !
وسيفٌ بحامله ساخرٌ ؛ وأين له الكفُّ والمِعصم !
وهذا بتهديده يدّعي ، وذاك بتنديده يزعُم ...
مَعازيلُ إلا من العنعنات مشاغيلُ عن كل ما يُكْرِم .

•

مظاهرُ ليس بها ما يخيف ؛ ولكنما خاف من يَظْلِم ...

وابراهيم لا يلوم الانكليز على افعالهم التي تؤول الى تأمين مصلحتهم ما داموا اقوياء ، فالقوي لا ينحني إلا امام القوة . ولكنه يلوم العرب الذين يخدعون انفسهم حينما يظنون ان الضعيف يستطيع ان ينال من القوى حقاً من طريق المسالمة و « السياسة » . قال في عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ :

نبِّئوني عن القويِّ ، متى كا ن رحيماً ؟ هيهاتِ ، من عَزَّ تاها .

لا يلـــين القويُّ حـتى يـلاقي مثلـَهُ عزّةً وبطشاً وجـــاها .
ـ يا مَنْ تَعَلَّلَ بالسياســـة ظنّها لَطُفَتْ ولانَ عَصيُّها الجبّارُ ،
ما لطفُها ؟ ما الين ذاك ! وكلُّهم مُستعمرونَ وكله استعمار[1] .

اما الزعماء في فلسطين ، او المتصدون فيها للزعامة على الاصح ، فقد خصهم إبراهيم من شعره بكلمٍ قوارص . وكان شعره ، إذا ورّى ، أشد من شعره الصريح فيهم . اما موقف ابراهيم من الزعامة والزعماء فصريح في مقطوعته التي مطلعها (١٩٣٥) :

إن قلبي لبـــلادي لا لحزب او زعيم .

وكذلك كنا رأينا ابياتاً كثاراً في شعره السياسي الذي مر بنا تنال من الزعماء نيلاً شديداً ! على ان له قطعة بارعة يسوق انتقاده فيها للزعماء في تهكم مر . قال (١٩٣٥) :

ايها « المخلصون » للوطنيهْ ، انتمُ الحاملونَ عبءَ القضيهْ .
انتم العاملون (من غير قولٍ) ، باركَ اللهُ في الزنود القـويه .
و (بيانٌ) منكم يُعادلُ جيشاً بمُعدّاتِ زحفـــه الحربيه .
و (اجتماعٌ) منـكم يَرُدُّ علينا غابرَ المجد من فُتوح أُمَيَّه .
وخلاصُ البلاد صار على البا بِ ؛ وجاءت أعيادُه الورْديه .
ماجَحَدْنا (أفضالَكم) ؛ غيرَ أنّا لم نزَلْ في نفوسنا أُمنيّه :
في يدَيْنا بقيّةٌ من بلادٍ ، فاستريحوا كيلا تطير البقيه !

هؤلاء « الزعماء المخلصون » هم في الحقيقة « السماسرة » : « يدعون الحرص على البلاد علناً » وعملهم « بيع البلاد » للمستعمر ولليهود سراً . ومع ذلك فانهم يُدْعَون زعماء وحُماةً . قال ابراهيم فيهم (شباط ١٩٣٥) :

أما سماسرةُ البلاد فعُصْبَةٌ عارٌ على اهل البلادِ بقاؤها .
إبليسُ أعلنَ صاغراً إفلاسَـــه لما تحقّق عنـدهُ إغراؤها .

---

(١) في مجموعة الشعر « المشرد » لابي سلمى عبدالكريم الكرمي بيت يشبه هذا البيت (ص ١٠٣) :
لا تذكروا حق الضعيف فكلكم مستعمرون وكلـــه استعمار

يتنعّمون مُكرّمين كأنما لنعيمهمْ عمّ البلادَ شفاؤها .
هم أهلُ نجْدتها، وإنْ أنكرْتهمْ وهمُ ـ وأنفكَ صاغرٌ ـ زعماؤها ؛
وحُماتُها ، وبهمْ يَتمُّ خرابُها ، وعلى يدَيْهمْ بيعُها وشراؤها !

من اجل ذلك لا اظنك تعجب اذا قلت لك ان ابراهيم كان جازعاً من المصير الذي كان ينتظر عرب فلسطين ، وان ما حدث عام ١٩٤٨ كان ابراهيم يراه بوضوح قبل خمسة عشر عاماً وقبل عشرين عاماً . قال (١٩٣٥) :

أمامَك ، أيها العربيُّ ، يومٌ تشيبُ لهَوْلِه سودُ النواصي[١] .
وأنت ـ كما عهدتُك ـ لا تبالي بغير مظاهر العَبَث الرخاص .
مصيرُك بات يلمَسُه الأداني ، وسار حديثه بين الأقاصي :
فلا رَحْبُ القصورِ غداً بباقٍ لساكنها ولا ضيقُ الخصاص[٢] .

والغريب ان اهل لبنان كانوا يغبطون اهل فلسطين على الاثمان المرتفعة التي كان يدفعها اليهود في شراء الاراضي العربية وعلى الترف الذي غرق فيه الفلسطينيون بضع سنوات . وكان ابراهيم يدرك ان هذا المال الذي كان اليهود يدفعونه ثمن الاراضي العربية كانوا يستردونه من العرب ثمن لهو وفسق او ثمن اسباب ترف لا قيمة لها . قال ابراهيم (نابلس ١٩٣٥)[٣] :

يقولون في بيروتَ : انتم بنعمةٍ تبيعونَهم تُرْباً فيُعطونكم تِبرا .
شقيقتَنا مهلاً ، متى كان نعمةً هلاكُ ألوف الناسِ في واحدٍ أثرى ؟
وباذلُ هذا المال ، يعلَمُ أنه يُسلِّمُ باليُمنى إلى يده اليسرى ...
على أنها أوطاننا ... ما كنوزُهم وأموالهُم ، حتى تُساوى بها قَدْرا .
ولو كان قومي أهل بأسٍ ونخوةٍ إذن أصبحتْ للطامعين بها قبرا .
ولكنهم قد آثروا السَّهْل مركباً تسيِّرُه الأهواء ، واجتنبوا الوعرا .

---

(١) الناصية : الشعر في مقدمة الرأس . وهو اخر ما يشيب .
(٢) الخصاص بكسر الخاء جمع خص بضم الخاء : البيت من قصب او البيت المسقوف بخشب .
(٣) جريدة صوت الاحرار ، بيروت ، يوم السبت ٢٠ نيسان ١٩٣٥ .

وما حسرتي إلا على مُتعفّفٍ يقومُ «لوجه الله!» بالنهضة الكبرى .

ان هذا المعنى الواضح المجمل كان قد جاء عند ابراهيم في قصيده تامة تتألف من ثلاث مقاطع نظمها في اوائل ايار ١٩٣٣ او اواخر نيسان على الاقل [١] . في هذه القصيدة يبسط الشاعر رأيه في الزعماء وفي الصحافة بسطاً وافياً .

إخوانَنا أهلَ الوفاءِ ، أهل المودَّة والولاءِ ،
من كلِّ قُطرٍ بالعُرو بة ذي أزدهارٍ وازدهاءِ ؛
أحبابَنا ، لا تُخدَعوا عنا بظاهرة الثراء .
ليستْ فلسطين الرَّخيَّةُ غيرَ مهدٍ للشقاء .
عُرِضتْ لكم خلف الزُّجا جِ تميسُ في حِلل البهاء !
هيهاتِ ذلك ، إن في بيْع الثرى بيْعَ الثراء [٢] .
فيه الرحيلُ عن الربو عِ غداً الى وادي الفناء .
فاليومَ أمْرحُ كاسياً ، وغداً سأنْبَذُ بالعَراء .
وأضعْتُ صادقةَ الرجا ءِ فأين كاذبةُ الرجاء ؟
من ذا ألومُ سوى بني وطني على هذا البلاء !

*

للحقِّ سطرٌ في صحا فتِنا ، وللتضليل نَهْرُ [٣] .
قلِّبْ صحائفها يُطِلَّ م عليك بُهتان وهُجْر [٤] .
للخاملينَ نَباهةٌ فيها وللأغمار ذِكر [٥] .
هذا يقال له الزعيـ مُ كما يقال لذاك حُرُّ .
وهناك سمسارُ البلا د فإنه الشهمُ الأغرُّ .
فالمدحُ ، مثل القدح ، تضْـ ـمَنُهُ لهم خضْرٌ وحمْر [٦] .

(١) نابلس ١٤ ايار شهر الورد ١٩٣٣ . والقصيدة نشرت كاملة في مجلة المعرض (بيروت) عام ١٩٣٤ .
(٢) بيع الارض خسارة للثروة الحقيقية .
(٣) النهر هو العمود او الحقل الكامل في الجريدة يتألف عادة من نحو ثمانين سطراً . الصحافة تكتب في الباطل اضعاف ما تكتب في الحق .
(٤) البهتان . الافتراء على الابرياء . الهجر . الكلام القبيح .
(٥) الغمر ، القليل التجارب . ذكر ، شهرة .
(٦) الخضرة والحمرة من الوان العملة الفلسطينية ، مال .

تلك الصحافةُ « كيميا ءٌ » لها يخلُق الله سرُّ .
تدَعُ الكرامة وهي هَزْ لٌ والمروءة وهي سُخْرُ[1] .
أين الصحافيُّ الصريـ ـحُ تراه يُعلنُ ما يُسرُّ !
صُلْبٌ فلا قُربى تميـ ـلُ به ولا مـــالٌ يغرُّ .

*

منذُ احتلالِ الانكليزِ[2] ونحنُ نبحثُ في السياسه* .
شأنُ الضميرِ معَ السيا سةِ كالرقيق مع النخاسهْ .
مرّتْ علينا ستَّ عشـ ـرَةَ كنَّ مجلبةَ التعاسهْ .
فإلى متى ، يا ابنَ البلا دِ ، وأنتَ تؤخذُ بالحماسهْ ؟
وإلى متى (زعماءُ) قو مك يخلبونك بالكياسه[3] ؟
ولكم أحَطنا خائنـــاً منهُمْ بهالات القداسهْ .
ولكم أضاعَ حقوقنا الر جل الموكّلُ بالحراسهْ .
والله ، ليس هناك إلا كُلُّ قنّاصِ الرئاسهْ ،
تأتيه من بيـــع البلا دِ وما إليه من الخساسهْ[4] .
واذا اتقـــاكَ فبالجرا ئد ؛ والنجاسةُ للنجاسهْ .

---

(١) تدع ، تجعل .
(٢) في رسالتي وفي الدفتر ١٩٣٢ الاول ، ص ٢٠ : الانكليز . في ديوان ابراهيم : الغاصبين .
(٣) خلبه : سلبه عقله ، غشه ، خدعه . الكياسة : التظاهر بالتعقل والسلوك الحسن .
(٤) تأتيه الرئاسة ... وما اليه : ما يشبه بيع البلاد كالخيانة والتجسس والرشوة ... الخ .
* الابيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ تأتي (في الدفتر ١٩٣٢ الاول، ص ٢٠) مقطوعة مستقلةمع تقديم ٣ على ٢ .

المجاهدون الاولون

وبينما كان عدد عظيم من المُترفين والوجهاء والمتزعّمين في فلسطين لا يحلّون من احترام ابراهيم ـ ولا من احترامنا نحن ـ مكاناً ، كان ثمت نفر كثار من العامة يأتون ضروباً من البطولة لم يحدثنا عنها التاريخ إلا في باب الخرافات في الغرب او في باب انتشار الدعوة الاسلامية والفتوح العربية الاولى . من هذه الآثار النبيلة الجميلة خبر تلك العجوز التي جاءوا اليها يوماً بابنها مقتولاً بينما كان يحارب اليهود . فلما وصلوا به الى قرب بيتها ورأته كان اولَ ما سألت عن بندقيتُه. فقالوا لها : ان اهتمامنا بنقله شغلنا عن بندقيته.فقالت لهم : قد يكون قتل غير مجاهد ، او قد يكون قتل وهو هارب او قد يكون غفل عن سلاحه ، فانه لن يكون حينئذ ابني ولا ادخله بيتي . فوضعوا ابنها ارضاً ثم عادوا الى المكان الذي كان فيه القتال ورجعوا ببندقيته وبمن شهد امام الام بأن ابنها قتل مجاهداً ، ومقبلاً غير هارب . قالت : هو الآن ابني ، ثم ادخلته الى البيت وهي تزغرد حوله هي واخواته وجيرانها .

كذلك كان يفعل العامة والقرويون بينما كان معظم وجهاء المدن يتنازعون على المناصب البلدية ثم يدوسون في سبيل الوصول اليها كرامة بلادهم ومستقبل احفادهم وابنائهم أو مستقبلهم هم انفسهم .

ومن هذا الباب ، الذي يشبه ان يكون اسطورياً ، بطولة محمد جمجوم :

في صيف عام ١٩٢٩ قام اليهود بفتن وبمحاولة للاعتداء على الحرم الشريف في القدس غير مكتفين بالصلاة الهادئة عند البراق [١] . هذا الاستفزاز اليهودي أدّى الى حدوث

(١) الجدار الغربي من الحرم الشريف .

اضطرابات في القدس والخليل ويافا وصفد قتل في اثنائها نحو مائة وخمسين يهودياً وجرح بضع مائة ـ اكثر مما سقط من اليهود في « نزهة الحرب » التي قامت بهـــا الدول العربية رسمياً عام ١٩٤٨ .

ورأى البريطانيون ان يحملوا الذنب كله على العرب ـ كعادتهم طوال مدة انتدابهم على فلسطين ـ فقبضوا على عدد من الشبان العرب ثم حكموا على ثلاثة منهم بالاعدام هم عطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل وفؤاد حجازي من صفد.وقد رُتِّبَ تنفيذ الاعدام بهؤلاء في ثلاث ساعات متوالية من يوم ١٧ حزيران ١٩٣٠ [٢] على ان يكون اولهم فؤاد حجازي وثانيَهم عطا الزير وثالثَهم محمد جمجوم . ولكن محمد جمجوم حطم قيـده وزاحم رفيقه على دوره حتى شنق ثانياً .

ولقد اوحت بطولة محمد جمجوم الى ابراهيم طوقان مشهداً رائعاً سماه « الثلاثـاء الحمراء » ، لأن شنق اولئك الابطال الثلاثة كان في يوم ثلاثاء .

من هذا المشهد مقطع في وصف يوم « الثلاثاء الحمراء » يقارنه الشاعر بايـام المظالم التي مرت في تاريخ الانسانية :

يومٌ أطلَّ على العصورِ الخاليهْ ... ودعا : « أمَرَّ على الورى أمثاليهْ ؟»
فأجابهُ يومٌ : « أجلْ ، أنا راويه ... لمحـــاكم التفتيش تلك الباغيه .
ولقد شهدتُ عجائبا ... وغرائبا ،
لكنّ فيـك مصائبا ... ونوائبا
لم ألْقَ أشباهاً لها في جَورها . ... فاسألْ سوايَ وكم بها من مُنْكَرِ !»

• •

وإذا بيـــوم راسفٍ بقيودِه ... فأجابَ ، والتاريخُ بعضُ شهوده :
« أُنظُرْ الى بيضِ الرقيقِ وسوده ... من شاءَ كانوا مُلْكَهُ بنقوده .
بشرٌ يُباع ويُشترى ... فتحررا
ومشى الزمانُ القهقرى ... فيما أرى ...

(١) الكلية ، نيسان ١٩٤٦ ، ص ١٤ .

فسمعتُ من منع الرقيق وبيعه* نادى على الأحرار : يامنْ يشتري!»

اما الساعة التي شنق فيها محمد جمجوم فقد انطقها الشاعر بالمقطع التالي :

أنا ساعةُ الرجلِ العتيدِ ، أنا ساعةُ البأسِ الشديدِ .
أنا ساعةُ الموتِ المشرِّ فِ كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ .
بَطَلي يحطِّمُ قيدَهُ رمزاً لتحطيمِ القيودِ .
زاحمتُ مَنْ قَبْلي لأسْ بِقَها الى شرف الخلودِ .
وقدَحْتُ في مُهَجِ الشبا بِ شرارةَ العزمِ الوطيدِ .
هيهاتِ يُخْدَعُ بالوعو دِ وأن يُخَدَّرَ بالعهودِ .
قسماً بروحِ « مُحمَّدٍ » : تلقى الرّدى حُلْوَ الوُرودِ[1] .
قسماً بأمِّكَ عندَ مَوْ تِكَ وهي تهْتفُ بالنشيدِ .
ما نالَ مَنْ خَدَمَ البلا دَ أجَلَّ من أجْرِ الشهيدِ !

الفدائي :

نورمان بنتويش يهودي الجنس بريطاني الجنسية كان قاضياً للقضاة في فلسطين والمسؤول عن التشريع في فلسطين . وقد أمعن في النكاية بالعرب وكان مسؤولاً عن عدد من القوانين الاستبدادية الجائرة التي اضرّت بالعرب . ولقد كان يهدف الى تحقيق الوطن القومي اليهودي من طريق اضعاف الكيان العربي . وقد حاول احد الشبان العرب ان يغتاله فتخفى له عند مدخل دار الحكومة ثم اطلق عليه النار فاصابه بجرح ولكن لم يقتله .

ولابراهيم في هذا الشاب الذي تعرض للمهالك في سبيل اغتيال بنتويش قصيدة أشبه بالموشح اسمها « الفدائي » ، قال فيها الشاعر بشارة الخوري[1] : « أتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى إلى حرياتها ، ثم اتعرف[2] شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً ونـاراً ؟ تعرّف اليها اذن :

* الانكليز يدعون انهم ابطلوا تجارة الرقيق .
(١) الورود مصدر ورد يرد : المجيء الى النهر لشرب الماء ، الوصول .
(٢) البرق ٩ حزيران ١٩٣٠ .
(٣) كذا في الاصل : ثم اتعرف ...

- ١ -

لا تَسَلْ عن سلامتِهْ ، روحُه فوق راحتِهْ !
بَدَّلَتْهُ همومُهُ كَفَناً من وسادتِه .
يرْقُبُ الساعةَ التي بعدَها هَوْلُ ساعته ،
شاغلٌ فكرَ من يرا هُ بإطراقِ هامتِه .
بينَ جَنْبَيْهِ خافقٌ[1] يتَلَظَّى بغايتِه .
مَنْ رأى فحمةَ الدُّجى أُضْرِمَتْ من شرارته ؟
حمَّلَتْهُ جهنَّمٌ طَرَفاً من رسالته .

*

هُوَ بالبابِ واقفٌ والرَّدى منه خائفُ .
فاهدأي ، يا عواصفُ ، خجَلاً من جُراءتِهْ !

- ٢ -

صامتٌ لو تكلَّما لَفَظَ النارَ والدَّما .
قُلْ لمن عابَ صمتَهُ : خُلِقَ الحزمُ أبْكَما !
وأخو الحزمِ لم تزَلْ يَدُهُ تَسْبِقُ الفَما .
لا تلوموهُ ، قد رأى منهجَ الحقِّ مُظْلِما ؛
وبلاداً أحَبَّها رُكْنُها قد تهدَّما .
مرَّ حينٌ ، فكاد يقْ تُلُهُ اليأسُ ، إنما ...

*

هُوَ بالبابِ واقفٌ والرَّدى منه خائفُ .
فاهدأي ، يا عواصفُ ، خجَلاً من جُراءتِهْ .

ومن هذا النجر المتين الجميل الزاخر بالعاطفة والفياض بالاسى والانفة معاً قصيدته « الشهيد » التي نظمها لمناسبة الذكرى الرابعة (١٩٣٣) لشهداء « الثلاثاء الحمراء » . وهذه القصيدة ايضاً نوع من الموشح في مقطعين ، مطلعها :

(١) قلب .

عبسَ الخطْبُ فابتسمْ ، وطغى الهـولُ فاقتحمْ .

ومن اجمل ابياتها خمسة ابيات في مطلع المقطع الثاني هي :

ربمـا غالـهُ الرَّدى وَهْو في السجن مُرْتَهَنْ .
لم يَشيَّعْ بدمعـةٍ من حبيب ولا سكن[1] .
ربمـا أُدرجَ الـترا بَ سليباً من الكفن .
لستَ تدري[3] : بطاحُها غيَّبتْـه أم القُـنن .
لا تقُـلْ : أين جسْمُه وأسمُـه في فم الزمن !

(١) السكن : الزوجة .
(١) أدرج في التراب : وضع فيه ، دفن .
(٣) تدري (انت) .

أناشيد

ان رقة ابراهيم طوقان وعاطفته الجياشة المتأججة قد اوجبتا له ، منذ عهده الاول بنظم الشعر ، قدراً كبيراً من الاجادة في نظم الاناشيد الوطنية والحماسية . واول محاولة بارعة له في هذا الباب كان « نشيد عبدالكريم » نظمه في شتاء عام ١٩٢٤ ، يوم كانت مراكش الاسبانية تغلي بثورة على المستعمرين يقودها الامير عبدالكريم الخطّابي . ولم تستطع اسبانية وحدها ان تتغلب على ثورة الريف (المنطقة الاسبانية وهي جبلية) فاعانتها فرنسة على ذلك بعد ان امتدت الثورة الى حواشي الامبراطورية الافرنسية في شمالي افريقية . ولهذا النشيد قصة يحسن سردها بين يديه :

في احد ايام الشتاء من عام ١٩٢٤ اجتمع ابراهيم طوقان وعبدالرحيم قليلات ومحمد فليفل في مقهى الكارّيون او قهوة المرصد (ويسمى اليوم مقهى مسرح فاروق) ويقع هذا المقهى في غربي ساحة البرج من مدينة بيروت . كانت البلاد العربية تعصف يومذاك باخبار انتصارات العرب في شمالي افريقية على الجيوش الاسبانية والجيوش الفرنسية . وخطر لابراهيم في هذا الاجتماع الذي اشرنا اليه ان يضع نشيداً لهذه الثورة او يدوّن صدى هذه الحرب في نفوس العرب المتوثبة الى التحرر من النير الاجنبي في كل مكان ، فكان هذا النشيدُ الذي وضعه ابراهيم في تلك الجلسة التاريخية :

في ثنايا العَجاجْ والتحام السيوفْ
بينما الجوُّ داج والمنايا تطوف

يتهـــادى نسيمْ نحو عبد الكريمْ
حاملاً أزكى تحايا المشْرقِ

•

كلُّنا يُعْجَبُ بفَـــتى المَغْربِ
كلُّنا يطْربُ لانتصـــار الأبي
ها قُرومُ العِـدى أصبحوا أعْبُـــدا
سحقَتْهُمْ ساحقاتُ الفيلقِ

•

طالما اُستَعْبَـــدوا وأذلـوا الرِّقـابْ
أيهـــا الأيِّـــدُ جاء وقتُ الحساب
فلْيذوقوا الزُّعافْ ولْنُعَـلِّ الهُتـافْ
لفتى الحرب ورب البيرق

واستطاع الشاب محمد فليفل (الاستاذ محمد فليفل اليوم) ان يضـع لحناً قوياً يليق بهذا النشيد العاصف في تلك الجلسة التاريخية نفسها. ولم يكن هذا النشيد باكورة انـاشيد ابراهيم طوقان، بل كان باكورة شعره الجيد كله.

على ان قصة هذا النشيد لم تنته.

في ذلك الحين ارادت الحكومـــة اللبنانية ان يكون لدولة لبنان الكبير نشيد رسمي فاعلنت عن مسابقة لوضع هذا النشيد. فتبـارى في هذا المضمار بضعة نفر منهم رشيد نخلة وبشارة الخوري وشبلي ملاط وحليم دموس. وكان «نشيد المغرب» يومذاك مـلءَ الافواه والاسماع فجرى المتبارون كلهم مجرى واحداً في بحر هذا النشيد فكانت المطالع كما يلي:

قال رشيد نخلة: كلنا للوطن.

وقال بشارة الخوري: يا تراب الوطن.

وقال شبلي ملاط: هللي يا بلاد.

وقال حليم دموس:

ولقد فاز النشيد الذي نظمه رشيد نخلة (عام ١٩٢٦) ، فاصبح منذ ذلك الحين النشيد الوطني اللبناني [١] .

اما لحن النشيد الوطني اللبناني فقد وضعه وديع صبرا (ت١٩٥١) مدير الكونسرفاتوار (معهد الموسيقى) يومذاك ، ولكن طبعه على لحن « نشيد عبدالكريم » .

ولابراهيم طوقان نشيد آخر للمغرب نظمه عام ١٩٣٠. واغلب الظن انه نظمه استجابة لطلب نفر من شبان مراكش الاسبانية كانوا يومذاك يتلقون العلم في مدرسة النجاح بنابلس (كلية النجاح الوطنية) . ومطلع هذا النشيد :

فتيةَ المغربِ هيا للجهادْ نحنُ أولى الناسِ بالأندلسِ
نحن أبطالُ فتاها ابن زيادْ [٢] ولها نرخصُ غالي الأنفس .

على ان اشهر اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « موطني » [٣] الذي لا يزال الى اليوم ينشد في معظم الاقطار العربية .

موطني الجلالُ والجمالُ والسنـاء والبهاء في رُباكْ
والحياةُ والنجاةْ والهنـاء والرجاءْ في هواكْ
هل أراكْ
سالماً منعَّماً وغانماً مُكرَّما
هل أراكْ في عُلاكْ
تبلُغُ السِّماكْ
موطني

●

(١) صدر من مجلة « المكشوف » (بيروت) عدد خاص عن رشيد نخلة (ت ١٩٣٩) ليس فيه شيء من هذه الملابسات (العدد ٢٤١ من السنة السادسة – بيروت ١٨ آذار ١٩٤٠) .

(٢) طارق بن زياد فاتح الاندلس في ايام الوليد بن عبدالملك .

(٣) في الدفتر ١٩٢٤ ، ص ٢١ : نشيد موطني ، على لحن فلنسيا (Valencia) بتصرف .

موطني الشبابُ لن يَكِلَّ همُّهُ أن تستقلَّ أو يَبيدْ
نستَقي من الرَّدى ولنْ نكون للعِدى كالعبيدْ
لا نُريدْ
ذُلَّنا المؤبَّدا وعيْشَنا المنكَّدا
لا نُريدْ بل نُعيدْ
مجْدَنا التليدْ
موطني

●

موطني الحُسامُ والِيراعْ لا الكلامُ والنزاعْ رمزُنا
مجْدُنا وعهدُنا وواجبٌ الى الوفا يهزُّنا
عِزُّنا
غايةٌ تُشرِّفُ ورايةٌ تُرفرفُ
يا هَناكْ في عُلاكْ
قاهِراً عِداكْ
موطني

وهذا النشيد ايضاً من تلحين الاخوين محمد واحمد فليفل .

وبعد سبع سنوات حاول الاخطل الصغير (بشارة الخوري) ان يضع نشيداً جديداً للبنان فعاد الى ابراهيم طوقان يغرف من بحره ويأخذ البحر والمعنى والالفاظ والقوافي والتوشيح . وظفر الاستاذ عبد المشنوق ، وكان يكتب زاوية « نكرزات » في جريدة بيروت بأمضاء « عصبي » ، فكتب القطعة اللاذعة التالية بعنوان توارد خواطر عجيب ! قال[1] :

« ولعل اجمل ما عثر عليه من توارد في خواطر الادباء هذا الشبه العجيب بين نشيد لبنان الجديد الذي نظمه شاعر العرب الاكبر الاستاذ بشارة الخوري وهنأه عليه وزير التربية وبين نشيد « موطني » لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان .

---

(١) جريدة بيروت (بيروت) العدد ١١٨ ، ١٤ و ١٥ شباط ١٩٣٧ .

قال الاخطل الصغير :

لبنان ، لبنان الخ . . .
الجمال رصعا بازاهير رباك
والجمال توجا بمصابيح هداك
والسراع والحسام في الملمات الجسام
كل آن كل آن

« اما مقطع « كل آن كل آن » ففيه توارد خواطر غريب بين الاخطل وبين الاستاذ عمر فروخ الذي يقول في قصيدة « سفينة الحيوانات »[1] على لسان الدجاجة :

نعطي البيضَ للانسان كلَّ آنْ كلَّ آنْ

* * *

« أنا أربأ بشاعر العرب الاكبر ان يلتجىء الى امثال هذه السرقات ! واعتقد ان القضية توارد خواطر بسيط » .

انتهى كلام عبدالله المشنوق .

•

ان هذا كلّه يدل على التأثير البالغ الذي تركته اناشيد ابراهيم طوقان في نفوس الشبان وفي نفوس الادباء على السواء. ان بشارة الخوري كان صديقاً لابراهيم طوقان معجباً به ، وقد نشر له بضع قصائد وطنية وغزلة في جريدة « البرق » وقرظها احسن تقريظ . لقد قدم بشارة الخوري قصيدة « الفدائي » بقوله[2] : « اتعرف شيئاً عن الشاعرية المتوثبة التي تجيش بها النفوس الظمأى الى حرياتها ، ثم اتعرف شيئاً عن البلاغة تطلقها الشفاه الملتهبة دماً وناراً ؟؟ تعرّف اليها اذن . . .

---

(١) راجع « سفينة الحيوانات » مشهد تمثيلي غنائي للاطفال نظم عمر فروخ (بيروت ، مطبعة الكشاف ١٩٣٢) .

(٢) البرق (بيروت) ٩ حزيران ١٩٣٠ راجع ايضاً ص ١١٩ .

ومن اناشيد ابراهيم طوقان نشيد « وطني » :

وطني ، انت لي والحصم راغم . وطـــني ، انت كل المـــنى .

ونظم ابراهيم هذا النشيد ليغني على لحن نشيد انكليزي من اناشيد الجامعة الاميركية [1].

وهنالك نشيد رقيق نظمه ابراهيم في وداع صديقه سعيد تقي الدين لمـــا سافر سعيد تقي الدين الى الفيليبين في كانون الثاني من عام ١٩٢٦ . ولقد غنى هذا النشيد احمد افندي التنير (ت ١٩٥٢) ، وسجلـه على اسطوانة كانت تدار في مناسبات مختلفة لان هذ النشيد قطعة وجدانية عامة :

لا تقلْ لله لبنانُ الأشمّ
لا تقل أشتاقُ ألحان الحِضمّ
عش كما أهواك مكفوفاً أصمّ
يا فؤادي، واسلُ أيامَ الهوى.

هل رأيت الروض أيام الخريفْ
ذابل الأزهار مسلوب الحفيف
متواري الحسن في الغيم الكثيف
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !

هل رأيت الطير في الروض يدورْ
هائماً يبحث عن عهد السرور
مرغماً ينساق والريح تثور
يا فؤادي ، أين أيام الهوى !

لا تسلني، يا فؤادي، عن هناءْ .
لك في الروض وفي الطير عزاء
إنما العمر نعيم وشقاء
يا فؤادي ، وهنا ضلّ الهوى !

(1) 'Twas Friday morn' when we set sail.

راجع نابلس ١ تشرين الاول ١٩٢٩ .

الموضوعيات

جميع قصائد ابراهيم طوقان « موضوعات » حتى ما كان منها في الغزل او في السياسة والوطنية . إنما افردتُ الغزل في فصل ثم السياسة والوطنية في فصل لكثرة هذا النوع من القصائد وجودتها وشهرتها .

ولابراهيم سوى هذه من القصائد عشر قصائد في الرثاء ، ثم قصيدة تشبه ان تكون مديحاً ، هي التي ألقاها في استقبال شوقي يوم جاء شوقي الى فلسطين عام ١٩٢٨ . ثم هنالك قصيدة في آل عبد الهادي تعد في باب المديح الخالص . على أن له قصائد هي موضوعات مقصورةٌ أبياتها على معانيها ، فيها وصف وتحليل أبرعها ملائكة الرحمة والحبشي الذبيح والشاعر المعلم .

كان ابراهيم يكره القول في المديح والرثاء ويحمل على مُعانيهما (من المعاصرين لنا) حملات شداداً [١] .

— ١ —

على ان ابراهيم اضطر إلى ان يقول رثاءً كثيراً ومديحاً ايضاً . قال في الرثاء في اشخاص أعجِبَ بأدبهم او عظمتهم او وطنيتهم . ثم قال ايضاً في اشخاص لصلة سياسية لا اهله بهم واعتذر عن قوله تصريحاً أو تلميحاً . وشعر ابراهيم في الرثاء موضوعات تنطوي على نظرات وطنية وتأملات في الحياة . وهكذا إذا كنا لا نُعجَبْ بطبائع نفر من الذين رثاهم فاننا نُعجبُ

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

بالشعر الذي رثاهم به . وكان ابراهيم ينحو في ذلك نحو شوقي فيتخذ الرثاء وسيلة الى الاستطراد الى موضوعات سياسية او وطنية او اجتماعية .

ولابراهيم في آل هاشم عدد من المراثي الجياد ، في الحسين وفيصل خاصة . ولكن يجب علينا ـ انصافاً لعبقرية ابراهيم ـ ان نقول ان ابراهيم كان يكرم في اشعاره الغاية الكبرى التي يتمثلها العرب في آل الحسين او ان اعجابه بهم كان اعجاباً باعمالهم التي كانت في سبيل العرب . اما حينما كان الواقع يصطدم بالخيال العربي فكان ابراهيم يميل عن آل الحسين الى اعتبار الواقع المرير الذي نحن فيه . كتب الي يقول [1] :

« لا ادري ، يا عمر ، شاعريتي قاحلة ولا استطيع ان انظم شيئاً ذا بال في هذه الايام . بل قل منذ ستة اشهر لم انظم ما يستحق النشر . حاولت ان ارثي الملك حسيناً [2] فبدأت هكذا :

كان الوفاء فضيلة في الناس حتى تعهده ضمير سياسي [3] .
فغدا مُريباً لا يُصدَّقُ عهدَه أحدٌ على شَفَةٍ ولا قرطاس .

والبيتان طيبان جداً كما ترى . ولكن لما تقدمت في التفكير لم اجد مناصاً من مس » الاسر الحاكمة في الشرق . وهكذا اضرب ابراهيم عن القول مرة واحدة .

اما اذا اردت ان تعرف موقف إبراهيم بين المبادىء والاشخاص فاقرأ هذا المقطع من احدى رسائله [4] وسأترك بعض تعابيره على ما هي ، لأن ذلك ادل على روح ابراهيم :

« حضر الملك فيصل الى القدس . واحتفلت بمقدمه البلاد . شاطرين يا اخي . . . النكتة ان المندوب السامي دعاه مع امين الحسيني وكاظم باشا على حفلة عشاء . ورفع المندوب كأسه (فيها خمر او كازوز او ماء ـ مش مهم ـ ولكن رفع الكاس) وقال نشرب نخب

---

(١) رام الله ، تموز ١٩٣١ .

(٢) توفي الملك حسين بن علي في قبرص ١٩٢٨ . والواضح ان ابراهيم كان يريد ان يقول شيئاً في ذكراه ليتطرق الى موضوع سياسي وطني جرياً على عادته .

(٣) يشير ابراهيم بلا ريب الى السياسة الانكليزية .

(٤) القدس ٢٢ ايلول ١٩٣٢ .

أللملك . فرفع الحاج امين كأسه وكذلك المسلم الجليـــل موسى كاظم رفع كأسه وشربوا النخب . ونسأل اي ملك عـــنى المندوب . . . ونسأل عن موضع النخب في دعوة ملك مسلم عربي » .

وابراهيم يقول صراحة [1] ان اقواله في بني هاشم شعرية اكثر منها تاريخية . ثم هي - كما سبق لي ان قلت - تمثل المبدأ الذي حمله آل الحسين . لما توفي الملك علي نظم ابراهيم سبع ابيات « تعزية مرفوعة الى مقام البيت الهاشمي » [2] ،

بني هاشم ، بين المنايا وبينكم تِرات ، وما تغفو المنايا عن الوتر [3] .

وفي احدى رسائله ابدى إبراهيم إعجابه البالغ بالملـك عبدالله وبما يتحلى به من ذوق ادبي ، قال [4] :

« منذ ايام حملت كتاب الزهرة [5] تحت ابطي وطلعنـــا ، انا واخي احمد وابراهيم باشا هاشم (رئيس الوزارة) الى مقر سمو الامير عبدالله . فقابلنا بالترحاب و « لم ينس الشاعر الذي حركه الى البكاء بقصيدة فيصل . . . [6] » فقدمت اليه الكتاب وحدثته عنـــه ببعض الحديث وحدثته عن الكعكبان [7] . فأخذ يقلب صفحاته ويقف هنـا وهناك يعجب بالشعر الجاهلي وحسنه ويرجع ويقول : يا جماعة ، واين قول العباسيين من قول الجاهلية ، انظر ، انظر « ولكن ام اوفى لا تبالي » [8] . يقرأ ذلك بلهجة حجازية ساحرة ويقـارن بين

---

(١) نابلس ٩ تشرين الثاني ١٩٣٣ .

(٢) نابلس ١٩ الشهر الملعون ١٩٣٥ - يقصد بالشهر الملعون شباط ، يـــدل على ذلك شيئان في الرسالة احدهما كلامه على الامطار الغزيرة في نابلس او طوفان الامطار في نابلس ؛ وثانيها انه يسألني عن بدء موعد عطلة الربيع ويتكلم عن عيد الاضحى الذي سيقـــع بعد مدة . فاذا كان عيد الاضحى سنة ١٣٥٤ قد وضع في نحو ١٥ اذار ١٩٣٥ فلا ريب في ان هذه الرسالة كتبت في شباط .

(٣) ترات جمع ترة : ظلم ، ثأر .

(٤) عمان ٤ شباط ١٩٣٦ .

(٥) كتاب الزهرة مجموع شعره اخرجه المستشرق الدكتور نيكل وابراهيم طوقان (بيروت ١٩٣٢) .

(٦) رثاء فيصل ، راجع هذه القصيدة في هذا الفصل .

(٧) الكعكبان لقب اطلقه ابراهيم على الدكتور نيكل لأن الدكتور نيكل لفظ ذات يوم كلمة فقال ، كعكبان .

(٨) الشطر لزهير بن ابي سلمى : لقد باليت مظعن ام أوفى ولكن ام أوفى لا تبالي .
مظعن ، ذهاب . ام أوفى ، امرأة زهير . وكان زهير قد طلق ام أوفى ففارقته ثم ندم هو على فراقها .

هذا الشعر وبين آخر من معناه ويطنب بالثناء على زهير . . . [1] ثم دعانا الى العشاء وتقدمنا الى المائدة فجلسنا فكان حديث المائدة اشهى من الطعام . . . وعدنا فأعدنا السهرة ومعنا فؤاد باشا الخطيب [2] . الامير محدّث خلاّب الحديث ، واضح التفكير ، قوي الحجة » .

هذه المقدمة تضعنا في الجو الذي يساعدنا على فهم قصائد ابراهيم في آل هاشم : « ادب جم وذوق ادبي ومثل اعلى متصل الحلقات توارثوا حمله أباً عن أب » ، مع غمزات يسيرة تدور حول الثقة بالانكليز فوق ما تقتضي السياسة او تبرر المصلحة او تقضي الحكمة . وهذا شيء يبالغ فيه ابراهيم فيجعله عاماً في العرب كلهم حين يقول [3] : «العرب طول عمرهم . . قصيرو النظر . منذ خروج امرىء القيس للاستعانة بالروم على بني اسد » [4] .

وسآخذ ، في ما يلي ، مقطوعة في رثاء الحسين بن علي ، ملك الحجاز ، ثم القصيدة التي رثى فيها ابراهيم فيصلاً الاول (ابن الحسين بن علي) ، فاقرأهما وانت تتذكر جميع ما مر بك من الملاحظات . قال يلتمس عذراً للملك حسين ويأسى لمصيره :

رحمـــة الله عليه ، إنـه غالـهُ اليأسُ وكان الأملا .
ويح قوم خـذلوه بعدما أخذوا الميثاق ألا يَخْذُلا [5]
شيمةُ الغـدر بمن ينصُرهم ذهبت ، با أبن علي ، مثلا .

. . .

---

(١) النقاط الموجودة في هذه النص موجودة في الاصل .

(٢) فؤاد الخطيب شاعر اديب عالم سياسي محدث حسن الحديث . وينحو في شعره منحى القدماء ولـه ديباجة جميلة واسلوب متين .

(٣) القدس ، ٢ اب ١٩٣٢ .

(٤) لما ثار بنو اسد على أسرة امرىء القيس الكندي وقتل حجر ، والد امرىء القيس ، في المعركة اراد ان يثأر امرؤ القيس لابيه فذهب الى القسطنطينيه يستنجد بملك الروم على قومه العرب . وقد شعر امرؤ القيس نفسه بفداحة هذه الخيانة فقال يبرر نفسه تبريراً جاهلاً .

ولو شاء كان الغزو من ارض حمير ولكنه عمـداً إلى الروم أنفـرا .

(٥) قوم ، يقصد الانكليز . اخذوا الميثاق ألا يخذلا ، إشارة الى مفاوضات الملك حسين مـع السير هنري مكماهون في اثناء الحرب العالمية الاولى للثورة على العثمانيـين مقابل استقلال العرب تحت زعامـة البيت الهاشمي .

آل بيت المصطفى، لم تبرحوا ... تردون الموت في ظل العُلى[٦] .

كادت الكأس التي في قبرس ... تشبه الكأس التي في كربلا[٧] .

اما أعظم قصائده في الرثاء فقصيدته في الملك فيصل :

كان الامير فيصل بن الحسين مَعْقِد آمال العرب، دافع عن حقهم في الاستقلال منذ مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٨ - ١٩١٩ ، وكان يطالب باستقلال جميع البلاد التي سلخت عن الامبراطورية العثمانية ولو اقتضى ان تكون تلك البلاد تحت الانتداب ، على ان يرسل المجلس الأعلى لعصبة الامم لجنة للاستفتاء يعلن العرب امامها رغباتهم . ولقد كان من نتائج ذلك ان جاءت لجنة كنج - كراين على ما هو مشهور . وكان فيصل كثير الاعتماد على الرئيس ويلسن ، رئيس الولايات المتحدة . غير ان انكلترة وفرنسة خلبتا ويلسن وفيصلاً معاً : خلبت الأول لأنه كان رجلاً مثالياً نظرياً ، وخلبت الثاني لأنه كان لا يزال قليل الاختبار السياسي، إذ لم يكن قد عانى بعد السياسة العالمية ، فكان موقفه من اجل ذلك الى جانب لويد جورج وكليمنصو شائلاً جداً . إن كل ما كان يعتمد عليه الامير فيصل كان وعداً شفوياً من اشخاص غير مسؤولين رسمياً ، لأن وعودهم هذه كانت مخالفة للمحادثات التي كانت جارية في مجلس عصبة الامم نفسه .

ورأى بعض أنصار فيصل الخداع يتجلى في عصبة الامم فاجتمعوا في دمشق في الحادي عشر من آذار ١٩٢٠ وأعلنوا سورية ملكية ونادوا بالأمير فيصل ملكاً عليها . ولكن في الخامس والعشرين من نيسان ، بعد شهر ونصف ، وقّع الحلفاء فيما بينهم معاهدة سان ريمو وأعطوا الجزء الشمالي من سورية الى فرنسة . وهكذا أصبح على الملك فيصل ان يثبت اركان عرشه بمقاومة فرنسة . وبعد اربعة اشهر من المقاومة في انحاء سورية اعلن الجنرال غورو - المفوض السامي لفرنسة في الشرق وقائد جيوشها فيه - في ٢٥ تموز ١٩٢٠ : « ان حكم الملك فيصل قد انتهى وانه قد طلب منه ان يغادر البلاد مع اسرته » . فعاد الملك

---

(١) اشارة الى ان الامويين والعباسيين كانوا يقتلون المطالبين بالخلافة من آل علي بن ابي طالب .

(٢) قبرس هو الإسم الفصيح لجزيرة قبرص . يشبه الشاعر موت الحسين بن علي (ملك الحجاز) منفياً في قبرس بمقتل الحسين بن علي (بن ابي طالب) في معركة كربلاء .

فيصل الى سويسرة [1] ليبسط شكواه الى اعدائه المتظاهرين بصداقته . وعرضت انكلترة على الملك فيصل عرش العراق فتسنم العرش في آب ١٩٢١ والعراق يومذاك تحت الانتداب البريطاني . وأخذت بريطانية تضيق ذرعاً بفيصل وبعزيمته التي ارادت ان تجعل من العراق دولة قوية فجعلت تثير له المشاكل وتبعث الثورة في العراق اثر الثورة . وكان فيصل في عام ١٩٣٣ في سويسرة يستشفي فتوفي هناك ليلـــة الثامن من شهر ايلول . وجيء بالجثمان الكريم من اوروبة ماراً بمرفأ حيفا في فلسطين إلى العراق . وكان وصول الجثمان الى بغداد في الخامس عشر من ايلول [2] .

في هذا العاصف العـاطفي الذي هب على العرب بعد موت الملك فيصل في اوروبة - ذلك الموت الذي حرم العرب مناضلاً في سبيلهم وأراح بريطانية من ملك في امبراطوريتها احب ان يرقى بامته رقياً صحيحاً - قال ابراهيم هذه الدرة الثمينة من الشعر الوطني النابض بالحياة والقوة والعاطفة :

وقد ألقى ابراهيم هذه القصيدة في الحفلة التي اقيمت لتأبين الملك فيصل في عمـان وحضرها الملك عبدالله . فلما انتهى ابراهيم من الالقاء قام اليه الملك عبدالله فقبله :

شيِّعي الليلَ وقومي أستقبلي ... طلعةَ الشمسِ وراء الكرملِ [3]
وأخشَعي ، يوشكُ أن يغشى الحمى ، ... يا فلسطينُ ، سنىً من فيصل [4] .
يا لها من ديمـــةٍ يَرْفعُها ... منكبُ الأفقِ لعينِ المجتلي [5] .
نشأتْ أمناً وظـلّا وهُدىً ... كهدى النجمِ لفُلْكٍ مقبل .
ما دنا حتى همى الدمعُ ، فهل ... «إيلياءُ» الغيثِ فوقَ الجبل ؟ [6]

*

(1) Ca qui se passa reéllement à Paris en 1918-19, Paris 1923.

(٢) تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ٣٩ ، ١٢٤ .

(٣) الكرمل جبل صغير مطل على حيفا ، يمتد منه رأس داخل في البحر .

(٤) السنى : ضوء البرق .

(٥) ديمة : سحابة ممطرة . منكب الارض : ما ارتفع منها . المجتلي : المتطلع .

(٦) ايلياء = ؟

ذلك الفلكُ الذي يَحْمِلهُ ، مثلَه منذ جرى لم يحْمِل [1] .
لو تعدَّى لُجَّةَ البحر به خاض في لجة دمعٍ مُسْبَل [2] ؛
وأنطوى العاصفُ والموجُ له فأكتسى البحرُ غضون الجدول [3] .
وإذا بالفُلك يجري بينهـا كمرور الطيف بين المقل ،
يُكْرِمُ الراقدَ يدْري أنـه يؤثر الراحة والقلبَ الخلي .
راقد ينْعَمُ في ضجعتِه خلّف الدنيا به في شُغُل .
أيقظَ اللوعةَ فيها والأسى ، وغفا بينهما لم يحْفِل .
يُطْبِق الأجفانَ عن جفنٍ طغى جامحَ الدمع ، وجفنٍ مُجْفِل [4] .
مطمئنُ القلبِ ما تُزْعِجُه زَفراتٌ كالغضا المشتعِل [5] .

*

ماالذي أعددتِ من طيب القِرى ، يا فلسطينُ ، لضيفٍ مُعْجَل [6] .
لا أرى ارضاً تُلاقيه بها ؛ قد أضاع الأرضَ بيعُ السَّفَل .
فاستُري وجهَكِ لا يلمَحْ على صفحتَيْهِ الحزيَ فوق الحجَل .

*

أكرمي ضيفَكِ إنْ أحبَبْتِهِ بأمانيه الكبار الحُفَّل [7] .
لا تقومي حولَهُ مُعولةً ؛ من جلال المُلْكِ ألاّ تعْولي !
وأسألي الباغين [8] ـ ماذا هالَهم منه في أكفانه ـ إن تسألي .
راعَهم حياً وميتاً فاتّقَوْا هِمَّةً جبارةً لم تُخذَل .

---

(١) الفلك المركب . ـ الفلك لم يحمل احداً قبل فيصل مثل فيصل .
(٢) اللجة : معظم الماء . مسبل : منهمر . ـ لو خرج المركب من ماء البحر الى البر لاستطاع ان يجري في بحر من الدموع .
(٣) غضون : ثنايا ، تموج .
(٤) فيصل مطبق اجفانه غافل (لأنه ميت) عن عيون كثيرة تبكي بدمع مدرار (من عظم الحزن) وعن عيون كثيرة لا دمع فيها لأنها مجفلة (مذعورة) لعظم المصيبة .
(٥) الغضا : نوع من الشجر شديد الاشتعال شديد الحرارة .
(٦) القرى : الضيافة ، المعجل : العجلان ، المار بالمكان مروراً .
(٧) الحفل : المملوءة . ـ اشارة الى الاعجاب بفيصل لما كان يمثله من اماني العرب .
(٨) الباغون : الطاغون ؛ يقصد الانكليز .

ورأوْا في كلِّ قلبٍ حولَهُ جذْوةَ العزمِ ونورَ الأمل .
بطَلٌ قد عاد من مَيْدانِهِ ظافراً ، يا مرْحَباً بالبطل .

*

فارسُ (الشقراء) يَجْلو باسمِها غمْرةً ليلتُها ما تنْجلي [١] ؟
صاحبُ التاجَيْن في موْكِبِهِ رايةُ المجدِ المنيعِ الأطول [٣] .
من رأى (نَسْرَ الملوكِ) المرتجى طار من عُقْبانه في جحْفل [٤] ؟
وسواءٌ في الأعاصيرِ مَضَوْا أم مضوْا في نفحاتِ الشَّمْأل [٥] .
كجنودِ اللهِ طارت خيلُهم يوم (بدر) في سماء القَسْطل [٦] .

*

من رأى ناراً على عاصفةٍ ؛ هكذا أنقضَّ غضوباً من عل [٧] .
هبطَ المعْقِلَ يخشى حَدَثاً ، ويمينُ اللهِ حِرْزُ المَعْقِل [٨] .

---

(١) الشقراء اسم فرس ، وهو هنا رمز . لما اراد الحسين إعلان الثورة لم يكن فيصل في الحجاز. فارسل اليه الحسين برقية رمزية يستدعيه بها فقال له: « ارسلوا الفرس الشقراء » اشارة الى وجوب رجوعه الى الحجاز. غمرة ليلتها ما تنجلي : مصائب يصعب ردها .

(٢) التاجان : تاج سورية وتاج العراق .

(٣) حول فيصل (النسر) جيش من مجاهدي العرب (العقبان) .

(٤) الشمأل : الريح الشمالية الباردة اللينة . — هؤلاء المجاهدون يتبعون فيصل في الشدائد وفي الرخاء .

(٥) بدر غزوة شهيرة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة ٢ هـ . جنود الله هنا الملائكة . هذا هذا البيت يشير الى الآيات الكريمة في سورة آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول (يا محمد) للمؤمنين : ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين؟ الخ.

(٦) هذا المقطع كله يشير الى ثورة التياريين في العراق : كان الملك فيصل قد غادر بغداد في ١٥ حزيران ١٩٣٣ قاصداً الى لندن تلبية للدعوة التي وجهها اليه ملك الانكليز جورج الخامس ، وترك ابنه «غازي» مكانه. ولكن ما كاد فيصل يترك العراق حتى أثار الانكليز التياريين (الاشوريين) ، نصارى العراق ، ليحرجوا موقف فيصل في مفاوضاته . فثار التياريون في الموصل بزعامة رئيسهم الديني مار شمون . عندئذ اخذ غازي التبعة على عاتقيه كاملة وقضى على ثورة التياريين بحزم وشدة ، فأغضب ذلك الانكليز . عندها عاد فيصل الى العراق ليهدىء الحال ولام ابنه « غازي » على تظاهره بهذه الشدة . وابراهيم طوقان يلتمس لغازي عذراً عند ابيه . ثم عاد فيصل مرة ثانية الى اوروبة (راجع تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ١٢٤) .

(٧) رجع فيصل مسرعاً الى العراق (كالنسر الذي يقع غاضباً من كبد السماء على فريسته) .

(٨) المعقل : الحصن ، حصن العروبة (العراق) . ويمين الله حرز ذاك المعقل : الله يدفع الاذى عن العراق .

أشِرَتْ (آشور) حتى جاءها أمْرُها بين الظُبى والأسَل[1] .
كلُّ لُؤمٍ وعُقوقٍ دونَه فعلُ شمعونَ لئيمِ الموْصِل[2] .
ثورةُ الغاضبِ للحقِّ تُرى هذه أمْ شغبٌ من وكَّل[3] !
ذلك السيفُ الذي جرَّده فضَحتْهُ عينُ ذاك الصَّيقل[4] .
يا لعَينٍ سهِرَتْ عن فيصلٍ تحرُسُ الملكَ له ما تأتلي[5] .
رأتِ الغدرَ فآذاها ، فهل تحمِلُ الضيمَ ، ولما تغفَل[6] .
خُلُقٌ في أبنِكَ غازي لم يكنْ بغريبٍ عن قريبِ المنْهَل[7] .
لم يُطق شِبلك ضيماً ، سيدي ، فاستمع للعُذر قبل العذَل[8] .
قد يكونُ الحزمُ في العزمِ ، وقد يُكتبُ التوفيقُ للمستعجِل ؟
غضْبةٌ من رجلٍ في أُمةٍ صيّرته أُمةً في رجل !
من هفا للمثلِ الأعلى يجِدْ في بني هاشمَ أعلى مثل[9] .
أيُّكمْ ، يا آل بيتِ المصطفى ، ماقضى مُستشْهَداً منذ علي[10] !

---

(١) أشرت : بطرت ، تمردت . جاءها امرها : جاءها الموت ، الهزيمة (اخضاع ثورتها) . اشور : كناية هنا عن التياريين نصارى العراق اتباع مار شمعون .

(٢) شمعون ، الرئيس الديني للاشوريين (التياريين) . ولما هزم شمعون واتباعه استقبلهم الافرنسيون في سوريا ، ولبنان ولا يزال بقاياهم فيها الى الآن . يجب ان نلاحظ ان المستعمرين كانوا يسمون التياريين « الاشوريين » نسبة الى آشور ، قدماء سكان العراق ، ليجعلوا لهم حقاً في العراق ، وليجعلوا لهم فيه وطناً قومياً على غرار فلسطين ...

(٣) هل كانت ثورة مارشمعون هذا في سبيل احقاق حق او كانت مشاغبة قام بها جماعة متكلون على الانكليز؟

(٤) ان السيف الذي شهره مار شمعون (الثورة التي قام بها) عرفته عين غازي وميزته فادركت انه سيف انكليزي . الصيقل ، الحداد الذي يصنع السيوف .

(٥) كان غازي نائباً عن ابيه مدة غياب ابيه في اوروبة . « ما تأتلي » (تقسم ، تحالف يميناً) ولا وجه لها هنا . والصواب ما تتلي (بتشديد التاء) ، تقصر وتبطىء .

(٦) ولما تغفل ، عين غازي كانت ساهرة مدركة لتبعاتها فلم يكن بالامكان ان تحمل الضيم (تسكت عن ثورة التياريين) .

(٧) لم يكن بغريب عن قريب المنهل . المنهل ، النبع (نبع الفضائل) . ان هذا الفعل من غازي غير مستغرب لأن غازي ابنك (قريب منك) .

(٨) هذه جلية الامر فاسمع عذره قبل ان تبادر الى لومه .

(٩) هفا : قصد ، طرب . — من يبحث عن المثل الاعلى يجده دائماً في بني هاشم .

(١٠) إشارة الى ان كبراء آل البيت من نسل الامام علي قتلوا في سبيل المطالبة بحقوقهم كما توفي فيصل في اوروبة في اثناء مطالبته بحقوق العراق كاملة .

لا أحاشي بينكم من أحدٍ فكميُّ الحربِ ضنو الأعزل[1].
كلُّكم ينشأ - قلباً ويداً ولساناً - في جهاد المُبطِل.
فتحَ الخلدُ لكم هيكلَهُ ؛ فإذا أنتم بدورُ الهيكل.
ضمّ جبريلُ جناحيهِ على سُؤدُدٍ محضٍ ونُبلٍ أمثل.

*

وأطافَ الملأ الأعلى بمن عزمُه في الحقِّ عزمُ الرُّسل[2].
فيصلٌ شيَّد مُلكاً لم يزلْ بحمى اللهِ وغازي يعتلي.
وبشَعْبٍ بذَلَ الروحَ ؛ ومن ينشُدِ الملكَ وطيداً يبذُل.
ليس من (حامٍ) لكيدٍ ينبري فيه أو (منتدَبٍ) محتَمِل[3].
أضرَموا النارَ وصبُّوا فوقَها دمَهُمْ حُرّاً أبيّاً يغتلي.
صَهَروا الأغلالَ وانصاعوا إلى دَنَسِ الأرضِ فقالوا اغتسلي[4].
وإذا دِجْلةُ عذبٌ وِرْدُها ، وإذا النخلُ كريمُ المأكل ،
وإذا بغدادُ مما أزدهرت حليةُ التاريخ بعد العَطَلْ[5].
ووقاها اللهُ - والعَوْنُ به - دُولَ الغدرِ وغَدْرَ الدُّول.

ورثى ابراهيم نفراً آخرين رثاءَ اعجاب او رثاء لياقة او رثاءً فيه شيء قليل من الاعجاب الى جانب شيء يسير من اللياقة. وابراهيم في مراثيه لم يخرج عن اتجاهه العام في انه كان يتطرق في كل مرثيه إلى موضوع وطني او اجتماعي يرفع به شعره عن مستوى الشعراء المدّاحين والرثائين.

---

(١) لا استثني احداً من استحقاق الشهادة : سواء منكم من مات يحمل سيفاً او من مات على فراشه لأنكم جميعكم طلاب حق مجاهدون.

(٢) أطاف هنا : احاط. الملأ الاعلى : الملائكة. بمن عزمه في الحق ... : فيصل. عزم الرسل ؛ اولو العزم من الرسل ، الرسل الذين قاسوا كثيراً في سبيل هداية قومهم ومقاومة اعدائهم.

(٣) يجب ألا يكون في تلك الدولة (العراق) حماية تعمل في الباطن على الكيد لأهل البلاد ولا انتداب يخدع اهلها ويصرفهم عن حقهم.

(٤) انصاع : انفتل ، دار - غسل العراق من ثورة اللؤماء.

(٥) حلية : زينة. العطل : التجرد من الحلي. المرأة العاطل : المرأة التي لا تتزين بالحلي والجواهر.

من مراثي ابراهيم مرثية قالها في جبر ضومط (١٨٥٨ ـ ١٩٣٠ م) . كان جبر ضومط استاذاً للغة العربية في الجامعة الاميركية وله في اللغة العربية وصرفها ونحوها وبلاغتها تآليف اشهرها الخواطر العِراب في النحو والاعراب والخواطر الحسان في المعاني والبيان . غير اننا نحن لم نتعلم عليه لأنه في ايامنا في الجامعة كان قد أصبح استاذ شرف [١] ، وان كنا قد سمعناه محدثاً وخطيباً . وقد نظم ابراهيم قصيدته في رثاء جبر ضومط وألقاها في الحفلة التأبينية التي اقيمت في القدس (١٩٣٠) ومطلعها :

أغمدان ، ما يُبكيك، يا كعبة الهدى ؟ وفيمَ الأسى، يا هيكل الفضل والندى [٢] ؟

ثم تطرق ابراهيم في هذه المرثية الى امر إغلاق المدارس الرسمية في لبنان . في عام ١٩٢٩ كان اميل إده رئيساً للوزارة في لبنان فاغلق المدارس الرسمية بحجة انها تكلف الدولة مالاً كثيراً . والحقيقة ان هنالك ايدياً كانت منذ ذلك الحين تريد إغلاق المدارس الرسمية لتدفع الطلاب اللبنانيين الى المدارس الاجنبية ، وخصوصاً مدارس اليسوعيين، على ان اغلاق هذه المدارس لم يطل كثيراً فقد اعيد فتحها . وفي ذلك كله يقول ابراهيم :

وللعلمِ في لبنانَ شِيدت معاهدٌ ؛ فلم تُبْقِ أيدي الجهلِ منهن معهدا [٣] .
وأقبح بما قد جَنَوْه اعتذارُهم ، فقالوا يضيعُ المالُ في رفعها سُدى .
وقد زعموها تُنفِدُ المالَ كثرةً ، فهل تركوا مالاً هناك فَيَنْفَدا ؟
مصابيحُ إن هُمْ أطفأوها فإنها حباحبُ شُؤْمٍ كم أَضلَّتْ مَنِ اهتدى! [٤]
وما لهَفي إلا على ساعةٍ بها صدقنا العدا ؛ لا بارَكَ اللهُ في العدا [٥] .
فكم من يدٍ بيضاءَ للعُرْبِ عندهم ! (ومن لكَ بالحُرِّ الذي يحفظُ اليدا) [٦] ؟

---

(1) cf. A.U.B. Directory, 1953, pp. 6,41.

(٢) غمدان منزل لجبر ضومط في جبل لبنان . هيكل الفضل والندى : الجامعة الاميركية .

(٣) شيدت هذه المعاهد في ايام الحكم العثماني .

(٤) هذه المعاهد اصبحت في ايام الانتداب الافرنسي مدارس ابتدائية ، وكانت تضل الذين يصدقون انها مدارس صحيحة اذا اطمأنوا اليها . الحباحب : اليراع ، ذباب يرى في الليل مضيئاً .

(٥) صدقنا العدا : أخلصنا لاعدائنا .

(٦) عجز بيت للمتنبي .

في اواخر آذار ١٩٣٤ توفي موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية في فلسطين، تلك اللجنة التي كانت توجه الحركة الوطنية. وقد طُلب من ابراهيم ان يعد قصيدة للحفلة التأبينية التي كانت في الرابع من أيار ١٩٣٠. كتب الي ابراهيم يقول [١] موجزاً قدر الامكان ومقتصراً على الاشياء التي يجوز ان تقال في كتاب مثل هذا:

منذ عشرة ايام كان الاحتفال الاربعيني بوفاة موسى كاظم باشا الحسيني.. قالوا: يجب ان ارثيَه. نعم، لأنه حضر جنازة عمي الحاج حافظ و (حضر) حفلة تأبينه ولأن في الرجل - على قدر الحال - موضعاً للقول. أضف الى ذلك عنعنات عائلية حزبية يجب ان احتفظ معها بشيء كثير من الموازنة. وهكذا، وفي ضوء هذه المقبّلات الشعرية اخرجت واحداً وعشرين بيتاً لم اشك بعد فراغي منها في مقدرتي الخارقة على النظم... قال لي جمال القاسم: «يا ابراهيم، كأني بك مُجفلاً في قصيدتك التي رثيت بها موسى كاظم باشا تخشى ان تكيل له المديح والثناء». وقال لي آخر: «أراك اتكأت على الرجل ثم انصرفت عنه الى بحث آخر.» وقال غيرهما: «يا اخي، ما هذا الرثاء؟ لم تقل عنه اكثر من انه كان رجلاً عجوزاً فيه خير...» لا انكرك يا عمر انني سررت بهذه الشهادات وعلمت منها انني لم اعدُ الغرض الذي اردته في تأبين الباشا. القصيدة طيه، فاقرأها اذا شئت.

بدأ ابراهيم هذا المرثية بمقطع مؤلف من سبعة أبيات تناول فيها جهاد موسى كاظم باشا فقال:

وجهُ القضية من جهادِك مُشْرِقُ، وعلى جهادِك من وقارك رونق.
لله قلبك في الكهولة انه ترك الشبيبة في حياء تطرق.
تلك الثمانونَ التي وَفَّيْتَها في نصفها عُذْرٌ لمن لا يَلْحَقُ.

ولما انصرف عن المرثيّ الى الكلام في فلسطين وزعمائها قال:

وطني اخاف عليك قوماً اصبحوا يتساءلون: من الزعيم الاليقُ؟

---

(١) نابلس ١٤ مايس (ايار) ١٩٣٠.

لا تفتحوا باب الشقاق ، فإنـــه بابٌ على سود العواقب مُغْلَقُ !
واللهِ لا يُرْجى الخلاص وأمركم فَوْضى وشمل العاملـــين ممزق .

على ان رثاءه لعبدالمحسن الكاظمي ينضح عاطفة ويفيض شاعرية وان كان قد قلد فيه احدى قصائد المتنبي كما كان قد قلد قصيدة اخرى للمتنبي في رثائه لموسى كاظم باشا .

عبدالمحسن الكاظمي اديب شاعر بغدادي اشتهر بقصائده الطوال المرتجلة وبديباجته البارعة واسلوبه المتين وبالروح الوطنية التي تشيع في شعره . قال ابراهيم يرثيه (١٩٣٥) بقصيدة مطلعها :

سلْ جنـــة الشعر ما ألوى بدَوحتها حتى خلت من ظلال الحُسْنِ والطيب [١] .

وبعد ان خص الميْت بثمانية ابيات التفت الى العرب وفلسطين فقال واحداً وعشرين بيتاً من غير ان يعود الى الكلام على الكاظمي . من هذه الابيات :

أبا المكارمِ ، قم في الحفلِ مرتجلاً مُهَذَّباتِكَ لم تُصْقَلْ بتهذيبِ .
وأضرم النار ، إنَّ القومَ هامـدةٌ قلوبُهم . ذل قلب غير مشبوبِ .
وأنْفُخ إباءك في آنافهم غضبـــاً فقد تُحَرِّكُ أصنـــامَ المحاريب .
تمكن الذل من قومي ، فلا عجب ألاَّ يبـــالوا بتقريع وتأنيب .
ما أشرفَ العذرَ لو أنَّ الوغى نَثَرَتْ أشلاءَهم بين مطعون ومضروب ،
لكن دهتهم اساليب العُداة وهم ساهون لاهون عن تلك الاساليب .
يا رائداً كلَّ ارض اهلُهـــا عرب يجتازها نضو تصعيـــد وتصويب ،
هل جئت منهم أناساً عيشهم رَغَدٌ أم هل نَزَلْتَ بقطر غير منكوب ؟
أمْ ايُّ راعٍ بلا ذئبٍ يجـاوره ، إن لم تجدْ راعياً شراً من الذيب !

ويدخل في هذا الباب « رثاء نابلس » بعد الزلزال الذي اصابها :

في تموز من عام ١٩٢٧ حدث في مدينة نابلس زلزال شديد مما لم تألفه بلادنا في عصرنا

---

(١) هذه القصيدة معارضة في البحر والروي والنفس لقصيدة المتنبي :

من الجآذر في زِى الاعاريبِ حمرَ الحلى والمطايا والجلابيب ؟

الحديث ، وان كانت بلادنا تقع على طريق الزلازل . وقد ذكر ابراهيم حال نابلس في احدى رسائله فقال [1] :

« اما المدينة فقد تدمرت بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، فلا دار الا وهي مهدومة او بحاجة الى الهدم او الى اصلاح تربو (نفقاته) على نصف قيمتها . وقد كان عدد القتلى بين ١٠٠ و١٢٥ والجرحى بين ٣٠٠ و٤٠٠ ، منهم نحو خمسين في حالة خطر . واهل المدينة الآن في خارجها يسكنون بيوتاً خشبية او خياماً ، ومنهم من هاجر . . . راقب الاحرار المصورة فسأبعث اليها قصيدة في وصف الحالة الحاضرة ونكبة الزلزال . » ولكن ابراهيم عاد فقال [2] : « راقب صدور البرق فاذا صدرت وكان لي فيها قصيدة عن الزلزال فارجوك . . . ان تبتاع لي من ذلك العدد خمس نسخ وترسلها الي » . وقد صدرت هذه القصيدة في جريدة البرق [3] بعنوان كارثة نابلس ، مقطعها الاول :

أدموعُ النساءِ والأطفالِ تجْرحُ القلبَ أم دموع الرجالِ ؟
بلدٌ كان آمناً مطمئناً فرماهُ القضاءُ بالزلزال .
هَزَّهُ إثرَ هزةٍ تركتْهُ طللاً دارساً من الأطلال .
مادت الأرض ثم شبت وألقت ما على ظهرها من الأثقال ؛
فتهاوت ذات اليمين ديارٌ لفظت أهلها وذات الشمال ،
بِعَجاجٍ تُثيره ترك الدنـ ـيا ظلاماً وشمسُها في الزوال [4] .
فإذا الدور وهي إمّا قبورٌ تحتها أهلُها وإمّا خوال .
وأرقُّ النسيم لو مرّ بالقا ئمِ منها لَدَكَّهُ ، فهو بال .

وبعدئذ يمضي ابراهيم في وصف حال الناس في هذه الكارثة وصفاً جميلاً جديداً يمزج فيه المتانة بالعاطفة ويمزج الاسى بالتجلد ثم لا ينسى ان يعطف على اليهود بملاحظة عابرة ولكنها شديدة . من ذلك كله :

---

(١) نابلس المدمرة ، تموز ١٩٢٧ .
(٢) نابلس المدمرة ٢٢ تموز ١٩٢٧ .
(٣) جريدة البرق (بيروت) ٢٦ تموز ١٩٢٧ .
(٤) العجاج : الغبار . خط الزوال في كبد السماء . يقصد : في نصف النهار .

قد رأينا في لحظـــةٍ وسمعنا كيف تلهو المنونُ بالآجـال .
ههنا نِسوةٌ جيـــاع بلا مـأ وى سَتَرْنَ الجسوم بالأسمال .
ههنا نسـوة تهـــاجر والغـم بديلُ الأثاث فوق الرحـال .
دُخَـلاءَ البـلاد ، إن فلسـ طين لأرضٌ كنوزها من نكال . . .

— ٢ —

اما « الموضوعيات » الخالصة فقـــد آثرت ان اختار منها ملائكة الرحمة ، الحبشي الذبيح ، الشاعر المعلم ، الرد على شاعر اليهود ثم مرابع الخلود . هذه القصائد ليست احسن شعر ابراهيم ـ من الناحية الفنية ـ فحسب ، بل هي من احسن الشعر العربي المعاصر .

في اواخر عام ١٩٢٤ دخل ابراهيم مستشفى الجامعة الاميركية في بيروت للبقاء فيه اياماً «تحت المعالجة» استشفاءً من القرحة التي في معدته . ولكن مكثه في المستشفى استمر مدةغير قصيرة عاد بعدها الى نابلس للنقاهةوالاستجمام فتأخر ـ من اجل ذلك ـ في المضمار الدراسي عاماً مدرسياً تاماً . ولقد لفتت الممرضات عاطفة ابراهيم فقـــال فيهن ابراهيم قصيدة تعد بحق من روائع الشعر ، سماها ملائكة الرحمة . تبدأ هذه القصيدة بسبعة عشر بيتاً يصف فيها الشاعر الحمام وصفاً حسياً أخّاذاً . ثم انه عطف على الممرضات فشبههن بالحمائم ، بجامع اللون : لون الحمائم المحبب المألوف في الحمام ولون ثياب الممرضات . اما الذي جعل للمقطع الثاني قيمته الفنية فهـــو ان ابراهيم ألقى على الوصف الحسي للمرضات نفحة هادئة من الغزل . وليس بعجيب ان تكون هذه القصيدة الرائعة من اوائل شعر ابراهيم اذ قالها عام ١٩٢٤ ـ مع انه قال بعدها قصائد كثاراً اقل منها قيمـة . إن هذا شأن الشاعر الوجداني لا يجيد الا اذا قال في امور تتصل بـه اتصالاً مباشراً عنيفاً . وروي هذه القصيدة هو النون المفتوحة ، اما القافية فهي النون المشدودة المفتوحة المسبوقة بحركة (١) والمتلوة بهاء السكتة (وهذه القصيدة قـــد خضعت لتنقيح يسير) وانا اثبتها كما نقحها ابراهيم نهائياً لا كما نظمها اولاً :

(١) اتفق ان هذه الحركة تقع في قوافي هذه القصيدة على الهاء في ضمير النسوة الا في البيتين الثالث والاخير .

بِيضُ الحمائم حَسْبُهُنَّهْ أني أُردِّدُ سجْعَهُنَّهْ
رمزُ الوداعة والسلا مة منذ بدءِ الخلق هنه .
في كلِّ روضٍ فوقَ دا نية القطوف لهن أنَّه[1] .
ويملْنَ والأغصانَ ما خطر النسيم بروضهنه[2] .
فإذا صَلاهُن الهجيـ ـر هَبَبْنَ نحو غديرهنه[3] ؛
يهْبِطْنَ بعد الحوْمِ مثـ ـل الوحْيِ لا تدري بهنَّه .
فأذا وقعن على الغديـ ـرُ ترَتَّبَتْ أسرابُهُنَّه
صفَّيْنِ طولَ الضفتيـ ـن تعرَّجا بوُقوفِهِنَّه .
كلٌّ تُقبِّلُ رأسَها في الماء ساعةَ شُربِهنه .
يُطفِئْنَ حرَّ جسومهنَّ (م) بغَمْسهنَّ صدورَهُنَّه .
يقَعُ الرَّشاشُ إذا انتفضْنَ لآلئاً لنحورِهنَّه .
ويطرُنَ بعدَ الابترا دِ إلى الغصون مُهودِهنَّه[4] .
تُنْبيكَ أجنحةٌ تُصفِّـ ـقُ كيف كانَ سرورُهنَّه ،
ويُقِرُّ عينَك عبْثُهُنَّ (م) إذا جثمْنَ بريشهنَّه[5] .
وتخالُهُنَّ بلا رؤو سٍ حين يُقبل ليلُهنه :
أخفَيْنَها تحت الجنا حِ ونِمْنَ ملْءَ جفونهنه .
كم هِجْنَني ، ورَويْتُ عنـ ـهُنَّ الهديلَ ، فديْتُهنَّهْ !

. . .

المُحْسناتُ الى المريـ ـضِ غدَوْنَ أشباهاً لهُنَّه .
الرَّوْضُ كالمُسْتَشْفيا تِ دواؤها إيناسُهُنه .
ما الكهرباءُ وطِبُّها بأجَلَّ من نظَراتِهنَّه :

---

(١) دانية القطوف : شجرة (مثقلة بالثمر) . أنة : الانين وهنا اللحن والتغريد .
(٢) والاغصانَ : مع الاغصان .
(٣) صلاهن : اصابهن بالحر .
(٤) الابتراد : الاغتسال بالماء البارد . قطع ابراهيم همزة « ابتراد » والصواب وصلها .
(٥) جثم الطائر : وقف ، لزم مكانه . العبث : التسلي ، اللعب .

يشفي العليـــلَ عَناؤهن (م) وعطْفُهن ولُطفُهنَّه[1] .
مُرُّ الدواءِ بفيكَ حُلْـ ـوٌ من عُذوبةِ نُطْقِهنَّه .
مهـــلًا ، فعنـدي فارقٌ بـينَ الحمـامِ وبينِهنَّه :
فلَرُبَّما أنقَطَعَ الحمـا ـمُ في الدُّجى عن شدْوِهنه .
أمّا جميـلُ المحسنـا تِ ففي النهار وفي الدُّجُنَّه[2]

ومن اروع قطع ابراهيم الموضوعية قطعة نظمها عـام ١٩٣١ ، حينما كان استاذ في الجامعة الاميركية ، وسماها « الحبشيّ الذبيح » . وابراهيم يُشَبِّهُ ديك الحبش (الديك الرومي) الذي تعود الاميركيون من الغربيين خاصة ، ان يزينوا به موائد اعيادهم وبين « الحبش » (الشعوب غير البيض من الامم الضعيفة) التي تُذبح مصالحها كل يوم على موائد الامم القوية .

اما الصورة الشعرية فمأخوذة من ان نفراً من القصابين (اللحامين) في بيروت - وربما في غيرها ايضاً - يذبحون الدجاج بطريقة تسمى « التشريق » فهم « يُشَرِّقون » الديك خاصة بعض دمه في اثناء عملية الذبح ، فيسير الديك مضطرباً مسافة ما، بينما الدم يسيل من عنقه بغزارة حتى يهمد فجأة فيقع ميتاً . والضمير المستتر في « بَرَقَتْ » يعود على السكين :

برَقَتْ له مسنونةً تتلهَّبُ أمْضى من القَدَرِ المُتاحِ وأغلبُ[3] .
حزَّت فلا خدُّ الحديدِ مُخضَّبٌ بدَمٍ ، ولا نَحْرُ الذبيحِ مخضَّب .
وجرى يصيحُ مُصفِّقاً حيناً فلا بصَرٌ يزوغُ ولا خُطىً تتنكّب[4]
حتى غَلَتْ بيَ رِيبةٌ فسألتُهم : خانَ السلاحُ أمِ المنيَّةُ تكذِب ؟

---

(١) العناء : التعب . يقصد تعبهن في سبيل راحة المريض .
(٢) الدجنة . الظلام ، الليل .
(٣) المتاح : المعدّ ، المنقض ، الهاجم .
(٤) مصفقاً : يصفق بجناحيه . يزوغ ، يقصد « يزيغ » : يكل ، يميل ، يضطرب. تنكبت الخطى الطريق : مالت ، جارت ، عدلت ، ابتعدت .

قالوا : حلاوةُ روحهِ رقصت به ! فأجبْتُهم : ما كلُّ رقصٍ يُطرِب .

*

هيهاتِ ، دونَكَهُ ، قضى فإذا به صَعِقٌ يُشَرِّقُ تارةً ويغرِّب [1] .
وإذا به يَزْوَرُّ مُختَلِفَ الخُطى وزَكِيَّهُ مَوْتورةٌ تتصبَّب [2] .
يعدو فيَجْذِبُه العَياءُ فيرْتمي ؛ ويكادُ يظْفَرُ بالحياةِ فتهْرُب .
مُتدفِّقٌ بدمائِه ، مُتقلِّبٌ مُتعلِّقٌ بذَمائه ، مُتوَثِّب [3] .
أعَذابُه يُدعى حلاوةَ روحِه ؟ كم مَنْطِقٍ فيه الحقيقة تُقْلَب !
إن الحلاوةَ في فمٍ مُتَلَمِّظٍ شرَهاً ليشرَبَ ما الضحية تسْكُب [4]
هيَ فرحةُ العيدِ التي قامت على ألمِ الحياةِ ؛ وكلُّ عيدٍ طيب [5] .

لم يكن ابراهيم سعيداً في حياته التعليمية ، وكان يكره التعليم كرهاً شديداً ولكنه دخل التعليم بعوامل مختلفة كان يظهر فيها انصافاً للعلم وللمبدأ وللانسانية فلم يجدمن ذلك عندبعض المشرفين على التعليم شيئاً : علّم في كلية النجاح الوطنية في نابلس (١٩٢٩-١٩٣٠) . لأنه يريد ان يؤدي خدمة لبلده ومسقط رأسه، ولكن مصالح القائمين على المشروع كانت مناقضة لمثله العليا . وعلم في الجامعة الاميركية في بيروت عامين (١٩٣٠-١٩٣٢) ، واي معهد في هذا الشرق يطمع الانسان ان يلتمس المبادىء السامية والمثل العليا الحق إلاه . ولكن ابراهيم اسيء اليه في الجامعة الاميركية اكثر مما اسيء اليه في حياته كلها . ثم علم في المدرسة الرشيدية الرسمية في القدس معتقداً ان الحكومات ، اذا ادارت المؤسسات، تكون عادة فوق المصالح

---

(١) صعق : مغشيّ عليه ، فاقد وعيه . يشرق تارة ويغرب : يضطرب في مسيره يمنة ويسرة .

(٢) ازور : مال (الى جانب واحد ، وقع على احد جنبيه) . مختلف الخطى : مضطرب ، يحرك رجليه فاحصاً في الارض . زكية : بقية من دم طاهر . موتورة : مأخوذة ، مسفوحة ظلماً .

(٣) الذماء : بقية الروح في الجسد .

(٤) يتلمظ : يتحلب ريقة في فمه تشهياً للطعام الطيب المعروض امامه . يسكب : يصب . ما الضحية تسكب : الدم .

(٥) في هذا البيت تورية : (أ) العيد للناس الذين يملكون هذا الديك المذبوح والذين سيأكلونه في عيدهم ، وان كان هو قد تألم – ان كل سرور في جانب يقوم على ألم في جانب آخر . (ب) فرحة العيد لنا نحن المستعبدين بعد ان تألمنا في حياتنا وبعد ان يتألم مستعمرنا كما يتألم هذا الديك الآن .

والغايات وتكون اقرب الى الاخذ بمبدأ العدل والمثل الاعلى . ولكن امله هنا ايضاً خاب .

في هذا الدور ضاق ابراهيم ذرعاً بالتدريس ـ وكان في ذلك الحين يعلم في المدرسة الرشيدية في القدس. وحاول ابراهيم جهده ان يقوم بواجبه كما يملي عليه ضميره فلم يكن ذلك بالامكان ، لانه كان يرى ما يفعل غيره ، فقال [١] :

قعودي طوال اليوم فوق دفاترٍ أُصلِّحُها شيءٌ يفيضُ على الفيْضِ .
ولولا شعوري بالذي هو واجب لَدُرْتُ لها . . . وقلت على . . .

وساءت صحة ابراهيم فاتفق المضض النفسي مع الداء في الجسد . ولم يبق امام ابراهيم الا ان يترك التعليم . في هذا الطور قال ابراهيم ابياتاً رائعة على ما فيها من معان قريبة المتناول . ولقد كان الناس في ذلك الحين يرددون قصيدة لشوقي قالها عام ١٩٢٤ مطلعها [٢] :

قُم للمعلم وفِّه التبجيلا [٣] ؛ كاد المعلمُ أن يكونَ رسولا .

فقال ابراهيم بعد ان ترك التعليم في المدرسة الرشيدية على الاغلب [٤] :

شوقي يقول ، وما درى بمصابنا [٥] : (قم للمعلم وفِّه التبجيلا) .
أقعد ـ فديتك ! ـ لا يكون [٦] مبجّلا من كان للنشء الصغار خليلا ! .
ويكاد يَفْلِقُني الأميرُ [٧] بقوله : (كاد المعلمُ أن يكونَ رسولا) .
لو جرّبَ التعليمَ شوقي ساعةً لقضى الحياةَ شقاوةً وخمولا .
حسْبُ المعلّمِ غمّةً وكآبةً مَرْأى الدفاترِ بُكْرَةً وأصيلا .
مِائةٌ على مِائةٍ إذا هي صُلِّحَتْ وجد العمى نحو العيون سبيلا .

---

(١) القدس ١ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٣٢ .
(٢) ديوان شوقي ١ : ٢٢٤–٢٢٨ ، راجع ٢٢٧ ، الحاشية الثانية .
(٣) الاحتفاء والتعظيم .
(٤) راجع نابلس ١٠ آذار ١٩٣٣ .
(٥) في الديوان : بمصيبتي .
(٦) في الديوان : هل يكون .
(٧) الامير : شوقي ، اذ كان لقبه امير الشعراء .

ولوَ انَّ في التصليحِ نفعاً يُرتجي ، وأبيكَ ، لم أكِ بالعيون بخيلا [١] .
لكن أُصحِّحُ غلطةً نحْويَّةً ، مثلًا ، وأتّخذ الكتاب دليلا [٢] .
مستشهداً بالغُرِّ من آياتـه ، أو بالحديثِ مفصّلًا تفصيلا [٣] .
وأجيءُ بالشعر القويمِ فأنتقي ما ليس ملتبساً ولا مبذولا [٤] .
وأكادُ أنشُرُ سيبَوَيْه من البِلى وذويهِ من أهلِ القرونِ الأولى [٥] .
فأرى ابْنَ كلبٍ ، بعد ذلك كلِّهِ ، رفعَ المُضافَ اليه والمفعولا .
لاتَعْجَبوا إن صحْتُ يوماً صيحةً ووقعتُ ما بين البنوك [٦] قتيلا .
يا من تريد الانتحار وجدتَّه ؛ إنّ المعلمَ لا يعيشُ طويلا !

وفكرت الجامعة الاميركية في بيروت ان تحتفل ـ مثل غيرها من المؤسسات في الشرق والغرب ـ بمرور الف سنة هجرية على وفاة المتنبي (٣٥٤ للهجرة) فأقامت حفلة في هذه المناسبة في ٣١ ايار ١٩٣٥ ألقى فيها ابراهيم قصيدة . هذه القصيدة تنكشف عن احاطة واسعة بحياة المتنبي وادبه وتنضح بالشاعرية . إلا ان ابراهيم لم يكن راضياً عنها في النهاية . وفيما يلي الادوار النفسية التي مرت فيها تلك القصيدة . يقول ابراهيم في رسائله :

١ ـ ثم الاستاذ انيس الخوري [٧] يكلفني ان أكون احد شعراء حفلة المتنبي التي ستقيمها العروة الوثقى [٨] في ٧ نيسان ١٩٣٥ . وقد اجبت طلبه لأن هذه الحفلة على خطرها فيها مشوار [٩] لبيروت ، ومثلي لا يمكن ان يفلت منه مشوار بيروت !! (١٩ شباط ١٩٣٥) .

---

(١) وأبيك ، الواو للقسم . أك : أكن (مجزومة) .
(٢) الكتاب : القرآن الكريم .
(٣) الغر (جمع اغر وغراء) : البيض ، الكريمة . الحديث : اقوال محمد رسول الله صلى الله علية وسلم.
(٤) الملتبس : الغامض ، المتشابه ، الذي تفهم منه معان وأوجه كثيرة . المبذول : المبتذل ، السوقي ، الذي لا قيمة ادبية كبيرة له . — لا أدري لماذا قد علق بذهني رواية اخرى لهذا البيت ؛
وأجيء بالشعر القديم فأنتقي ما ليس مبتذلاً ولا منحولا .
(٥) سيبويه ؛ من اكابر علماء النحو . ذووه ؛ آله واتباعه في علم النحو ، أي النحاة الآخرون .
(٦) البنوك (جمع بنك ؛ كلمة دخيلة عامية) : مقاعد المدرسة.
(٧) الاستاذ انيس الخوري المقدسي ، استاذ الأدب العربي في الجامعة الاميركية .
(٨) العروة الوثقى جمعية عربية أدبية خدمت الادب العربي والفكرة العربية خدمات جلى . ولكن ادارة الجامعة الاميركية عطلت اجتماعاتها .
(٩) مشوار كلمة عامية معناها ؛ مسير مسافة ، نزهة .

٢ ـ فكرة القصيدة ومحورها جاهزان ولا ينقصهما غير النظم . فاذا توفقت في ابراز الفكر والمحور كما ينبغي لهما ان يبرزا جاءت القصيدة آية ، لأن الفكرة والمحور طريفان بكل ما في الطرافة من معنى ...

اسمع . قد لا يفتح علي بقصيدة المتنبي فأتأخر عن الحضور يوماً او يومين [١] ريثما أدبر نفسي . ولكني اشعر بكثير من الثقة في نزول الوحي علي . ربِ اشرح لي صدري ، ويسّر لي امري ، واحلُل عقدةً من لساني يَفقَهوا قولي [٢] . آمين .

٣ ـ ويبدو أن موعد الحفلة تأخر من السابع من نيسان الى الواحد والثلاثين من ايار. ثم ان الجرائد تناولت الحفلة وخطباءها بالنقد . قال ابراهيم :

« اما تعليقك على الحفلة [٣] فقد انصفت في كل ما قلته ... وقاربت ان تنصفني لولا صداقتُك وعطفُك عليّ ، فانهما وثبا الى المقال وجمحا بالقلم فرحماني منك . اما مقالة توفيق عواد في النهار [٤] فقد اطلعت عليها . ولم يزعجني ما قاله في خاصة ... وقد لاحظت انه (كمش) موضع الضعف في قصيدتي وعرف تماماً كيف كنت احاول التغلب على ذلك الضعف . لقد اكتشف المؤامرة التي دبرناها في عرفة فريد ... [٥] ! تذكرها ؟! طبعاً . »

اما القصيدة فعنوانها مرابع الخلود : استعراض حياة المتنبي وديوانه ، وهي مخمس من بحر الرجز مطلعه :

لما أُنجلت من حُجبِ الزمانِ مرابع الخلود والمغاني
ضاق على النفس الكيانُ الفاني وعالمٌ يَغَصّ بالأشجانِ
ويفجَع القلوب بالأماني

---

(١) نابلس ، ٣٠ آذار ١٩٣٥ .

(٢) سورة طه (٢٠ ؛ ٢٥ – ٢٨) .

(٣–٤) لم يتح لي مراجعة هاتين الكلمتين . ان تعليقي انا على الحفلة يجب ان يكون قد نشر في جريدة الاحرار (بيروت) ، ولكن مقالاتي المنشورة في المجلات والصحف اكثرها غير مرتب الآن فلا يمكن الرجوع الى كل شيء منها . وكذلك لا استطيع الوصول الآن الي كلمة توفيق عواد في جريدة النهار (بيروت) .

(٥) لا اذكر الآن فريداً الذي يشير اليه ابراهيم .

ومنه : طافتْ على الملوك والقياصرهْ فانقلبت تقولُ وهْيَ ساخرهْ :
أضخمكم أسطورة أو نادره وإنما الخلود للعباقره
جبابر النفوس والأذهانِ

وخاتمته : عودي إلى دنياك ، دنيا العربِ ، بجذوةٍ تُضرِمُ روحَ الأدبِ
وتغمرُ الشرقَ بهذا اللهب . قد يستردُّ الحقَّ بعضُ الكتب ،
وقد يكونُ المجد في ديوانِ

أما القصيدة التي رد بها ابراهيم طوقان على شاعر اليهود فلم يتح لي الحصول عليها من احمد طوقان [1] ولا الاطلاع عليها في جريدة العهد الجديد [2] . من اجل ذلك سأكتفي باثبات ما كتبه ابراهيم إلي منها . قال [3] :

« ترجمت جريدة فلسطين نهار امس قصيدة لشاعر يهودي يعيرنا فيها بأننا ابناء هاجر . فبدأت بقصيدة مطلعها :

هاجرٌ أمُّنا ولودٌ رؤوم لا حسودٌ ولا عجوز عقيم [4] .
ومنها : يوسفٌ باعه ابوكم يهوذا ؛ إن حب الدينار فيكم قديم .

وهذه الفكرة مقتبسة من التوراة (سِفر التكوين ، إصحاح ٣٧ ، رقم ٢٦ ، ٢٧) [5] .

---

(١) لعلي أنا لم ألح في الحصول عليها كثيراً .

(٢) لم اصل الى مجموعة جريدة العهد الجديد التي تتضمن القصيدة . يجب ان تكون هذه القصيدة قد نشرت في احد اعداد النصف الثاني من شهر ايلول عام ١٩٢٩ .

(٣) نابلس ، ١١ ايلول ١٩٢٩ .

(٤) تزوج ابراهيم الخليل سارة فلم يرزق في اول امرهما اولاداً حتى شاخا . ثم ان سارة اهدت الى زوجها ابراهيم جارية اسمها هاجر ولدت منه اسماعيل — جد العرب كما جاء في الاخبار . بعدئذ ولدت سارة نفسها اسحق — جد اليهود . الرؤوم : التي تعطف على أولادها .

(٥) تكوين : ٣٧ : ٢٦ ، ٢٨ : « فقال يهوذا لاخوته : ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفي دمه . تعالوا نبيعه للاسماعيليين » .

ومنها : وشكسبيرُ خالد القول فيكم امر (شَيْلوخ) في الورى معلوم[1]
غير أن الذين منهم شكسبير تناسَوْا ما قال ذاك العظيم .

وأراني سأجعل كلَّ بيت من ابيات هذه القصيدة مأخوذاً عن مصدر تاريخي ، بل من التوراة نفسها، فانها تفيض بحبثهم منذ قال الله لموسى : اضرب بعصاك البحر الى اليوم ...»

---

(١) للروائي الانكليزي وليم شكسبير رواية اسمها « تاجر البندقية » The Merchant of Venice تدور على ان شيلوخ مرابٍ يهودي في البندقية ، جاءه يوماً رجل اسمه باسانو يريد ان يستدين منه ثلاثة آلاف دوقة لمدة ثلاثة أشهر . فطلب شيلوخ من باسانو كفيلاً على المبلغ وفائدته لمدة ثلاثة أشهر . فكفل باسانو صديق له اسمه انطونيو كان تاجراً كبيراً في البندقية (وباسمه سميت الرواية) ولكن انطونيو لم يكن يملك في ذلك الحين عيناً لانه كان قد اشترى بجميع امواله بضائع وأرسلها على مراكبه الى بلاد مختلفة .

وروّي شيلوخ اليهودي في مقدار الفائدة التي يريدها على ثلاثة آلاف دوقة لمدة ثلاثة اشهر فقال في نفسه ، ان انطونيو نصراني يكره قومي وأنا ابغضه وأود ان اشبع حقدي عليه من دمه ولذلك اشترط انه اذا تأخر باسانو وانطونيو عن أداء المبلغ فحينئذ يحق له (لشيلوخ) ان يقتطع ليبرة لحم من موضع يختاره من جسم انطونيو . وقبل انطونيو بذلك .

ويتفق ان يعجز باسانو عن أداء المبلغ وأن تغرق سفن انطونيو ثم يحين حين دفع المبلغ فيقف الجميع امام القاضي . ولما اصر شيلوخ على ألا يقبل مالاً ولا عروضاً وأن ينفذ الشرط باقتطاع ليبرة من لحم انطونيو ، قال له القاضي : اختر المكان الذي ستقطع منه اللحم . فاختار شيلوخ الصدر لأنه قريب من قلب انطونيو .

حينئذ اعترضت بورشيا خطيبة باسانو وقالت لشيلوخ : ان الشرط بينك وبين انطونيو أن تقتطع ليبرة من لحمه ولكن لا يجوز لك ان تترك نقطة من دمه تسيل ... ويعلن شيلوخ عجزه عن ذلك ويريد ان يسترد رأس ماله فقط ، ثم يتنازل عن رأس ماله ايضاً فيرفض القاضي الا ان تصادر اموال شيلوخ فيعطى انطونيو نصفها ويرد نصفها الآخر الى خزانة الدولة ...

والرواية تبرز الكره المتبادل في زمانها بين النصارى واليهود .

الشابي

١ ـ بيئة العامة

ان التعبير الجغرافي « شمالي افريقية » يطلق في التاريخ الحديث على الصقع الشمالي الغربي من قارة افريقيـة والذي يتألف من الوحدات السياسية الثلاث : تونس والجزائر ومراكش . فتونس هي الجناح الشرقي لهذا الصقع وقد عرفة العرب باسم «افريقية» وباسم المغرب الادنى لأنه ادنى اقسام المغرب الى المشرق . واما الجزائر فقد عرفها العرب باسم المغرب الاوسط لتوسطها بين تونس ومراكش . واما مراكش فكان اسمها المغرب الاقصى.

وتبلغ مساحة تونس نحو مـائة وعشرين الف كيلومتراً مربعاً تنقسم ثلاثة اقسام : قسماً شمالياً جبلياً معظمه مراع خصبة ، ثم قسماً شرقياً ساحلياً على شيء من الخصب في شماله ، أما جنوبه فصحراوي ؛ ثم قسماً جنوبيـاً داخلياً يتألف من سهول عظيمـة ومراع شاسعة وواحات نخيل . وجنوبَ هذه الواحات من النخيل صحراء افريقية الكبرى[١] .

في هذا القسم الجنوبي من تونس بحيرة مثلثة واسعة تدعى شط الجريد تقع على ساحلها الشمالي الغربي مدينة توزر . ولمدينة توزر هذه ضواح تدعى احداها الشابيـة ، وهي البلدة التى ولد فيها شاعرنا ابو القاسم الشابي .

وتاريخ تونس الحديث مأساة من تلـك المآسي التي ما زالت تحل بالشرق وبالعرب والمسلمين منذ خروج العرب من الاندلس في مفتتح العصور الحديثة .

لما كان السلطان سليم الاول العثماني يفتح البلاد في الشرق كانت الدولة الحفصية في تونس قد آلت الى الضعف ففكر العثمانيون بفتح المغرب وفرضوا عليه حمايتهم مدة من

---

(١) راجع خلاصة تاريخ تونس ، ص ٦ .

الزمن . واخيراً استخلص الاتراك المغرب سنـــة ٩٨١ هـ (١٥٧٣ م) فزال الاستعمار الاسباني عن تونس وانقرضت الدولة الحفصية .

ولم يحكم الاتراك تونس حكماً مباشراً بل كانوا ينصبون عليها ولاة عرفوا في تاريخ تونس باسم الدايات [١] وكان العمال اي الذين يتولون جمع الاموال يلقبون بالبايات . وفي سنة ١٠٤١ هـ (نحو ١٦٣٠ م) استطـــاع مراد باي ان يستبد بشؤون البلاد ثم كتب الى الباب العالي في الاستانة بطلب لقب باشا فاستطاع الحصول على هذا اللقب . ومنذ ذلك الحين اصبحت تونس تحت حكم البايات، ولا يزال لقب باي لقب سلطان تونس الى الآن .

وظلت تونس يتولاها باي بعد آخر حتى سنة ١١١٧ هـ (١٧٠٥ م) حينما استطـاع حسين باي الاكبر بن علي ان يجعل ولاية تونس وراثية في عقبه فنشأت الدولة الحسينيـة التي ما زال افرادها يتعاقبون على عرش تونس الى اليوم [٢] .

كان الحكم العثماني على تونس دائماً إسمياً وخصوصاً بعد سنة ١١١٧ للهجرة حينما اصبح الحكم وراثياً في الاسرة الحسينيـة . على ان تونس ظلت دائماً عـلى ولاء العثمانيين فساعدتهم باسطولها البحري في حربهم مع الروسية سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) وفي القضاء على ثورة اليونان سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) ، كما اشتركت تونس بحرياً في معركة نَوَرَاين الى جانب العثمانيين ضد اليونان سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) ، وفي حرب القرم ضد الروسية ١٢٧٠ ـ ١٢٧٢ للهجرة (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ م) .

ووافق طمع فرنسة بشمالي افريقية اضطرابات مختلفة في شمالي افريقية ، فاستطاعت فرنسة ان تحتل الجزائر نهائياً سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) وتونس سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) .

والاستعمار شر كلـــه وظلم . على ان لكل نوع من الاستعمار خصائصه من الشر والظلم . فالاستعمار الفرنسي يقوم على إفقـار البلاد التي يستعمرها وتركهـا متأخرة عن ركب الحضارة . ثم هو ـ كسائر انواع الاستعمار ـ يمالىء جميع الغربـاء في البلاد التي

---

(١) الداي لقب الضابط الذي تولى قيادة مائة جندي من الانكشارية الذين كانوا يقومون بالدفاع على تونس .

(٢) راجع موجز تاريخ تونس ١٤٧ ثم ١٤٩ وما بعدها .

يستعمرها ويقهر اهل البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . والاستعمار الفرنسي - كسائر انواع الاستعمار ايضاً - يكره الاسلام كرهاً شديداً ، ذلك لأن الاسلام دين يوحي العزة والكرامة ويأبى الخضوع ، ولذلك رأينا جميع المستعمرين مجمعين على اضطهاد المسلمين في كل صقع نزلوه . اما سياسة فرنسة لشمالي افريقية فكان بالغاً حد القسوة ، ذلك لأن شمالي افريقية قريبة من فرنسة وتريد فرنسة ان تجعل من ممتلكاتها في ذلك الصقع مدى حيوياً لها وجزءاً تابعاً لها سياسياً وإدارياً واقتصادياً .

اما حقائق الجو الذي عاش فيه الشابي وشهده فيمكن ان نسرد منها ما يلي :

١ - كان مجلس الشورى الذي يشرف على توزيع ميزانية الحكومة قاصراً على الفرنسيين ولم يشترك فيه التونسيون إلا نحو عام ١٩٠٦ .

٢ - حاول المجلس البلدي ان يضع يده على مقبرة الزلاّج الاسلامية ، ولما حاول التونسيون منع ذلك قابلهم الافرنسيون باطلاق النار ثم اعتقلوا عدداً كبيراً منهم وحكموا على بعضهم بالاعدام .

٣ - اشترك في الحرب العالمية الاولى خمسة وستين الفاً من التونسيين في الجيش الفرنسي قُتل منهم اثنا عشر الفاً .

٤ - في عام ١٩٣٤ عمت الضائقة المالية فتظاهر التونسيون وطالبوا بالاصلاحات التي يمكن ان تنعش البلاد فقابلهم رجال الأمن بالسلاح فجرح عدد كبير من المتظاهرين وقتل فريق آخر . وقد اعلنت السلطة الفرنسية الاحكام العرفية في تونس وعطلت الصحف العربية ونفت رؤساء حزب الدستور . ولكن المظاهرات لم تخفّ بل اشتد بعضها حتى تحول الى معارك دموية كما اتفق في مدينة بنزرت في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٨ ، وكما نشهد في الوقت الحاضر .

٥ - سجلت افضل الاراضي الزراعية باسم الدولة ثم وزعت على الافرنسيين المستوطنين في تونس . وكانت الضرائب التي تجمع من الوطنيين يوزع معظمها على الفرنسيين لمساعدتهم على استعمار البلاد .

٦ - يشرف على الادارة التونسية نحو ثلاثين الف موظف ثلاثة ارباعهم من الفرنسيين .

٧ ـ اما نسبة الاطفال التونسيين الذين يذهبون الى المدارس فتبلغ نحو ١٢،٥ بالمائة مقابل ٨٧،٥ بالمائة من الاطفال الفرنسيين.

٨ ـ ظلت آمال التونسيين تعلو وتنخفض وتتقلب بحسب تغيير الحكومات الفرنسية بباريس. وفي عام ١٩٣٨ استعد حزب الدستور التونسي لصراع واسع النطاق مع السلطات الفرنسية، كان من نتائجه ان زُجَّ بحوالي الف وطني في السجن. ثم ان السلطة الفرنسية أعلنت حالة الحصار على تونس، وهي حال تدل المعلومات التي لدينا على انها لم تنته حتى الآن بصورة رسمية ... »[١]

✡

هذه بعض الاحوال التي شهدها الشابي في وطنه تونس فظهر شيء من آثارها في شعره.

---

(١) راجع القضية التونسية، الخطاب الثالث، ص ٢ – ٤.

٢ - موجز ترجمته

مولـــده :

ولد ابو القاسم الشابي[١] في بلـدة الشابّيّة ، احدى ضواحي مدينة توزر ببلاد الجريد من جنوبي تونس ، يوم الاربعاء في الثالث من شهر صفر سنة ١٣٢٧ والموافق للرابـــع والعشرين من شهر شباط عام ١٩٠٩[٢] . وفي الشابية نشأ نشأته الاولى . ومن هـذه البلدة جاء لقب اسرة الشاعر .

ولما بلغ ابو القاسم الخامسة من عمره سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) ادخله ابوه في احـد الكتاتيب حيث بـدأ يتلقى العلوم المألوفة في مثل هذه المدارس كالقراءة والخط والحساب وحفظ القرآن الكريم على الاخص .

وانتقلت اسرة ابي القاسم من الشابية الى قفصة ثم الى زغوان حيث شغل ربها منصب رئيس المحكمة الشرعية فيهما كليهما . ولم يكتف والـــد ابي القاسم بما كانت الكتاتيب تلقن ابنه فتعهد هو ايضاً ولقنه شيئاً من علوم العربية وشيئاً من سواها حتى بلـــغ الحادية عشرة من عمره .

وبعد ان قضى ابو القاسم بضـع سنوات في الكتاتيب وفي عهدة ابيه في التعليم ارسله ابوه الى تونس العاصمة وادخله الى الجامعة الزيتونية احد المراكز العظمى لعلوم اللغـــة

---

(١) الشابي بتشديد الباء وبعدها ياء النسب ، نسبة إلى الشابية .

(٢) راجع : الاسبوع ، العدد ٣١٢ (الاثنين ، ١٣ ربيع الانور - الاول - ١٣٧٢ ، ١ ديسمبر - كانون الاول - ١٩٥٢) ، ص ٢ ، الحاشية الاولى ؛ الادب التونسي ، ص ٢٠٨ ، راجع الشابي ٢٤.

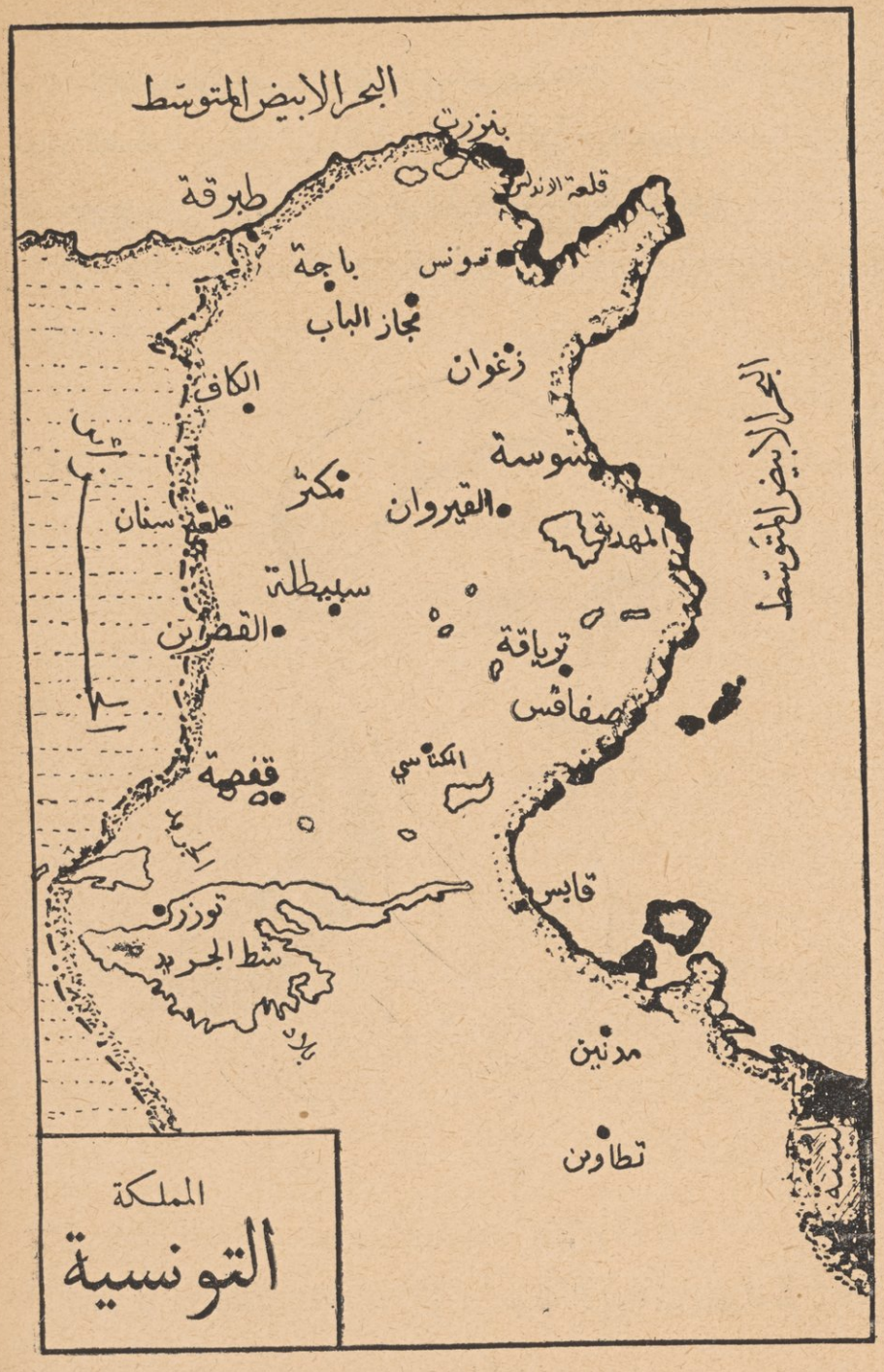
البحر الابيض المتوسط
بنزرت
قلعة الاندلس
طبرقة
تونس
باجة
نجاز الباب
زغوان
الكاف
البحر الابيض المتوسط
سوسة
القيروان
المهدية
سبيطلة
القصرين
برياقة
صفاقس
المكنسي
قفصة
قابس
توزر
شط الجريد
مدنين
تطاوين
المملكة
التونسية

والدين في العالم الاسلامي. وذلك سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١ م). هنالك توسع ابو القاسم في العلوم الاسلامية والعلوم العربية ثم تخرج في آخر سنة ١٣٤٥ للهجرة (١٩٢٧ م) حائزاً على شهادة التطويع [١]. ويبدو ان ابا القاسم لم يكن راضياً عن التعليم في الجامعة الزيتونية، ولا كان جميع شيوخ الزيتونة راضين عن تطرفه وشذوذه ولا عن شعره، مع العلم بان الجامعة الزيتونية كانت في ذلك الحين قد ادخلت على منهاج الدراسة فيها شيئاً من العلوم العصرية.

الشابي تلميذاً في الجامعة الزيتونية

والظاهر ان ابا القاسم الشابي قد رأى ان شهادة الزيتونة لن تشق له طريق الحياة

(١) الرسالة العدد ٦٧٧ (١٩٤٦)، ص ٦٩٨، الشابي ٢٦.

الى كسب العيش ـ وخصوصاً لأن آراءه في الحياة لم تكن تتفق مع آراء شيوخ الجامعة الزيتونية ـ فآثر ان ينال شهـــادة مدنية فدخل كلية الحقوق التونسية سنة ١٣٤٦ للهجرة (١٩٢٧ م) .

وأصيب ابو القاسم الشابي في هذه الفترة ـ في اثناء دراسته للحقوق ـ بثلاث صدمات عنيفات : زواج خائب وحب دامٍ وموت والده :

ولعل زواج الشابي كان سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨) ، اي قبيل موت والده وقبل ان يتخرج هو في كلية الحقوق التونسية . ويتضح لنا من دراسة حياته وشعره ان زواجه هـذا لم يكن موفقاً . « وأغلب الظن أنه تزوج ارضاءً لوالديه او لأحدهما فقط »[1] . وعلى الرغم من ان الشابي قد رزق من زواجه هذا ولدين فانه لم يكن وادعاً سعيداً في حياته الزوجية .

هذه الحياة الزوجية البائسة اليائسة ـ في احدى نواحيها ـ دفعت الشابي ، قبل ان يمضي العام الاول على زواجه ، الى تطلب سعادة موهومة في حب فتاة ظن فيها تحقيق احلامه . ولكن هذه الفتاة توفيت وشيكا ـ في العام الذي احبها فيه ـ فأذكى ذلك في نفسه الأسى على حاله والنقمة على حوادث الدهر . فكانت الصدمة الثانية في حياته .

وظل الشابي يذكر حبه هذا مدة ثم جعل ينساه او يحمل نفسه على نسيانه . وسرعان ما اطاعته نفسه فتناسى حبه الاول وانتقل الى حب جديد ثم الى آخر فآخر . ويدوّن لنا شعر الشابي مواقف من الحب توحي بأنه قد اندفع مع عاطفته وراء المرأة لا يلوي على شيء . ولا ريب في ان هذا الاندفاع كان سبباً من الاسباب التي قرّبت منيته اليه ، مع انه كان يستطيع ان يحيا مع دائه كما عاش غيره مع ادوائهم . ولكن القضـاء النافذ وإلقاءه نفسه بيده في التهلكة كانا عليه كتاباً موقوتاً .

اما ثالثة تلك الصدمات والكارثة الكبرى فكانت موت والده في اوائل ربيع الثـاني من سنة ١٣٤٨ للهجرة (ايلول ١٩٢٩ م) ، قبل ان ينال هو اجازته من كليـــة الحقوق .

---

(١) الشابي ٧٠ .

وهكذا فقد ابو القاسم عَضُده ثم ألقيَ على عاتقه عبء اسرتين ليعولهما : اسرته هو واسرة ابيه ، بينما كان هو نفسه لا يزال في حاجة الى من يعوله ويساعده على اتمام دراسته . ومع ذلك فقد استطاع الشابي ان يتم دراسته في كلية الحقوق التونسية وان ينال اجازتها في سنة ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) .

الشابي بعد خروجه من الجامعة الزيتونية
«عن كتاب الشابي» لأبي القاسم محمد كرو

على ان هذا الضنك في المعيشة والقسوة في الايام لم يمنعا الشابي من القيام بنشاط اجتماعي بارز ، فقد كان له فضل ظاهر في تأسيس جمعية الشبان المسلمين والنادي الادبي في تونس العاصمة وفي تأسيس نادي الطلاب في مدينة توزر . ولم يقتصر نشاطه على السعي لتأسيس هذه الجمعيات بل كان من اعضائها العاملين البارزين [١] .

مرضه :

لا يزال الشرقيون [٢] الى اليوم يحرصون على كتمان ما ينزل بهم من الامراض الوبيلة . واذا هم اعترفوا امام الآخرين باصابتهم او اصابة ذويهم باحد هذه الامراض فانهم يكتمون عادة اسم المرض. وعلى هذا الاساس لحق الغموض اسم المرض الذي نزل بالشابي. فمؤلف كتاب الشابي ، ابو القاسم محمد كرو [٣] ، يقول عن الشابي « انه اصيب بداء تضخم القلب »، بينما محمد فهمي ، مؤلف الروائع لشعراء الجيل يقول [٤] : « لقد انشب الداء بصدر الشاعر اظفاره » مما يدل على ان المرض كان مرض السل الرئوي .

---

(١) راجع الشابي ٢٧ .

(٢) الشرقيون كلمة تدل على المشارقة والمغاربة على السواء . اذ الشرقيون تعبير يؤتى به عادة في مقابل الغربيين (الاوروبيين والاميركيين) .

(٣) ص ٢٨ .

(٤) الجزء الاول ،ص٤٣ .

وايا كان مرض الشابي فانه كان يقتضي علاجاً مستمراً وراحة تامة . ولم تكن احوال الشابي المادية ولا حالته النفسية تمكنه من احتمال نفقات العلاج ولا الاخلاد الى الراحة التامة . ولذلك كان موته منتظراً في كل حين .

موتـــه :

ثم اشتدت بالشابي عقابيل الداء فلزم الفراش . واخيراً استعصى تمريضه على اهله في بيته فنقل الى المستشفى الايطالي في مدينة تونس فمكث فيه برهة من الزمن . وكان قضاء الله في سابق علمه قد نفذ فتوفي الشابي ليلة الثلاثاء [1] في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣ والموافق لليوم التاسع من تشرين الاول عام ١٩٣٤ ، فيكون قد عاش ستاً وعشرين سنة قمرية ونحو خمسة اشهر او خمسة وعشرين عاماً شمسياً ونحو ثمانية اشهر [2] .

وفي اليوم التالي نقل جثمانه الى بلدته الشابية ودفن فيها .

آثـــاره :

اذا قسنا حياة الشابي بما خلفه من آثاره الشعرية خاصة ادركنا انه شاعر مكثر ، فان له مجاميع شعرية مستقلة متعددة . ألف زين العابدين السنوسي كتـــاب « الادب التونسي في القرن الرابع عشر (الهجري) [3] » فأثبت للشابي واحدة وثلاثين قطعة مجموع ابياتها خمسمائة وخمسين بيتاً . وجاء محمد فهمي فالف الروائع لشعراء الجيل [4] فاثبت للشابي عشر قصائد تبلغ ابياتها ثلاثمائة وثمانية وثلاثين بيتاً . ونلاحظ ان القصائد التي اثبتها محمود فهمي هي غير القصائد التي اثبتها زين العابدين السنوسي . بعدئذ جاء ابو القاسم محمد كرّو فألف كتاباً عنوانه « الشابي : حياته ـ شعره » [5] اثبت فيه ثماني عشرة قصيدة من القصائد التي

---

(١) في الشابي (ص ٣٠) : فجر يوم الثلاثاء .

(٢) راجع الاسبوع ، العدد ٣١٢ ، ص ٢ ، الحاشية الاولى .

(٣) تونس ١٣٤٦ هـ « ١٩٢٧ م » ، ص ٢٠٩ - ٣٥٤ .

(٤) لجنة التأليف والترجمة الحديثة ، مصر « بلا تاريخ » ، ص ٤٥ - ٧٢ .

(٥) منشورات المطبعة العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٥٢ ؛ الطبعة الثانية ١٩٥٤ .

اثبتها زين العابدين السنوسي بلغ مجموع ابياتها نحو اربعمائة بيت ، ثم اثبت القصائدالعشر التي كان محمد فهمي قد اختارها ولكن ابياتها جاءت عنده اكثر عدداً اذ بلـــغ عددها نحو اربعمائة بيت ايضـاً . ثم اختار هو اثنتين وعشرين قصيدة مجموع ابياتها نحو خمسمائة وخمسين بيتاً . وهكذا ضمت دراسة ابي القـاسم محمد كرو للشابي الفاً وثمانمائة بيت من الشعر في المختارات [1] ولا ريب في ان ديوان الشاعر اكبر حجمـــاً ممن ذكرنا ولكن يظن ان بعض شعره قد فرقته يـــد الحوادث . ولقد كان الاعتقاد قد ساد زمناً بان ديوانه كله قد ضاع .

وللشابي آثار نثرية مختلفة لم يطبع منها الا كتاب « الخيال الشعري عند العرب » [2] . ثم له مقالات متفرقة بعضهـــا نشر وبعضها لم ينشر ، كما ان له دراسات وقصصـــاً ورسائل متفاوتة الموضوعات . والذي يلوح لنا ان مقدار آثاره النثرية وتباين موضوعاتها كلها تدل على انه كان ايضاً كاتباً فياض القريحة .

---

(١) ص ٩٩ – ٢١٦ . وفي تشرين الاول ١٩٥٤ نشر ابو القاسم محمد كرو كتاباً عنوانه « كفـــاح الشابي » (بيروت – المكتب التجاري) يبدو انه لا يضم مختارات غير تلك التي كان قد جمعها في كتابه الاول « الشابي » .

(٢) دار العرب ، تونس ، ١٩٢٩ ، صفحاته ١٤١ (الشابي ٧٩ – ٨٠) .

٣ - عناصر شخصيته

خلق شخصيةَ الشابي العجيبةَ اربعةُ عناصرَ كلها متنافرة . فلما اجتمعت فيه جعلتنا نقف امام شخصية فذة ولكنها مضطربة ؛ وعاجزة ولكنها طموح . هذه العناصر الاربعة الاساسية هي : فقره ومرضه وتبحره في الآداب العربية بينما كان يجهل الادب الاجنبي في اصوله ، ثم حال بلده تونس في البؤس الاجتماعي والاستعمار السياسي على ما رأينا في صورة عصره .

١ - إذا كان والد ابي القاسم الشابي قد ضمن لابنه جميع حاجاته المادية والمعنوية فهذا لا يعني ان الوالد كان غنياً . ثم مات الوالد فتعرض شاعرنا للبؤس وعضه ناب الفقر فجعله يشعر شعوراً صحيحاً بحال معظم التونسيين . فكان شعره من هذه الناحية تعبيراً صادقاً عن حاله وحالهم .

٢ - ومرَضُ الشابي ، سواءٌ أكان قُلاباً ام سُلالاً[١] ، أثر في اتجاهه في الحياة وفي الشعر . وسنجد ان شعره مملوء بالتشاؤم وبالنقمة على الناس وعلى أحوالهم . إن المرض يمنع صاحبه التمتعَ بمسرات الحياة ، بل يمنعه تَبَيُّنَ تلك المسرات . ومع ان مثل هذا الشخص قد يكون له نظرات متفرقة صائبة في الحياة فاننا لا نستطيع ان نقول إن نظراته هذه صورة للحياة . إنها صورة لنفسه هو في معراج الحياة .

يجب ان نفرّق بين الاشياء التي يقولها الرجل بعقله وبين التي يقولها بقلبه . ومع

---

(١) راجع ترجمته ، على الصفحة ١٦٠ .

الاعتراف بأن ما يقوله بقلبه يكون في العادة شعراً جميـــلاً فانه لا يكون في الغالب صحيحاً . ونحن في دراسة الشابي ندرس شعراً ، ولذلك نُعنى بعنصر الجمال اكثر مما نُعنى بعنصر الصواب .

٣ ـ ولا ريب في ان الشابي كان ـ على قصر عمره ـ متبحراً في كثير من صنوف العلوم العربية تبحر مطالعة لا تبحر دراسة . اما في اللغة والنحو فشعره لا يدل على انه كان بارعاً فيهما على الرغم من انه كان طالباً بالجامعة الزيتونية . واما الفقـه والشرع فليس في شعره ما يدل على التعمق فيهما ولا على اتجاهه اتجاهاً دينياً على الرغم ايضاً من من انـــه درس في معهـــد ديني . إن العكس هو الصواب ، فالشابي شاعر ـ مما يبدو من شعره ـ قليل الاحتفال بالدين كله .

ولم يجد الشابي في الادب سبيلاً إلا الى ما كتب باللغة العربيـة ـ اصيلاً او دخيلاً او منقولاً ـ اعني بالأصيل آثـار ادباء العرب ، وبالدخيل ما قلد اصحابه فيـه الادب الاجنبي بتصرف كبير او قليل ، وبالمنقول ما نقل الى العربية عن اللغات المختلفة نقلاً صحيحاً او قريباً من الصحيح . والواقع الذي ينكشف عنه شعر الشابي ان الشابي كان اكثر مطالعـة للكتب المنقولة منه للكتب الموضوعة في العربية اصلاً . وأنا ـ كدارس ادبي ـ لا أعنى بماً يعرفه الاديب المدروس بقدر ما أعنى بظهور آثار علمه في ما يكتب .

على انه غير مُنكَر ان الشابي كان ذكياً فأحاط بكثير مما طالعه في عمره القصير . وبما ان الشابي قد توفي قبل ان يتجاوز السادسة والعشرين من عمره فانه لمـا توفي كان لا يزال تحت تأثير الكتابات العاطفية الجامحة والاتجاهات الصوفية الشاذة مما يأتلف مـع عواطف الشباب . من اجل ذلك كان أثر ادباء المهجر قويـــاً في بعض شعره .

والشابي كالمنفلوطي ، كلاهما كان يجهل اللغات الاجنبية جهلاً تاماً . غير ان المنفلوطي كان أحسن ثقافة في اللغة العربية فكان اسلوبه اصفى وأنقى من شوائب العجمة. بينما الشابي كان أقل ثقافة لغوية وأكثر اغترافاً من الادب الاجنبي المنقول، فكان اسلوبه ـ من اجل ذلك ـ ألين .

٤ - ولم يكن بامكان الشابي إلا ان يتأثر بحال تونس في التعس والفقر والظلم. ولقد انصف الشابي بلده في شعره فلم يكتف بأن يصفه وصف ناقم او راحم فقط، بل كان يحث قومه على الرقي ويمنّيهم بالنتائج التي يمكن ان يصلوا إليها إذا استيقظوا ونهضوا. غير انه ايضاً كان في بعض شعره السياسي متشائماً نافضاً كلتا يديه من إمكان الاصلاح او النهوض. وعندي ان كثيراً من آرائه في هذه الباب كانت تقليداً للشعراء الذين طرقوا مثل هذه الموضوعات. وإذا نحن قبلنا ما قاله ابو القاسم محمد كرو [١] من ان الشابي قرأ كثيراً للمعري وابن الفارض وابن الرومي والخيام ... وجبران وسائر ادباء المهجر، فاننا لا نعدو الحق معه في ان نرد كثيراً من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها.

✡

ويبدو مما ذكره بعض الدارسين ان الشابي كان نحيف الجسم ثم زاده المرض ضعفاً ونحولاً [٢]. اما زين العابدين السنوسي فقصد ان يرسم له صورة روحية حينما قال [٣]: «لا اعرف الرجل (الشابي) ... إلا إلماماً ولم اقابله إلا مقابلات تكاد تكون «رسمية» تعرفنا فيها به وتسمعنا فيها ادبه وكان فيها خجولاً خافت الصوت. حتى إذا سمعنا ما سمعنا كبر الفتى في اعيننا ورأينا منه جباراً من جبابرة الأدب الرائع العتيد».

وكان متمرداً طموحاً [٤] تنبعث منه روح تدافع عن الحق وتتغنى بالحرية وتحمل على الاستبداد المادي والروحي حتى ان جميع من فعل ذلك كان يصيح بلسان الشابي [٥].

---

(١) الشابي، ص ٥٢ وما بعدها.
(٢) ابو القاسم محمد كرو في «الشابي» ص ٢٨.
(٣) الادب التونسي ٢٠٢.
(٤) الشابي، ٣٥ - ٣٧.
(٥) راجع الاتجاهات الأدبية ٢ : ٩٤ - ٩٥.

٤ ـ خصائص شعره

شاعر وجداني :

الشابي شاعر وجداني خالص . وهو على صغر سنه شاعر مكثر مجيد . ومع ان الانسان لا يبلغ أشدّه عادة إلا في حـــد الاربعين من العمر ولا يبدأ نضجه إلا في نحو الخامسة والعشرين ، فان الشابي كان ـ قبل ان يتوفى في نحو الخامسة والعشرين ـ قـد قال قصائد ومقطوعات بلغ بعضها من النضج مبلغاً كبيراً .

على ان شعر الشابي متفاوت جداً : فيه الضعيف الركيك وفيه القوي المتين ، ثم فيه المعاني المعادة المكرورة وفيه المعاني التي تنعم بقسط وافر من الابتكار ـ من حيث التعبير على الاقل . اما اذا اردنا ان ننظر الى مجموع شعر الشابي ـ لا الى قصائده واحدة واحدة ـ فلا بد لنا من ان نقول بان الشابي كان شاعراً عبقرياً .

وفي شعر الشابي نزعة من التحرر . والتحرر هو اطلاق النفس على سجيتها من قيـود العرف السائد في بيئـة ما . اما من حيث الدين فالشابي غير متقيد بشيء منه ـ في شعره . ثم هو ينحو في تشابيهه واستعاراته احياناً منحى لا يقره التوحيد او هو زندقة في رأي النقـاد القدماء . يتكلم الشابي عن المرأه فيقول مثلاً :

انت قدسي ومعبدي وصبـــاحي وربيعـــي ونشوتي وخـــلودي .
يا ابنة النـور ، انني انا وحدي من رأى فيـــك روعة المعبـــود .
وحرام عليكِ ان تسحقي آمـــا لَ نفس تصبـــو لعيش رغيد ،
فالاله العظـــيم لا يرجم العبـــد إذا كان في جلال السجـــود !

ان تشابيه واستعاراته ليس فيها احتياط . وما يقال عن الدين يقال عن « المجون » الذي نثره الشاعر في عدد من قصائده المتأخرة .

الرومانتيكية في شعر الشابي

نشر الاستاذ الاديب مصطفى رجب سلسلة مقالات في مجلة الاسبوع التونسية [1] عنوانها « الرومانتيكية والشابّي » . وبعد ان ذكر مصطفى رجب ان الرومانتيكية موضوع غامض استشهد بتعريف للشاعر الافرنسي الفرد ده موسيه يقول فيه : « المذهب الرومانتيكي هو النجمة الباكية والريح الصارخة والليلة المرتعشة ... وهو الانبعاث الذي لم يكن في الحسبان ولذة مليئة بالتحول، وهو في الوقت نفسه المملوء والمستدير والقطري والهرمي والشرقي الخ »[2] ، مما لا يدل على حقيقة هذا المذهب كثيراً او قليلاً .

واختلف مؤرخو الأدب المعاصرون في وضع مقابلٍ لكلمة : « رومانتيكي » فسموها المذهب الابداعي او الابتداعي او الاتباعي او الوجداني . وإذا نحن درسنا شعر الشعراء الذي يطلق عليهم في اللغات الاجنبية اسم « رومانتيكيين » ادركنا انهم اشبه ما يكونوا بشعرائنا المحدَثين في العصر العباسي بالاضافة الى الشعراء الجاهليين. ان الشعراء الرومانتيكيين تركوا المجرى المألوف في الشعر القديم كما فارق الشعراء المحدَثون في العصر العباسي عمود الشعر (الجاهلي) . وبكلمة أوضح : ان الشعراء المحدثين جعلوا ينطقون عن انفسهم هم ويصورون بيئتهم هم بعد ان كانوا يرون « الشاعرية » في طبع قصائدهم على غرار الشعر الجاهلي .

والشاعر المحدث يصور بيته هو ويتناول اغراضه وفنونه منها وبما. ان هذه تختلف في انواعها ودرجاتها من اغراض البيئات السابقة على بيئته فان الشاعر محتاج في التعبير عنها

---

(١) ابتداء من العدد ٣٦٢ (الاثنين ، ٢١ ربيع الثاني ١٣٧٣ ، و ٢٨ ديسمبر – كانون الاول – ١٩٥٣) .

(٢) الاسبوع العد ٣٦٢ ، ص ١٣ .

الى الفاظ وتعابير وتشابيه غير تلك التي كان يحتاج اليها الشاعر القديم. من اجل ذلك نرى شعر الشعراء المحدثين عند العرب (كشعر الشعراء الرومانتيكيين في الغرب) يختلف من شعر الذين سبقوهم في الاسلوب ايضاً .

☼

بهذا المعنى كان الشابي شاعراً « رومانتيكياً » . وبهذا المعنى يري مصطفى رجب ان الشابي توفر على الموضوعات فوفاها حقها من البحث المستفيض ـ لا من طول النفس كما يقول ـ ومن العمق والنفوذ الى لب الموصوفات . ومع ان مصطفى رجب يعتقد ان التعمق في الوصف والتحليل اصل من اصول الادب القديم ، فانه يرى انه اكثر شيوعاً في الادب الرومانتيكي ، وخصوصاً كما يظهر عند الشابي . وهو يؤكد ذلك تأكيداً كثيراً [1] .

لا ريب في ان الشابي تناول موضوعاته من بيئته وكما يراها هو من خلال نفسه المثقلة بالمرض والحزن ، فعبر عن كثير من اغراضه تعبيراً شخصياً اكسبها كثيراً من الجدة ، وإن كان قد كرر المعاني وأعاد التراكيب مرات كثيرة. وكذلك نجد في اسلوب الشابي جدة ، ولكن فيه ضعفاً ايضاً . ان الشابي لما حاول ان يجعل شعره صورة لنفسه لم يتخير التأثرات التي عبر عنها ، بل حاول ان يدون في شعره كل نبضاته وكل خيالاته . ونحن اذ نشكر للشاعر هذه العناية بما كان يجول في نفسه فنستطيع ان نعرف منها نفسية هذا الشاعر معرفة صحيحة ، نرى ان تكرار المعاني في ألفاظ متشابهة يدخل شيئاً من الملل على نفس القارىء. هذا ما نشعر به اذا قرأنا قصيدة « مناجاة » المثبتة في باب « الموضوعات » من فنون شعره :

أنت ، يا شعرُ ، فلذة من فؤادي تتغني وقطعةٌ من وجودي ،

فان فيها ثلاثة وعشرين بيتاً تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين . . . ـ فيك ما في خواطري من بلاء . . . ـ فيك ما في عوالمي من ظلام . . . فيك ما في عوالمي من نجوم . . . ـ فيك ما في عوالمي من ضباب وسراب ويقظة وهجود ـ فيك ما في طفولتي . . . الخ . ان الظلال المختلفة من المعاني تزيد الشعر جمالاً كما ان الظلال المتنوعة من الالوان تزيد

(١) الاسبوع ، العدد ٣٦٩ ، ص ٦ ؛ العدد ٣٧١ ، ص ٦ .

الصور الزيتية رونقاً . ولكن تلك الظلال إذا زادت في الشعر او في الصور الزيتية تنقلب تراكماً يسلب الموضوعات الفنية كثيراً من جمالها ورونقهاثم يجردها من تأثيرها المطلوب .

وليس في شعر الشابي اثر لثقافة واسعة : إن الرجـــل يتكلم من قلبه لا من عقله ، وشعره كلام جميل اكثر منه كلاماً مصيباً ، وفيه موسيقى اكثر مما فيه منطقاً متسقاً .

وتتصف قصائد الشابي ومقطوعاته بوحدة الموضوع . ان الشابي يعالج في كل قصيدة من قصائده موضوعاً واحدا إلا ما كان من الموضوعات التي تأتي عادة في الشعر معاً كالغزل والتأمل في الحياة ، او الغزل والطبيعة . على ان بنـاء القصيدة عنده متخلخل في الأكثر . ان القصيدة موضوع واحد ولكن الابيات غير متعانقة ، بل يمكن تقديم بعضهـا على بعض او يمكن حذف بعضهـا او تبديـل مكانه من غير ان يختـل المعنى ، ذلك لأن الشابي ، كما سيأتي ، كثيرُ ترديد الألفاظ والتراكيب والمعاني في شعره . فاذا نحن حذفنا بعض الابيات من قصائده لم يخـلّ ذلك بالأبيات الباقية ، بل ربما اشتد ترابطها فكان لها الايجاز محسناً لها لا شك فيه .

النقمـة والتشاؤم

والشابي شـاعر ناقم يزعُم انه يريد ان يؤدي رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولاً ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة . وإذا كنا نرى في بعض قصائده املاً او روحاً وطنية او دعوة الى الاصلاح والنهوض فهذه كلها لا تبدل شيئاً من موقفنا : ان المصلح الحقيقي لا يتقلب في آرائه ، وأداء الرسالة يقتضي اتجاهاً واضحاً وثباتاً عـــلى مبدأ واحـد .

ويطوف على شعر الشابي شيء كثير من الحزن والتشاؤم والحيرة فيثير ذلك شيئاً من الاشفاق في نفس القارىء على الشاعر ، ولا سيما شاعراً مثل الشابي لقي في حياته القصيرة عذاباً حقيقياً جسمانياً ونفسانياً وروحياً . إن هـــذا العطف على الشابي يحمل عـدداً كبيراً من القراء ومن الدارسين على اعطائه من المقام الادبي اكثر من حقه . على ان هذا

لا يمنع من ان يكون للشابي - كما نرى في مجموع شعره - قصائد رائعة . وعندي ان ديوان الشابي لا يجوز ان ينشر كاملاً بل يحسن ان ننشر منه مختارات فقط .

اثر الادب المهجري

ومع العلم اليقين بان الشابي قرأ كثيراً من دووابن الشعراء العرب - كما يبدو من شعره - فانه كان معجباً بشعراء المهجر امثال جبران خليل جبران ومخائيل نعيمة وايليا ابي ماضي [1] . وليس من المستغرب ابداً ان يكون الشابي اشعر من الذين قلدهم . ان ابا القاسم محمد كرو يقول في كتابه الشابي [2] : «غير ان الشابي كان اعمق من جبران واصدق تصويراً . . . وهو يمتاز (من ادباء المهجر) بدقة بالغة في تعبيره وبراعة فائقة في تصويره » . واريد أنا ان انبه على نقطة واحدة هي ان هذا الذي ذكره محمد كرو عن الشابي والادب المهجري ينطبق على ادباء المهجر الشمالي في الولايات المتحدة - كجبران ونعيمة وابي ماضي ، اكثر من انطباقه على ادباء المهجر الجنوبي - في البرازيل - كالشاعر القروي ورشيد سليم الخوري مثلاً [3] . فالشابي شاعراً خيرٌ من جبران [4] بلا ريب ، ولعله في قصائده المختارة يتقدم ايضاً على ابي ماضي . اما نعيمة فلا اعلم اذا كان شاعراً . هذا مع العلم باننا نوازن هنابين شاعر ما وافت سِنه على النضج وبين شعراء استنفدوا نضجهم كله في اشعارهم .

ولقداكتسب الشابي من الادب المهجري ضعفاً في التركيب واغراقاً في الرمز وشيئاً من التشاؤم والصوفية السلبية . فمن الرمز قوله :

فاذرُ في يا مقلة الليل الدراري عبرات
فوق قلبي فهو قد ودع أوجاع الحياة

---

(١) راجع نقداً لديوان الشاعر القروي للاستاذ عارف النكدي في مجلة المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ٢٩ : ٣ (١ تموز ١٩٥٤ = ٢٩ شوال ١٣٧٣) ، ص ٤٣٢ - ٢٣٦ .

(٢) راجع بحوثاً مفصلة في خصائص شعر جبران في « الامالي » السنة الاولى : نظم جبران ٣٥ : ٢٨-٢٨ ، خيال جبران ٣٦ : ١٨-١٩ ؛ ثم ٣٨ : ٢-٥ ؛ ٤٢ : ٢-٦ ؛ ٤٥ : ٩-١٣ .

(٣) الشابي ٢٦ ، ٥٠ - ٥٨ .

(٤) كرو ، الشابي : حياته - شعره ، ٥٤ ، ٥٨ ، راجع ٥٧ .

واغسليه
بدموع الفجر من أكواب زهر الزنبق
وادفنيه بجـــلال في ضفاف الشفق

عنصر الدين

واذا نحن تأملنا بيئة الشابي العامة في تونس ثم بيئته الخاصة في الجامعـــة الزيتونية عجبنا لغياب الاثر الديني في شعره غياباً تاماً . ان اول ما نلاحظه ان الالفاظ الدينية قد خسرت في شعر الشابي قدسيتها ، فالكلمات المعروفـــة في الدين : الله والنبي والصلاة والجحيم لم يبق لهـا في شعر الشابي ما يتصل بها عادة من الدلالة على مسميات معينة ، بل اصبحت كلمات عامة كسائر الالفاظ القاموسية الدائرة في الاستعمال اليومي :

– لِتَعْسِ الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهلٌ وكان لهم فهم [1]
– صانكن الاله من ظلمـة الرو ح ومن ضـــلة الضمير العنيد [2]
– تغـرد كالطـــير أين اندفعت وتشدو كما شـــاء وحي الاله [3]
كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقتك في الكون هذي الحياه
الى النور فالنور عـذبٌ جميـل الى النور فالنور ظـــل الاله
– ورق نشيـــد الحيـــاة المقـد س في هيكل حـالم قد سحر [4]
– وهْي انجيـــله الجميـــل فصدق ـه وإلا فللغـرام جحيمـــه [5]
– ايها الليلُ ، يا ابا البؤس والهـــو ل ويا هيكل الزمان الرهيب [6] ،
فيك تجثـو عرائسُ الأمل العذ بِ تصـلي بصوتهـا المحبـوب .

على أن الله وحده قد ظل له في قلب الشابي رهبةٌ قدسيةٌ ما . ان الشابي ، وان كان قـد

---

(١) الشابي ١٢٧ .
(٢) « ١٤٨ .
(٣) « ١٤٩ – ١٥٠ .
(٤) « ١٥٥ .
(٥) « ١٦١ .
(٦) « ١٢١ .

ادار ظهره للدين ، لم يكفر بالله ولم يكن زنديقاً ، بل ظل لـه شيء من الايمان « بالعظيم المجهول » (الشابي ١١٢) :

إن من أصغى الى صوت المنونْ
وصدى الأجداثْ ،
ليس تستهويه ألحان الطيـــورْ
– بين ازهـار الربيـع الساحرهْ
وابتسامات الحيـاة الساخرهْ –
عن جـــلالِ اللهْ

اما في المقطعين التاليين فنرى ان الشابي نفسه قـــد تحلل من مدلول الالفاظ الديني تحللاً تاماً ورفع المحبوب الى مكان الالوهية او انزل الله الى درك المحبوب المـــادي (الشابي ٢١٥) :

في فؤادي الرحيبْ معبـــدٌ للجـــمالْ
شيدتـه الحيـــاةْ بالرؤى والخيـــال
فتـلوت الصـــلاةْ في خشوع الظـلال
وحرقت البخـــور وأضـأتُ الشمـوعْ

واشد ايغالاً في التحلـل من ذلك ما نجده في قصيدته « صلوات في هيكل الحب » . قال يخاطب محبوبته ويقيمها مقام الالوهية في القدس والعبادة وفي القـــدرة والارادة وفي الشفاعة والزلفى (الشابي ١٥٧ ـ ١٥٩) :

أنت أنشودة الأناشيـد غنّا ك إله الغناء رب القصيدِ .
أنت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي .
يا أبنةَ النور ، إنني انا وحدي من رأى فيك روعة المعبود .
فدعيـني اعيش في ظلك العذ ب وفي قرب حسنك المعبود
عيشة الناسك البتول يناجي الـ رب في نشوة الذهول الشديد .
وامنحيني السلام والفرح الرو حي ، يا ضوء فجريَ المنشود ؛

وارحميني فقد تهدمت في كوْ ... نٍ من اليأس والظلام مَشيد .
فحرامٌ عليك أن تسحقي آ ... مالَ نفس تصبو لعيش رغيد .
منك ترجو سعادة لم تجدها ... في حياة الورى وسحر الوجود،
فالاله العظيم لا يرجم العبـ ... ـد إذا كان في جلال السجود !

على ان الشابي قد استبقى من التراث الديني قضية القضاء والقدر وحدها ، وهذا امر بين السبب . ان الشابي الذي مني بمرض لا يرجى منه شفاء لم يستطع الثورة على حاله الطبيعية المرَضية كما ثار على حاله النفسية والاجتماعية . انه كان يظن ان كل شيء في العالم يمكن ان يتبدل اذا شاءت الارادة الفردية او الشعبية ان تبدله . ولكنه لما اصطدم بحقائق الحياة الطبيعية ورسف في قيود المرض ادرك ان «هذه الارادة» عاجزة عن تبديل ما قد جرى به الزمن الاول فعاد يُطمئِن نفسه بصحة القدر . ألا يرى القارىء في الابيات التالية إذعاناً للقضاء والقدر ورضىً بما جرى به القلم الازلي ؟ إليك الآن هذه الابيات :

– لتعسِ الورى شاء الاله وجودهم ... فكان لهم جهل وكان لهم فهم [1] .
– ما لي تعذبني الحيا ... ةُ كأنني خَلْقٌ غريب [2] !
وإذا سألت : لمَ الوجو ... دُ وكلُّه همٌ مذيب ؟
قالت [3] : نواميس السما ... ءِ قضت وما لك من هروب !

واذا كان الشابي احياناً يحاول ان يتمرد على نتائج القضاء والقدر فانه مقتنع بأن هذه النتائج مردها الى امر اقره القدر [4] :

سأعيش رُغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشمّاء ...
وأقول للقدر الذي لا ينثني ... عن حرب آمالي بكل بلاء ...

وبعد هذا الكفاح الظاهر يعود فيستسلم للقضاء والقدر ، اذ لا يجد بداً من الاستسلام

---

(١) الشابي ١٢٧ .
(٢) « ٢٠٣ .
(٣) الضمير في « قالت » يعود على « الحياة » .
(٤) الشابي ٢١١ .

ما دام كان شيء يجري هـذا المجرى المكتوب . والقضاء والقدر عند الشابي لا يكون في الخير ابداً بل في الشر دائماً [1] :

لا تحاول ان تنكر الشجو، إني قد خبرْتُ الحياة خبْر أديب:
كن كما شاءت السماء كئيباً ؛ أي شيءٍ يسرُّ نفس الأديب ؟
إنما الناس في الحيـاة طيورٌ قد رماها القضـا بوادٍ رهيب ،
يعصف الهولُ في جوانبه السو دِ فيقضي على صدى العندليب .

ان استسلام الشابي للقضاء والقدر لم يطلع الشـابي على سر القضاء والقدر ولا حل له لغز الحياة ، بل ألقاه في الحيرة ودلاّه في اليأس فتراه يقول [2] :

أرى هيكل الأيام يعلو مُشَيَّدا ولا بد أن يأتي على رأسه الهدمُ .
فيصبح ما قد شيّد الله للورى خراباً كأن الكل في أمسه وهم .
لتعس الورى شاء الاله وجودهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .

وهذه المقطوعة سبعة ابيات اثبتت بتمامهـــا في باب التأمل في الحياة من فنون شعر الشابي :

اما في ما يتعلق بالدين خـاصة في اشكاله المختلفة فموقف الشابي واضح لا يحتـاج الى تعليق [3] .

ملىء الدهر بالخـداع ، فكم قد ضلَّلَ الناسَ من إمامٍ وقسّ !

المتانة والركاكة :

واذا كان الشابي خرّيج الجامعة الزيتونية في تونس ، واذا كان لا يعرف الا اللغـــة العربية ، فيجب ان تكون لغته متينة واسلوبه على عمود الشعر العربي . ونحن نلمح ذلك

(١) الشابي ١٢٣ .
(٢) » ١٢٧ .
(٣) » ١٠٩ .

كله في شعر الشابي ، فللشابي قصائد تجري على اسلوب قديم متين كقوله مثلاً [1] :

الا أيها الدهرُ المُصَعِّرُ خدَّه ، رُوَيْدَكَ إن الدهر يبني ويهْدُمُ .

وكذلك نرى في شعره مقدرة لغوية لا شك فيها وذوقاً لغوياً ايضاً . ولكن الشابي سرعان ما اغرق في الرمز وتوسع في الاوصاف الخيالية ورام التعبير عن هواجس النفس الغامضة المكبوتة فاضطر الى ان يلائم بين لغته وبين غموضه فركّت لغته احياناً في طوريه كليهما ـ قبل بلوغ العشرين وبعد بلوغها . فمن التعبير عن هواجس نفسه الغامضة قوله [2] :

أصيخي فما بين أعشار قلبي يرف صدى نوحك الخافتِ
معيداً على مهجتي بخفيف [3] جناحيه همس الردى الصامت

وبما ان الرمز مبني في الاصل على الاستعارة، فان الشابي مُغْرِقٌ في استعاراته كثيراً، واستعاراته بعيدة احياناً وسمجة احياناً أخرَ كما يتفق في استعارات كل من يبعد في تطلب اوجه الشبه . من ذلك مثلاً قوله (الشابي ١٠٨) :

وإن قبّلتك شفاهُ الحياةِ وصبّت بفيك الرُّضابَ المريرْ ،
فقد صفعت مهجتي الداميهْ بنعل الشتاء أكفُّ الدهورْ .

واحياناً لا تكون الاستعارة سمجة ضرورة ، ولكنها تكون بعيدةَ وجه الشبه ومخالفة للوضع اللغوي ايضاً كقوله (الشابي ١٢٥) :

فأين الأماني وألحانها ؟ وأين الكؤوس وأين الشراب ؟
لقد سحقتها أكفُّ الظلام ، وقد رشفتها شفاه السراب !

على ان مما يحسن احياناً في الرمز ان يبعد الشاعر في الاستعارة ويوغل في الاغراب مع وضوح المعنى، فيغتفر النقادُ بعد استعاراته لاصابة الرمز فيها. من هذا الباب قول الشابي (ص ١١٧):

---

(١) سنوسي ٢١٢ ، كرو ١٠٢ .
(٢) سنوسي ٢٣٥ – ٢٣٦ ، كرو ١٠٨ .
(٣) في كرو : خفق مكان حفيف ، وهو خطأ مطبعي في الاغلب .

مات قلبي
. . . . . .
فاندبيـــهِ
واغسليـــه
بدموع الفجر من أكـ واب زهر الزنبـقِ
وادفنيـه بجـــلالٍ في ضفاف الشفـــق
ليرى وجه الحبيبْ

ويتبع هذا الغموض في المعاني والايغال في الاستعارة ركاكة ظاهرة هي التي كنت أودُّ ان تغيب من ديوان الشابي بحذف عدد من القصائد او المقاطع على الاقل . من ذلك مثلاً[1]:

إن السكينة روح في الليل ليست نظام
والروح شعلة نور من فوق كل نظام
لا تنطفي برياح الـ إرهاق أو بالحسام
بل قد يعج لظاها سيلًا ويطغى الضرام
كل البلايا جميعاً تفنى ويحيا السلام
والظلم سبة عار لا يرتضيه الكرام

وهنالك اخطاء لغوية وصرفية ونحوية نشأت بلا ريب من قلة مبالاة الشابي بالمجرى اللغوي الصحيح حينما اراد ان يسوق آراءه . على ان هذه لا يجوز ان تصدر عن شاعر صغير فضلاً عن شاعر عبقري خريج الجامعة الزيتونية. وبما ان حصر هذه الاخطاء وتبويبها يقتضي وقتاً طويلاً وصفحات كثيرة فقد رأيت ان اسرد بعضها سرداً للدلالة على ما اردته لا لتعليله وتأويله[2]:

فروح مكان فرح ٩٩
لأي (مستعمله بمعنى برهة) ١٠٣
لم تبقّي لي الحياة (باثبات الياء في «تبقي» بعد الجازم) ١١٠

---

(١) سنوسي ٢٣٩–٢٤٠ ، الشابي ١١٥ .
(٢) حباً بالايجاز سأورد الخطأ متبوعاً برقم هو رقم الصفحة من كتاب الشابي لمحمد كرو .

لا تعنيني (كذا) اغاريد الصباح ، بلبل الأفراح ١١٢
ولما تجاوزت (مكان ولما اتجاوزْ) ١٢٥
عاري الاملود ١٤٤
من حضيض وهيد ١٤٤
الغاب (مستعملة على انها اسم مفرد) ١٥٣ واماكن اخرى .
التعيس (مكان التعس) — ملاك (يقصد ملك بفتح اللام) — السلام العهيد ١٥٦
يدْوي مكان يُدَوِّي ١٥٦ وأماكن اخرى .
الخريف العتيد ١٥٩
بسحر يَهيِمه مكان يُهيِّمه او يَهَيِّمه ١٦٠
نشيد عَلَوِي (يقصد : عُلْوي) ١٦٦
السنين (بكسر آخره) ١٦٧ ، ١٦٨
لم يُلَدْ (مكان لم يولد) ١٧٥
تبلي في اناملها اساه (مكان : بأناملها) ١٨٠
زهور (مكان ازهار) ترد كثيراً

ومن السيئات التي اكتسبها الشابي من اعجابه بالشعر المهجري الشمالي كثرة التعداد والتكرار والاعادة للالفاظ والتراكيب والمعاني ، مما ينفر احياناً في الذوق الادبي ، على الرغم من ان بعض الترداد يفيد شيئا من الموسيقى ، يمثل ذلك قوله ١ :

فنسير ننشد لهونا المعبود في كل الأمـــورْ .
ونظل نعبث بالجليل من الوجـــود وبالحقير :
بالسائل الأعمى وبالمعتـوه والشيخ الكبير ،
بالقطة البيضاء ، بالشاة الوديعـــة ، بالحمير ،
بالعشب ، بالفنن المنور ، بالسنابل ، بالسفير (؟) ،
بالرمل ، بالصخر المحطم ، بالجداول ، بالغرير .
واللهو والعبث البريء الحلو مطمحنا الأخير ...

(١) الشابي ١٨٥-١٨٦ .

والشابي مغرم بالفاظ معينة يكررها في شعره بلا سأم منها . من هـــذه الالفاظ : الحياة ـ جميل ـ الربيع ـ الغاب ـ النشيد ـ زهر ـ ثمر ـ كون ـ وجود الخ . لقد كرر لفظة الحياة مائتي مرة، ولفظة جميل نحو سبعين مرة . وكثيراً ما ترد كلمة الحياة مثلاً مراراً كثيرة في القصيدة الواحدة ومرتين في البيت الواحد او مرات في الابيات المتتالية .

التوشيـــح

وشعر الشابي من حيث النظم قصيد او موشح . والعدد الاكبر من اشعاره قصائد،ونحو خمسيها موشحات .

والمقصود بالموشح اشطر من الشعر ترتب ترتيبا مخصوصا متساوقا مع تعدد في القوافي. ويمكن ان يأتي الموشح على انواع مختلفة من الترتيب . ويدخل في باب التوشيح عند الشابي « الرباعيات » وهي ـ هنا ـ قصائد مفصلة بيتين بيتين بنى الشاعر كل بيتين منها على روي واحد ، من ذلك قوله [1] :

بالأمس قد كانت حيا ... تي كالسماء الباسمـــهْ
واليوم قد أمست كأء ... ساق الكهوف الواجمـهْ
قد كان لي ما بين أح ... لامي الجميـلة جـدولُ
يجري به مـاء المحبّـة ... طاهراً يتسلسلُ الخ

واحيانا يجعل الشابي رباعياته مزدوجة ، اي تتألف من اربعة ابيات ، على روي واحد او على رويين متلازمين او مفروقين . اما رباعياته المزدوجة على روي واحد فمثلها « من اغاني الرعاة » :

أقبل الصبح يغـني ... للحيـــاة الناعسهْ
والربى تحلم في ظلّ ... الغصـــون المائسه
والصبـا ترقص أو ... راق الزهور اليابسه
وتهادى النور في تلـ ... ـك الفجاج الدامسهْ

●

(١) سنوسي ٢٥١ ، الشابي ١٢٨ .

أقبل الصبح جميلًا يملأ الأفق بهاهْ
فتمطى الزهر والطيـ ـر وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحيّ وغنى للحياه
فأفيقي يا خرافي وهلمي يا شياه الخ

واما الرباعيات التي تأتى على رويين اثنين متلازمين او مفروقين فمثلَها في مقطوعة « في ظل وادي الموت ». والغريب ان الشابى جاء في هذه المقطوعة بثلاثة انواع من ترتيب الروي فتأملها في « المجاميع الاول والثانى والخامس » التي اثبتها فيما يلي:

نحن نمشي وحولنا هذه الأكـ وان تمشي لكن لأية غايهْ ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمـ س وهذا الربيع ينفخ نايه .
نحن نتلو رواية الكون للمو ت ولكن ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايه .

*

وتغشّى الضباب نفسي فصاحت في مَلالٍ مر : الى أين أمشي .
قلت سيري مع الحياة فقالت : ماجنينا ـ تُرى ـ من السير أمس.
فتهافتُّ كالهشيم ، على الأر ض وناديت : أين يا قلب رفشي ؟
هاته ، علّني اخط ضريحي في سكون الدجى وأدفن نفسي !

*

ثم ماذا ؟ هذا انا صرت في الدنـ يا بعيداً عن لهوها وغناها ،
في ظلام الفناء أدفن أيّا مي ولا أستطيع حتى بكاها
وزهور الحياة تهوي بصمتٍ محزن مضجر على قدميّا .
جف سحر الحياة ، يا قلبي البا كي ، فهيّا نجرب الموت هيا !

فالمجموع الاول قوافيه : يهْ ـ يهْ ـ يهْ ـ يهْ
اي أ ـ أ ـ أ ـ أ

*

والمجموع الثانى قوافيه : شي - س - شي - سي

اي أ - ب - أ - ب

*

والمجموع الثالث قوافيه : اها - اها - ميّا - هيا

اي أ - أ - ب - ب

وربما جاءت مقطوعات الشابى ثلاثيات كل مجمـــوع منها في ثلاثة ابيات على روي مستقل :

ألا أيها الظالم المستبـــدُّ حبيبُ الفناء عدوُّ الحياهْ ،
سخِرْتَ بأنّات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه .
وعشت تدنس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباهْ .

○

رويدك لا يخدَعنْكَ الربيعُ وصحو الفضاء وضوء الصباحْ
ففي الأفق الرحب هول الظلامِ وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزَأنَّ بنَوْحِ الضعيف فمن يبْذُرِ الشوك يجْنِ الجراح

○

تأملْ هنالك أنّى حصَدتْ رؤوس الورى وزهور الأملْ
وروّيت بالدم قلب التراب وأشربتَه الدمـــعَ حتى ثَمِل
سيجرفك السيلُ سيلُ الدماءِ ويأكلك العاصف المشتعـــلْ

اما الموشحات عند الشابي فهي قليلة لا تزيد على ست [1] فيما بين ايدينـا من شعره ، وان كان الملموح من قول الاستـاذ المقدسي : « اما اليوم فهنالك اتجاه عام الى احيـائه (احياء التوشيح) والتفنن فيه . . . وقد استساغه المجددون في جميع الاقطار فشاع حتى بلغ

---

(١) ابن خلدون يسمي الابيات المبنية على التوشيح موشحه (المقدمة ص ٨٥٤ السطر ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ص ٥٨٥ السطر ١٦ ، ص ٥٨٦ السطر ٣) .

(٢) الاتجاهات الادبية ١٩٣ .

المناطق البعيدة عن مركز النهضة الادبية الحديثة كتونس مثلاً والحجاز . في الاولى (تونس) تجده في شعر حسين الجزيري وسعيد ابي بكر ومحمد الفائز وابي القاسم الشابي» مما يدل على كثرته في الشعر الحديث ومنه شعر الشابي .

وبينما تكون الرباعية من بحر واحد يمكن ان يكون الموشح من ابحر مختلفة. ويجب ان يلتزم الوشّاح القوافي في المجاميع[1] المتعددة التزاماً دقيقاً. وفي ما يلي جميع نماذج التوشيح عند الشابي مع الالماع الى ما فيها من الشواذ :

(النموذج الأول)

اسكتي يا جراحْ واسكني يا شجونْ
مات عهد النُواحْ وزمان الجنون
وأطلَّ الصباحْ من وراء القرون

•

في فجاج الهوى قد دفنت الألمْ
ونثرت الدموعْ لرياح العدم
واتخذت الحياهْ مِعْزَفاً للنغم
أتغنّى عليهْ في رِحاب الزمان

•

وأذبت الأسى في جمال الوجودْ
ودَحَوْتُ الفؤادْ واحة للنشيدْ
والضيا والظِلالْ والشذا والورود
والجوى والشبابْ والمنى والجِنان

وهنالك في هذا الموشح مجموعان آخران مثل هذا يتقدمهما المطلع «اسكتي يا جراح». ونلاحظ هنا ان الشابي قيد اشطر المطلع واعجاز المجاميع (الاشطر المتأخرة) ولكن اطلق

(١) المجموع في الموشح يسمى بيتاً (مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٣ الاسطر الاربعة الاخيرة .)

الصدور (الاشطر المتقدمة) من القافية . ثم انه اجاز لنفسه شيئاً آخر : لقد سكن اواخر الصدور مع ان التسكين لا يجوز اذا لم تكن الابيات مصرعة او موشحة .

(النموذج الثاني)

كان في قلبيَ فجر ونجومْ وبحـــار لا تغشّيها الغيومْ
وأناشيدُ وأطيارٌ تحـــومْ وربيع مشرق حلو جميـــلْ
كان في قلبي صبـاح وإياة[1] وابتسامات ولكن وا أسـاه
آه ما أهول إعصار الحياةْ آه ما أشقى قلوب الناس آه
كان في قلبيَ فجر ونجـــومْ
فإذا الكل ظـــلام وسـديم
كان في قلبي فجر ونجـــوم

هذا الموشح ثلاثة مجاميع مقسومة قسمين : قسماً يتألف من المجموع الاول وقسماً يتألف من المجموعين الباقيين .

اما في المجموع الاول فان الشاعر صرّع البيت الاول (ـ م ـ م) ثم اتبع به صدر البيت الثاني واطلق عجزه (ـ م ـ ل) . بعدئذ أتى ببيتين جعـــل لصدرهما رويّاً (ةْ) ولعجزها روياً آخر (هْ) . أما الاشطر الثلاثة التي تؤلف قفلة للمجموع فقد عاد بها الشاعر الى قافية البيت الاول (م) .

وبدّل الشاعر في القسم الثاني ترتيب قوافيه فجعل المجموعين الثاني والثالث يجريان مجرى واحداً . ففي المجموع الثاني بنى الشاعر صدر الابيات الاربعة على روي واحده (ح) وعجزها على روي آخر (د) . ثم جاء الى الاشطر الثلاثـة فاتبع الشطرين الاول والثالث بصدر الابيات الاربعة (ح) واتبع الشطر الثاني بعجزها (د) :

يا ابن امي ، أترى اين الصباحْ قد تقضّي العمر والفجر بعيدْ
وطغى الوادي بمشبوب الرياح وانقضت أنشودة الفصل السعيد

(١) الاياة : نور الشمس .

أين نائي ، هل ترامته الرياح ؟ والأغاني ، أين محراب السجود
خـبّروا قلبي فما أقسى الجراح ! كيف طاشت نشوة العيش الحميد
يا ابن أُمي ، أترى أين الصباح ؟
أوراء البحر أم خلف الوجود ؟
يا ابن أُمي ، أترى أين الصباح ؟

والمجموع الثالث يتبع المجموع الثـــاني في الترتيب ويختلف طبعاً في الروي هكـــذا :

ليت شعري ، هل ستسليني الغداة وتعزّيني عن الأمس الفقيد
وتريني ان أفراح الحيـــاة زُمَرٌ تمضي وأفواج تعـود
فإذا قلبي صبـــاح وإياة[1] وإذا أحـلامي الاولى ورود
وإذا الشُحرور حلو النغمات وإذا الغاب ضيـــاء ونشيد
ليت شعري هل تعزيني الغداة ؟
أم ستنساني وتبقيني وحيـــد ؟
ليت شعري هل ستسليني الحياة ؟

(النموذج الثالث)

وللشابي موشح على النمط التالي :

على ساحل البحر حيث يضجُّ صراخُ الصبـــاح ونوح المسا
تنهدتُ من مهجـــة أُترعت بدمع الشقاء وشوك الأسى
فضاع التنهـــد في الضجّة
بما في ثنـاياه من لوعـــة
فسرت وناديت ، يا امُّ ، هيا
إليّ فقد سئمتني الحيـــاة

(١) الاياة (بفتح الهمزة وكسرها) : نور الشمس .

فترتيب هذا الموشح هكذا :

ـــــ أ ـــــ ب [1]

ـــــ ج ـــــ ب

ـــــ د

ـــــ د

ـــــ هـ

ـــــ و

ويأتي في هذه الموشح بعد المجموع الاول مجموعان آخران يشبهانه في ترتيب القوافي . ولكن نلاحظ ان الشاعر يعيد في الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الثاني قافيتي الشطرين الاخيرين من قفلة المجموع الاول. اما في المجموع الثالث فان القفلة مؤلفة من شطرين فقط يقابلان الشطرين الاولين في قفله المجموع الاول والمجموع الثاني .

(النموذج الرابع)

ومن موشحات الشابي موشح جميل ذو ترتيب موسيقي مؤلف من ستة مجاميع ، ترتيبه كما يلي :

ليت شعري
أي طير
يسمع الأحزان تبكي بين أحشاء الكئيب
ثم لا يتلو على الفجـ ـر أغاريد النحيب
بخشوع واكتئاب ؟

وترتيب الاشطر في هذا الموشح مطرد في مجاميعه الستة . ولكن إلقوافي تختلف كثيراً. وهذا الموشح موجود في هذه الدراسة فليرجع اليه في مكانه [2] .

(١) هذه الاحرف ليست القوافي ، ولكنها رموز دالة عليها .
(٢) ص ٢٢١

(النموذج الخامس)

وكذلك للشابي نوع آخر من التوشيح مؤلف كل مجموع منه من بيتين فقط . قُسِّم كل بيت منهما قسمين احدهما شطر كامل من بحر الرمل (فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتْ) . والشطران التامان من البيتين مبنيان على روي واحد ، كما ان الجزئين مبنيان على رويّ واحد آخر . وذلك مطرد في المجاميع الخمسة التي يتألف منها هذا الموشح ، على الصورة التالية :

رفرفت في دُجْية [1] الليل الحزينْ زفرة الأحلامْ
فوق سرب من غمامات الشجون ملؤها الآلامْ

(النموذج السادس)

ويلفت النظر ان للشابي موشحاً مؤلفاً من سبع مجاميع مبنية على ترتيب واحد ولكنها كلها مطلقة من قيود القافية :

حطّمتْ كفُّ الأسى قيثارتي
في يد الأحلامْ
فقضت صمتاً أناشيد الغرامْ
بين أزهار الخريف الذاويهْ
وتلاشت في سكون الاكتئابْ
كصدى الغِرّيدْ

والغريب ان الشابي اطلق جميع القوافي في هذه الموشح ، الا انه طابق بين شطرين فقط من كل مجموع في القافية ، غير ان المطابقة جاءت في كل مجموع في مكان مغاير لكل ما عداها . فالمجموع في هذا الموشح مؤلف من ستة اشطر ، تقع المطابقة في اشطرها كما يلي :
في المجموع الاول : بين الشطرين الثاني والثالث .

---

(١) ظلمة .

في المجموع الثاني : بين الشطرين الثالث والرابع .
في المجموع الثالث : بين الاشطر الاول والثاني والثالث .
في المجموع الرابع : بين الشطرين الرابع والخامس .
في المجموع الخامس : بين الشطرين الثاني والرابع .
في المجموع السادس : بين الشطرين الثالث والرابع .
في المجموع السابع : بين الشطرين الرابع والخامس .

ومما تجدر ملاحظته ان الشابي يحب القوافي الساكنة لأنها تتيح له تحرراً من القافية المعربة فيكون مدى اختيار قوافيه اوسع . كما ان القافية الساكنة تكون احياناً موسيقية وتساعد بما فيها من « السكْت » عن اتساق معظم القوافي في نغم واحد ، بينما القوافي المعربة بالفتح والكسر والضم (في التوشيح خاصة) تتنافر، وان كان الاعراب يُضفي عليها شيئاً من جمال التنوع .

والميل الى تسكين القافية عند الشابي غير قاصر على موشحاته ورباعياته ، بل يتناول قصائده ايضاً .

ولقد حاول السيد حسن محمد عبد الله شرارة ان يجمع بعض خصائص شعر الشابي في مقال مبني على دراسة لشعره وددت ان ألخصه في الاسطر التالية [1] :

« الشابي شاعر مرهف الحس رقيق العاطفة ثائر ، وهو ذو شاعرية فياضة فيها سحر ولها ديباجة . وهو شاعر وجداني له عشق خاص للجمال وغرام فريد بالطبيعة بما فيها من انهار وغابات ومن مظاهر أخر :

وفي ليلة من ليالي الخريف ... مثقلة بالأسى والضَجَرْ
سكرت بها من ضياء النجوم ... وغنيت للنهر حتى سَكِر .
ظمئتُ الى النور فوق الغصون ؛ ... ظمئت الى الظل تحت الشجر ؛
ظمئت الى النبع بين المروج ... يغني ويرقص فوق الزَّهَر ؛

(١) مجلة الامالي السنة ١ ، العدد ١٦ ، ص ٨-١١ .

ظمئت الى نغمات النسيم وعزف الرياح ولحن المطر ؛
ظمئت الى الكون ؛ أين الوجود وأين أرى العالم المنتظر ؟

« ثم انه كان متبرماً متشائماً في كثير من قصائده الاجتماعية والوجدانية كثير السخط والحنق على شعبه ، ناقماً اشد النقمة على خمول بيئته واستكانتها الى الخمول والكسل ، حاملا على التقاليد العتيقة ...

« وكان يطوف على شعره شيء كثير من الالم ، ألم جسمه وألم نفسه فيحاول ان يهرب من عالم البشر الى عالم الطبيعة : حقيقة ومجازاً بجسمه وبشعره .

« وفي بعض شعر الشابي تجدد وموسيقى واسلوب فتان مبتكر ومعان جديدة جميلة وصور بديعة مشرقة ، كل ذلك مضافاً اليه سلاسةٌ وسهولة ورقة وشيء من الغموض يضفي على شعره شيئاً من الصوفية ومن الروعة معاً » .

✡

وفي شعر الشابي خصائص متعددة ، في بعضها نزعة عامة وفي بعضها الآخر تجدد وفي بعضها لون محلي . ثم فيه ، كما رأينا ، سهولة وموضوعات محدودة . كل هذا جعله يعير نفسه للنقل . ويذكر ابو القاسم محمد كرو ان عدداً من قصائد الشابي قد نقلت الى الفرنسية والايطالية والانكليزية [1] . وكذلك نقل الشاعر السويدي كارل ألوف سفنّنغ [2] مؤخراً قصيدة اناشيد الرعاة الى اللغة السويدية شعراً [3] ونشرها مع شيء من حياة الشابي وخصائصه في مجلة يوردبرو كارناس فورنغسبلاد [4] .

---

(١) الشابي ١٠-١٢ .

(2) Carl Elof Svenning.

(٣) الشاعر سفننغ يعرف عدداً من اللغات منها العربية ويحاول ان ينقل الى لغته شيئاً من الآداب المختلفة . ذكر ذلك في رسالتين له إلي تاريخهما : لورداغن ٢٢ تموز و ١٩ آب ١٩٥٣ .

(4) Jordbrukarnas Foeringsblad, Loerdagen (Sverige) بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٥٤

٥ – فنونه

برع الشابي في فنون الشعر الوجدانية فله غزل كثير ونسيب ، وله شيء من الرثاء ، ثم له قصائد سياسية وموضوعية في مظاهر العالم، وله تأمل في الحياة وشيء من التحليل النفسي. والشابي لم يكن شاعراً متكسباً .

على ان اوسع فنونه الغزل والسياسة . اما تأمله في الحياة فمبثوث عادة في هذين الفنين العظيمين من فنونه الشعرية .

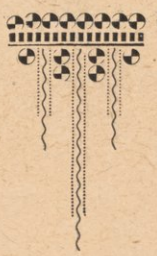

الغزل عند الشابي

للشابي بضع قصائد في الغزل قالها قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغ العشرين. وهي مزيج من الغزل والنسيب، وفيها غزل صريح ومجون احياناً، وفيها ألم وحسرة وشقاء وتشاؤم حيناً آخر. وفي غزله ونسيبه رنة أسى تطغي عليهما طغياناً كبيراً.

واكثر غزل الشابي قاله قبل بلوغ العشرين، وذلك امر منتظر. ثم ان اكثر هذا الغزل عادي صريح ضعيف الخيال والبناء كثير التقليد، وهذا ايضاً منتظر. وفي هذه الفترة - في السنوات الاخيرة قبل ان يبلغ الشابي العشرين من عمره - تزوج زواجه الخائب ثم أحب حبه الجارف ثم ماتت حبيبته.

من اول ما نرى من الغزل عند الشابي اربعة ابيات عادية تقليدية اولها [1]:

عللتني بارتشاف الضَرَبِ من جنى ثغرٍ جميل أشنب [2]
قد تجلى طلعه من ضلم يخلب اللب بنظم الحبب [3]

يذكر فيها اخلاف حبيبته بوعدها. ثم يبدو انه نال وصال هذه الحبيبة فذكر ذلك في قصيدة قديمة الاسلوب ضعيفة، يذكر فيها الشابي شبه مغامرة تحمل شبهاً لرائية عمر بن ابي ربيعة [4]. أما مبدأ هذه القصيدة فهو [5]:

---

(١) سنوسي ٢٤٣.
(٢) الضرب: العسل، الشنب بياض الاسنان، والبرودة ايضاً.
(٣) كذا في الاصل. ضلم يجب ان تكون ظلم. والبيت غامض المعنى جداً.
(٤) أمن آل نعم انت غادر فمبكر.
(٥) سنوسي ٢٤٥.

أنا مأسورٌ لذات الحُجُبِ بنبال صُوِّبت عن كثبِ [1]
كاعبٌ هيفاء بَضٌّ طَفْلَةٌ دُمية منها جميع العجبِ [2]
خطرت تمشي بروض زاهر مِشية الخيل بوحل السبسب [3]

ثم يقول :

لست أنسى ليلة حالكة سُربلت زرقاؤها بالسحب [4]
لبست ثوب ظلام دامس وسكون هائل ذي رهب [5]
ليلةً قد خُضتها منفرداً في دياجي جوف ذاك الغيهب [6]
سار بي مهريَ فيها عَنَقاً وزماناً سيره ذو خبب [7]

حتى يقول :

فقضينا ليلة جادت بها راحة الدهر الضنين القُلَّب [8]
تحت ظل الحب والليل الذي ضمَّنا في كفه يسخر بي
هكذا ... حتى إذا روّعنا ذنب الصبح كذنْب [9] العقرب!
ثم قالت : يا حبيبي ، سر على كلأ [10] الرحمن في المنقَلَب
فتوادعنا وكلٌّ قلبه في جحيم مؤلم ملتهب .

وللشابي بضع قصائد من هذا النوع ليس فيها ابتكار ولا حسن خيال ولا قوة تعبير كقوله [11] :

---

(١) كثب : قرب .
(٢) طفلة (بفتح الطاء) : ناعمة، لينة . دمية : «جميلة مثل» الصورة او التمثال.
(٣) السبسب : الارض التي لا ماء فيها .
(٤) زرقاؤها : سماؤها .
(٥) رهب : خوف ، إخافة .
(٦) الغيهب : الظلام .
(٧) الخبب : نوع من السير ؛ يراوح فيها الحصان بين يديه ورجليه . في هذا السير مرح ونشاط .
(٨) القلب الذي لا يدوم على حال .
(٩) كذا بسكون النون والصواب فتحها .
(١٠) الكلأ : العشب ، ويقصد الشابي كلاءه (بسكون اللام) او كلاءة : الحفظ والرعاية .
(١١) سنوسي ٢٤٦ .

قلبي تردّى من على صهوات خيل الهوى فغدا أسير فتاة [1] ؛
معطارُ غاسقة الفروع عليلة الـ أجفان ساحرة بعين مهاة [2] .
ترنو فتغزو كل قلب ثابت بشفار اشفار وحد قناة [3] !

ولم يبد على غزل الشابي ونسيبه شيء من البراعة ، في هذا الدور ، حتى بدأ يشكو من الدهر ومن ضيق الحياة ، ذلك لأنه بدأ يعبر عما يشعر هو به كقوله [4] :

ايها الحب ، انت سر بلائي وهمومي وروعتي وعنائي
ونحولي وأدمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائي

فهذه القصيدة تعد اثني عشر بيتاً فيها شيء من التجديد ، ولكن الترديد الكثير الذي فيها يطغى على ذلك التجديد فيذهب برونقه .

وأخيراً صفا شعر الشابي في الغزل لما اطلق نفسه على سجيتها فصعّد الزفرات واكثر الشكوى وتبع الجمال حيث رآه . ولقد كان يعكر عليه صفوَ حبه ان حياته مهددة في كل ساعة ، وان هذه اللذة العظمى مدعاة الى تقصير أجله . ومما قد يحملنا على الاستغراب انه ليس للشابي براعة تذكر في غزله قبل العشرين من سنه .

اما بعد العشرين فقد اتسع باب الغزل عنده ممزوجاً مرة بالشكوى والتشاؤم ، ومرة بالاندفاع والمجون . ولكن الشابي كان يميل في شعره هذا دائماً الى التجديد .

ومن اول ما يطالعنا في هذا الباب ان الشابي ظل - بعد ان جاوز العشرين من عمره يذكر حبه الاول [5] :

---

(١) تردى : سقط .

(٢) معطار : لها شذا العطر وان لم تستعمل عطراً . وحق « معطار » التنوين . غاسقة الفروع : شديدة سواد الشعر . المهاة : بقر الوحش ، نوع من الظباء .

(٣) بشفار اشفار : باهداب عيونها ؛ وهو يشبه كل هدب بشفرة . وحد قناة : انف اقنى (مستقيم) - [illegible] حد قناة » غامضة .

(٤) سنوسي ٢٤٤ ، الشابي ١٢٦ .

(٥) فهمي ٧١-٧٢ ، الشابي ١٨٢-١٨٣ .

لستُ، يا أمسيَ، أبكيـ ـك لمجـد او لجاه
سلبتـه منّيَ الدنـ ـيا وبزتـني رِداه[1]
. . . . . .
إنمـا أبكيك للحـ ـب الذي كان بهاه[2]
يملأ الدنيـا فأنّى سرتُ في الدنيا أراه
فإذا ما لاح فجـرٌ كان في الفجر سناه
وإذا غرّد طـيرٌ كان في الشدو صداه
وإذا ما ضاع[3] عطـرٌ كان في العطر شذاه ...

ثم يمر الشاعر في طور جديد: يرى ان لا فائدة من بكاء هذا الحب ـ وحياته هو كلها اسى وبكاء ـ فيحاول ان يسلي نفسه وان يتبدل بذلك الحب القديم حباً جديداً، كما ان الارض تتبدل دائماً بربيعها الماضي ربيعاً آتياً[4].

اسكتي يا جراحْ واسكني يا شجونْ
مات عهد النُّواح وزمان الجنـون
وأطلّ الصبـاح مـن وراء القرون

*

في فؤادي الرحيبْ معبـدٌ للجـمال
شيّدته الحيـاهْ بالرُّؤى والخيـال
فتـلوت الصلاه في خشوع الظلال
وحرقت البَخورْ وأضأتُ الشموع
ان سحر الحيـاهْ خالد لا يزولْ .
فعـلامَ الشُكاهْ من ظلام يحولْ ؟
ثم يـأتي الصباحْ وتمـر الفصـول
سوف يأتي ربيـع ان تقضّى ربيـع !

* * *

(١) رداه : ثوبه (الصحة) .
(٢) كان الحب بهاء لامسي .
(٣) ضاع : انتشر ، فاح .
(٤) فهمي ٥٧-٥٩ ، الشابي ٢١٥ .

ويحسن ان نبدأ هذا الدور باثبات القصيدة التي يعدها محمد فهمي « عروس قصائد هذا الشاعر بل عروس جميع القصائد الغزلية في الشعر العربي »[1] اذ يبدو انه راعه فيها عدد من التشابيه والاستعارات ابتداء من البيت السابع والعشرين. اما نحن هنا فيهمنا ان نرى فيها حباً جديداً لفتاة جديدة في حياة الشاعر. ولا أرانى موافقاً لمحمد كرو الذي يرى ان هذه القصيدة بعينها قد قالها الشابي في فتاته الاولى التي « قد ماتت قبل وفاته بست سنوات تقريباً »[2]. ان قوله:

انتِ تُحيين في فؤادي ما قد مات في امسي السعيد الفقيد ،
وتشيدين في خرائب روحي ما تلاشى في عهدي المجدود[3]
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد .
وتبثين رقة الشوق والاحلام والشجو والهوى في نشيدي ،
بعد ان عانقت كآبةُ ايامي فؤادي وألجمت تغريدي .
. . . . . .
فانفخي في مشاعري مرح الدنيا وشُدي من عزمي المجهود ،
وابعثي في دمي الحرارة علِّي اتغنى مع المنى من جديد .

يدل على ان القصيدة التي منها هذه الابيات قيلت في فتاة غير فتاته الاولى. انه يريد من هذه الفتاة ان تعيد عهده السابق الذي كان قد انقضى. اما القصيدة كلها فهي[4]:

عذبةٌ انت كالطفولة ، كالاحلا م كاللحن كالصباح الجديد ؛
كالسماء الضحوك ، كالليلة القمرا ءِ كالورد ، كابتسام الوليد .
يا لها من وداعة وجمال وشباب منعم أُملود[5] .
يا لها من طهارة تبعث التقديـ س في مهجة الشقي العنيد .

(١) فهمي ص ٤٥ ، الحاشية ١ .
(٢) الشابي ٧٤ .
(٣) كذا في فهمي (ص ٤٦) ، في الشابي : المجدود (ص ١٥٧) .
(٤) فهمي ٤٥-٤٨ ، الشابي ١٥٦-١٥٩ .
(٥) هذا البيت ناقص في الشابي .

يا لها رقةً يكاد[1] يرف الور ... د منها في الصخرة الجلمود .
اي شيء تراكِ ؟ هل انت فينو ... س تهادت بين الورى من جديد[2]
لتعيد الشباب والفرح المعسو ... ل للعالم التعيس العميد ؟
ام ملاك السلام جاء الى الار ... ض ليُحيي روح السلام العهيد[3] ؟
انت ، ما انت ؟ انت رسم جميل ... عبقري من فن هذا الوجود .
فيك ما فيه من غموض وعُمق ... وجمال مقدس معبود .
انت ، ما انت ؟ انت فجر من السحـ ... ـر تجلى لقلبي المعمود
فأراه الحياة في مُونِق الحسن[4] ... وجلّى[5] له خفايا الخلود
انت روح الربيع تختال في الدنـ ... ـيا فتهتز رائعات الورود .
وتهبّ الحياة سكرى من العطـ ... ـر ويَدْوي الوجود بالتغريد .
كلما ابصرتك عيناي ، تمشين ... بخطوٍ موقع كالنشيد ،
خفق القلب للحياة ورَف الزهـ ... ـر في حقل عمري المجرود
وانتشت روحي ، الكئيبة بالحب ، ... وغنت كالبلبل الغرّيد .
انت تحيين في فؤاديَ ما قد ... مات في امسي السعيد الفقيد
وتُشيدين في خرائب روحي ... ما تلاشى في عهديَ المجدود[6] :
من طموح الى الجمال ، الى الفن ، الى ذلك الفضاء البعيد ؛
وتبثين رقة الشوق والاحـ ... ـلام والشجو والهوى في نشيدي ،
بعد ان عانقت كآبةُ أيّا ... مي فؤادي وألجمت تغريدي .
انت انشودة الأناشيد غنّا ... كِ إلـه الغناء رب القصيد :
فيك شب الشباب وشّحه السحـ ... ـر وشدو الهوى وعِطر الورود ؛

---

(١) في « فهمي » : تكاد.
(٢) فينوس ؛ الزهرة (بضم الزاي وفتح الهاء) كوكب سيار ، آلهة الجمال عند اليونان .
(٣) العهيد : القديم .
(٤) في الشابي ، السحر ، وهو خطأ .
(٥) جلى ، كشف .
(٦) في الشابي ، المحدود ، والمجدود اصوب .

وتراءى الجمال يرقص رقصاً قدسياً على أغاني الوجود.
وتهادت في افق روحك اوزا ن الأغاني ورقة التغريد[1]،
فتمايلت في الحياة كلحن عبقري الخيال حلو النشيد:
خطوات سكرانة بالاناشيـ د وصوت كرجع ناي بعيد،
وقوام يكاد ينطق بالألحا ن في كل وقفة وقعود.
كل شيء مُوَقَّعٌ فيك حتى لفتةُ الجيد واهتزاز النهود!
انت انت الحياة في قدسها السا مي وفي سحرها الشجي * الغرّيد.
انت انت الحياة في رقة الفجـ ر وفي رونق الربيع الوليد.
انت انت الحياة كل أوان في رداءٍ من الشباب جديد.
انت انت الحياة فيك وفي عينيـ ك آيات سحرها المعدود[2].
انت دنيا من الاناشيد والاحـ لام والسحر والخيال المديد.
انت فوق الخيال والشعر والفـن وفوق النهى وفوق الحدود.
انت قدسي ومعبدي وصباحي وربيعي ونشوتي وخلودي.

*

يا ابنة النور، انني – انا وحدي – مَنْ رأى فيك روعة المعبود،
فدعيني أعيشُ في ظلك العذ ب وفي قرب حسنك المشهود[3]
عيشةً للجمال والفن والالـ هام والطهر والسنى والسجود،
عيشةَ الناسك البتول يناجي الرب في نشوة الذهول الشديد[4]
وامنحيني السلام والفرح الرو حيَّ يا ضوء فجري المنشود،
وارحميني فقد تهدمت في كو نٍ من اليأس والظلام مشيد.
انقذيني من الأسى فلقد أم سيت لا استطيع حمل قيودي:
في شعاب الزمان والموت أمشي تحت عبء الحياة جم القيود،

(١) هذا البيت ناقص في الشابي.
(*) الشجي هنا بتسهيل الياء (بغير تشديد) احتيالاً على إقامة الوزن.
(٢) هذا البيت ناقص في الشابي.
(٣) في الشابي، المعبود.
(٤) الرب كلمة نابية نافرة في هذا الموضع خارجة على عمود البلاغة من ادخال لام التعريف عليها.

وأماشي الورى ونفسي كالقبـ ـر وقلبي كالعالم المهدود.
ظلمةٌ ما لها ختام، وهول شائع في سكونها الممدود.
واذا ما استخفني عَبَثُ[1] النا س تبسمت في أسىً وجمود
بسمة مُرّة كأنيَ استلُّ من الشوك ذابلات الورود؛
وانفخي في مشاعري مرَح الذ يا وشدّي من عزمي المجهود؛
وابعثي في دمي الحرارة علّي اتغنى مع المنى من جديد،
وأبث الوجود أنغام قلب بُلبليٍّ مكبلٍ بالحديد،
فالصباح الجميل ينعش بالدّفء حياةَ المحطّمِ المكدود.
انقذيني فقد سئمت ظلامي، انقذيني فقد سئمت ركودي.

*

آه، يا زهرتي الجميلة، لو تد رينَ ما جَدّ في فؤاد الوحيد!
في فؤادي الغريب تُخلَقُ اكوا نٌ من السحر ذاتُ حسن فريد،
وشموسٌ وضّاءةٌ ونجوم تنثر النور في فضاء مديد،
وربيع كأنه حلم الشاعر عر في سكرة الشباب السعيد،
ورَباةٌ لا تَعرِفُ الحلك الدا جي ولا ثورة الخريف العتيد[2]،
وطيور سحرية تتناغى بأناشيدَ حلوةِ التغريد،
وقصور كأنها الشفق المخـ ضوب او طلعة الصباح الوليد،
وغيوم رقيقة تتهادى كأباديدَ من نُثار الورود،
وحياة شعرية هي عندي صورة من حياة اهل الخلود.
كل هذا يشيده سحر عينيـ ـك وإلهام حسنك المعبود.
وحرامٌ عليك ان تسحقي آ مالَ نفس تصبو لعيش رغيد.
منك ترجو سعادة لم تجدها في حياة الورى وسحر الوجود!
فالاله العظيم لا يرجم العبد اذا كان في جلال السجود.

(١) هزل، اتيان اعمال لا فائدة منها.
(٢) الرباة: الربوة، التلة الصغيرة. العتيد، الامر المهيأ الحاضر. والشابي يقصد، المقبل. (والاستعمال سرياني، «عتيدا»، مضارع، مستقبل).

وهنالك ايضاً قصيدتان توحيان بأن الشابي احب ثم اغرق في حبه ومجّن بعد ان كان حزيناً شاحباً ويائساً من الدنيا . ان هذا لا يمكن ان يكون الا بعد ان استفاق في قلبه حب جديد . تبدأ القصيدة الاولى هكذا [١] :

راعها منه صمتُـــهُ ووجومُهْ وشجاها شحوبه وسهومـــه [٢] .
فاطلت بوجهها البـــاسم الحلـ و على خـــده بسحر تهيمه [٣] .
وامرّت كفّاً على شعره العـــا رى برفق كأنها ستنيمـــه
ثم قـــالت ، كأنها تتغنى بشجي من الاغـــاني ، تلومه :

ثم يتابع الشاعر قوله على لسان هذه الفتاة :

خل عبء الحيـــاة عنك وهيا بحيا كالصبح طَلْـقٍ اديمـــه ،
وامشِ في روضة الشباب طروباً فحواليـــك ورده وكرومه ،
واتـــل للحب والحياة اغانيـ ـك وخل الشقـــاء تَدْمى كلومه ؛
واحتضنّي فانـــني لك حـــتى يتوارى هذا الدجي ونجومُـــهُ ،
واقطف الورد من خدودي وجيـ ـدي ونهودي وافعل به ما ترومه.

ثم يختم الشابي قصيدته هذه بالابيات التالية :

فرماهـــا بنظرة غشيتهـــا سكرة الحب والاسى وغيومه .
وتلاهـــا ببسمة قطفتهـــا شفة غضة الشباب رؤومـــه .
ما تريد الهموم من عالم ضـا عت مسراتـه وغنت نجومه :
ليـلة اسبـل الغرام عليهـــا سحره الناعمَ الطريرَ نعيمـه .
اغرق الفيلسوف فلسفـة الاحـ ـزان في خمرها . فمن ذا يلومه ؟
ان في المرأة الجميـــلة سحراً عبقرياً يـــذكي الاسى ترنيمه !

ونحن نرى ايضاً مثل هذا المجون في قصيدة ثانيـــة مملوءة بالمرح ونسيان الماضي

---

(١) الشابي ١٦٠–١٦٢ .
(٢) السهوم ، تغير اللون والنحول .
(٣) يقصد أهامه وهيمه .

وتطلبِ الاستفادة من الحاضر . هذه القصيدة الثانية هي [1] :

ها هنا ، في خمائل الغاب تحت الزا ... ن والسنديان والزيتون ،
انتِ اشهى من الحياة وابهى ... من جمال الطبيعة الميمون .
ما ارقَّ الشبابَ في جسمك الغـ ... ـض وفي جيدك البديع الثمين !
وألذَّ الحياة حين تغنيـ ... ـن فأصغي لصوتك المحزون !
قد تغنيت منذ حين بصوت ... ناعمٍ حالمٍ شجيٍّ حنون
نغماً كالحياة عذباً عميقاً ... في حنان ورقة وحنين .
فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت : ... للضياء البنفسجي الحزين ،
للضباب المورد المتلاشي ... كخيالات حالم مفتون ،
للمساء المطل ، للشفق السا ... جي ، لسحر الاسى وسحر السكون .

. . . . . .

للشباب السكران ، للأمل المعبو ... د ، للبأس [2] ، للأسى ، للمنون .
فتهدتُّ ثم قلت : « وقلبي ... من يغنيه ؟ من يجيب شجوني ؟ »
قالت : « الحب » ، ثم غنت لقلبي ... قُبُلًا عبقرية التلحين ،
قُبُلًا علمت فؤادي الأغاني ... وأنارت له ظلام السنين ،
قبلًا ترقص السعادة والحـ ... ـب على لحنها العميق الرصين .
وأفقنا ، فقلت كالحالم المسحو ... ر : « قولي ، تكلمي ، خبريني !
اي دنيا مسحورة ، اي رؤيا ... طالعتني في ضوء هذي العيون ؟
رُمَزٌ من ملائك العالم الأعـ ... ـلى يُغَنُّون في حنو حنون ؛
وصبايا رواقصٌ يتراشقـ ... ـن بزهر التفاح والياسمين
في فضاء مُوَرَّدٍ حالم ساـ ... ـهٍ أطافت به عذارى الفنون
وجحيم تؤجج تحت فراديـ ... ـسَ كأحلام شاعر مجنون .
اي خمر مؤجج ولهيب ... مسكر ؟ اي نشوة وجنون .
اي خمر رشفت ، بل اي نارٍ ... في شفاه بديعة التكوين

---

(١) الشابي ١٦٦-١٦٩.
(٢) كذا في الاصل ، لعلها : للبأس .

وردتها الحيـــاة في لهب السحـ ـر ونور الهوى وظل الشجون!
اي إثم مقدسٍ قـد لبسنـا بُرْدَهُ في مسائنا الميمون!
وسكتنا ، وغرّد الحب في الغا ب فأصغي حتى حفيفُ الغصون .
وبـنى الليـــل والربيع حوالَيْـ ـنا ، من السحر والرُّؤى والسكون،
معبـــداً للجمال والحب شعر ياً مَشيداً على فجاج السنين ؛
تحته يزخر الزمان ويجري صامتـــاً في مصبه المحزون ،
وتمر الآلام والحزن والمو ت بعيداً عن ظله المأمون .

هذا الغزل والمجون من شعر الشابي بعد العشرين من عمره[1] وبعد ان كانت حبيبته الاولى قد ماتت وقال فيها قصائده الحزينة ، تدل على حب جديد نبت على انقـاض الحب الاول . ويصعب علينا ان نفسر هذه القصائد المجونية المتأخرة غير هذا التفسير . ثم هنالك عامل نفسي : ان كثيراً من الذين أحبوا حباً صادقاً ثم اصابتهم صدمة في حبهم هـــذا قد انقلبوا منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى متهتكين . ويبدو ان الشابي ـ مما نرى من شعره على الاقل ـ كان من هؤلاء .

(١) الشابي ١٤١ وما بعدها ، فهمي ٤٥-٧٢ .

الطبيعة في شعر الشابي

اذا عنينا « بالطبيعة » عند الشابي ان في اشعاره كلمات تدل على مظاهر العالم المادي كالجبال والغيوم والرياح والاثمار والازهار والربيع والغابة، فان جميع شعره حينئذ يدخل في باب «وصف الطبيعة»،ذلك لأن هذه الكلمات كثيرة في اشعاره كثرة تطغى على كل نوع آخر من الكلمات . ولكننا نعني بوصف الطبيعة عند الشابي تلك الصور المقتنصة من العالم المادي الذي نعيش فيه .

ووصف الطبيعة عند الشابي ـ بهذا التعريف ـ قليل جداً ، بل هو نادر بالاضافة الى مجموع شعره . على ان اقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان : قصيدته في تونس ، وقصيدته « من اغاني الرعاة » .

أما قصيدته الاولى فهي « ذكريات » ايامه الاولى في بلدته في بلاد الجريد من جنوبي تونس . والوصف الحسي ـ على الحصر ـ في هذه القصيدة قليل جداً ، ولكن فيها عدداً من الصور الطبيعية مجموع بعضها الى بعض على غير نسق مخصوص،انه يؤلف قصيدة ولكنه لا يؤلف وحدة وصفية . ثم ان وصف الطبيعة في هذه القصيدة غير مقصود لذاته ولكنه تمهيد الى « شكواه » المعهودة من الحياة . هذه القصيدة موسومة بالجنة الضائعة ، وهي [1] :

كم من عهود عذبة في عدوة[2] الوادي النضيرْ .
فضيّة الاسحار مُذْ هبّة الاصائل والبكورْ .
كانت أرقّ من الزهو ر ومن اغاريد الطيور

(١) الشابي ١٨٤–١٨٨ .
(٢) العدوة (بالكسر او الضم) : ناحية النهر او البحر (الناحية المقابلة للمكان الذي يقف فيه الانسان) .

وألذّ من سحر الصبا في بسمةِ الطفل الغريرْ .
قضّيتها ومعي الحبيبـ ـةُ لا رقيبَ ولا نذير
إلا الطفولةُ حولنا تلهو معَ الحب الصغير ،
ايام كانت للحيا ـةِ حلاوةُ الروض المطير
وطهارةُ الموجِ الجميـ ـلِ وسحر شاطئه المنير
ووداعةُ العصفور بيـ ـن جداول الماء النمير ،
ايام لم نَعرِف من الد نيا سوى مرح السرور
ونَتَبُّعِ النحل الانيـ ـق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكال بالصنوبر والصخور
وبناء اكواخ الطفو لة تحت اعشاش الطيور:
نبني وتهدمها الريا حُ فلا نَضُجُّ ولا نثور ،
ونعود نضحك للمرو ج وللزنابق والغدير ،
ونخاطب الأصداء وه يَ تَرِفّ في الوادي المنير ،
ونعيد اغنية السوا قي وهْيَ تلغو بالحرير ،
ونظل نركض خلف اسـ ـراب الفراش المستطير
ونمر ما بين المروج الـ ـخضر في سكر الشعور:
نشدو ونرقص كالبلا بل للحياة والحبور
ونظل ننثر ، للفضاء الر حبِ والنهر الكبير ،
ما في فؤادينا من الـ ـاحلام او حلو الغرور ،
ونَشِيدُ في الافق المنوّ ر من امانينا قصور
ازهى من الشفق الجميـ ـل ورونق المرج الخضير
وأجلّ من هذا الوجو د وكل امجاد الدهور .
ابداً تدللنا الحيا ة بكل انواع السرور
وتبث فينا من مُزاح الـ ـكون ما يُغوي الوقور
فنسير نَنْشُدُ لهونا الـ ـمعبود في كل الامور

ونظـل نعبث بالجلي ـ ـ ـ ل من الامور وبالحقير :
بالسائـل الاعمى وبالـ ـ ـ معتوه والشيخ الكبير ،
بالقطـة البيضـاء بالشا ـ ـ ـ ةِ الوديعـة ، بالحمـير ،
بالعشب ، بالفنن المنو ـ ـ ـ ر ، بالسنابل ، بالشعير[1] ؛
بالرمل ، بالصخر المحطّـ ـ ـ م ، بالجداول ، بالغدير .
واللهو والعبَث[2] البري ـ ـ ـ ء الحلو مطمحنا الاخير .
ونظـل نقفز او نغني ـ ـ ـ او نـثرثر او نـدور
لا نسأمُ اللهوَ الجميـ ـ ـ لَ وليس يدركنا الفتور .
فكأننـا نحيـا بأء ـ ـ ـ صابٍ من المرح المثير ،
وكأنما نمشي بأقـ ـ ـ دام مجنحـة تطـير
ايام كنا لب هـذا الـ ـ ـ كون والبـاقي قشور ؛
ايام تَفرش سُبُلَـنا الد ـ ـ ـ نيـا باوراق الزهور ،
وتمرُّ ايـام الحيـا ـ ـ ـ ة بنا كأسراب الطيور
بيضـاءَ لاغيـةً مغرّ ـ ـ ـ دة مجنحـةً بنور
وترفرف الافراح فو ـ ـ ـ ق رؤوسنا أنّـى نسير .

*

آهٍ ، توارى فجريَ الـ ـ ـ قدسيُّ في ليل الدهور
وفَنِـي كما يفـنى النشيـ ـ ـ ـد الحلو في صمت الاثير .
أواهُ ، قد ضاعت عليّ ـ ـ ـ سعـادةُ القلب الغرير ؛
وبقيت في وادي الزما ـ ـ ـ ن الجهم أدأب في المسير
وأدوس أشواك الحيـا ـ ـ ـ ة بقلبيَ الدامي الكسير ،
وأرى الأباطيل الكثير ـ ـ ـ ة والمـآثم والشرور ،
وتصـادم الاهواء بالاهـ ـ ـ واء في كل الامور

---

(١) كذا في الاصل .
(٢) العبث (بفتح ففتح) : اللعب ، اللهو .

ومـذلة الحق الضعيـ ـف وعزة الظلم القدير ؛
وأرى ابن آدم سـائراً في رحلة العمر القصير ،
ما بين احوال الوجو د وتحت اعباء الضمير ،
متسلقاً جبـلَ الحيـا ة الوعر كالشيخ الضرير
دامي الأكف ممزق الـ اقـدام مغبّر الشعور
متزنح الخطوات مـا بين المزالق والصخور ،
هالتـه اشبـاح الظـلا م وراعه صمت القبور
ودويّ اعصار الأسى والموت في تلك الوعور.

*

ماذا جنيت من الحيا ة ومن تجاريب الدهور
غيرَ الندامـة والاسى واليأس والدمع الغزير .
هذا حصادي من حقو ل العالم الرحب الخطير .
هـذا حصـادي كله في يقظة العهد الاخير .

*

قد كنت في زمن الطفو لة والسذاجـة والطهور
أحيا كما تحيا البـلا بل والجداول والزهور ،
لا تحفِلُ[1] الدنيا تدو ر بأهلها او لا تدور .
واليوم أحيـا مرهق الـ اعصاب مشبوب الشعور
متأجج الاحساس أحْـ فل بالعظيم وبالحقـير ،
تمشي عـلى قلبي الحيـا ة ويزحف الكون الكبير.
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما اشقى المصير !

على ان القصيدة الثانيـــة : « من اغاني الرعاة» اقرب الى وصف الطبيعة واشد صلة بالحياة الطبيعية ، واسهل اسلوباً وابعد عن « الخيال المصنوع » الذي يملأ به الشابي قصائده. ولعل مرجع ذلك الى ان الشابي نظم هذه القصيدة في مشاهد رآها وعايشها ولم يروها من

(١) اي لا تحفل الطيور : لا تبالي

ذكرياته . ذكر محمد فهمي في كتابه «الروائع لشعراء الجيل»[1] سبب نظم هذه القصيدة فقال :

حل الشاعر في الصائفة الماضية[2] بعين دراهم[3] من الشمال التونسي مستشفياً . وهناك ـ فوق الطبيعة العذراء الساحرة والغابات الملتفة الهائلة والجبال الشم المجللة بالسنديان ـ قضى عهداً شعرياً وادعاً خالصاً للشعر والسحر والاحلام . وفي القصيد التالي صورة صغيرة من صور الحياة بين تلك الجبال والاودية والغابات » .

ولا ريب في ان هذه القصيدة موفقة جداً في وصفها للحياة البسيطة الفطرية ، وهي بلا ريب خارجة من قلب الشاعر واحسن تعبيراً عن نفسه من عدد من قصائده التي تكثر الصنعة المعنوية فيها. ولقد لفتت هذه القصيدة انظار الشاعر الاسوجي كارل ألوف سفننغ[4] فنقلها شعراً الى اللغة الاسوجية (السويدية) بعد ان قدم له بكلمة في حياة الشاعر وخصائصه .

وهذه القصيدة منظومة رباعيات مزدوجة ، كل مقطع ثمانية اشطر قصار على روي واحد . أما القصيدة فهي فيما يلي كاملة[5] :

اقبلَ الصبح يغني للحياةِ الناعسهْ ،
والربى تحلمُ في ظلِّ الغصونِ المائسه ،
والصبا ترقص اورا ق الزهور اليابسه .
وتهادى النور في تلـ ـك الفِجاج الدامسه .

*

(١) الجزء الاول ، ص ٥٤ .

(٢) لا سبيل الى تحقيق السنة التي يشير اليها محمد فهمي . ان كتابه لا يحمل تاريخ طبعه، غير انه ضم الى هذا الجزء ترجمة للشاعر الهمشري وذكر ان عام وفاته كان كانون الاول ١٩٣٨، (ص ٩) مما يدل على ان الكتاب طبع عام ١٩٣٩ على الاقل . اما الشابي فتوفي ١٩٣٤ . ويبدو ان محمد فهمي نقل هذه المقدمة من مجموع مخطوط ولم يفكر في تحويرها لتوافق سنة طبع كتابه. ولكن لا بد من ان تكون هذه القصيدة من اخريات قصائد الشابي .

(٣) عين دراهم بليدة في الشمال الغربي من تونس قريبة جداً من حدود الجزائر .

(4) Carl Elof Svenning.

(٤) راجع ص ١٨٧ ، الحاشية ٣

(٥) فهمي ٥٤-٥٦ ، كرو ٢٠٨-٢١٠ .

اقبل الصبحُ جميلاً يملأ الافقَ بهاهْ
فتمطّى الزهر والطيـ ـرُ وأمواجَ المياه .
قد أفاق العالمُ الحيُّ وغنى للحياه ،
فأفيقي يا خِرافي وهلمّي [1] يا شياه .

*

واتبعيني يا شِياهي بين اسراب الطيور ،
وأملأي الوادي ثغاءً ومِراحاً وحبور .
واسمعي همس السواقي وانشقي عِطر الزهور
وانظري الوادي يُغَشّيـ ـه الضبابْ المستنير .

*

واقطفي من كلأ الار ضِ ومرعاها الجديدْ ،
واسمعي شبّابتي تشـ ـدو بمعسول النشيد
نَغَمٌ [2] يصعد من قلـ ـبي كأنفاس الورود
ثم يسمو طائراً كالـ ـبلبل الشادي السعيد .

*

وإذا جئنا إلى الغا ب وغطّانا الشجرْ ،
فاقطفي ما شئتِ من عشـ ـبٍ وزهـر وثمر
أرضعته الشمسَ بالضوْ ءِ وغذّاه القمر
وارتوى من قَطَرات الطَّلِّ في وقت السحر .

*

وامرحي ما شئت في الود يان او فوق التلالْ ،
واربضي في ظلها ما شئت إن خفت الكَلال ،
وامضغي الاعشابَ والـ افكار في صمت الظلال ،

---

(١) في الشابي ، واهرعي لي يا شياه .
(٢) كذا في فهمي وفي الشابي . والاصوب: نغماً

واسمعي الريحَ تغني في شماريخ الجبال .

*

ان في الغابِ أزاهيـ ـراً [1] واعشاباً عِذابْ
يُنشد النحل حواليـ ـها اهازيجَ طِراب ،
لم تدنّس عطرها الطا هرَ أنفاسُ الذئاب
لا ولا طاف بها الثعـ ـلب في بعض الصحاب ؛

*

وشذاً حلواً وسحراً وسلاماً وظلال
ونسيماً ساحرَ الحطـ ـوةِ موفورَ الدلال
وغصوناً يرقصُ النو رُ عليها والجمال
واخضراراً ابدياً ليس تمحوه الليال .

*

إن تَمَلّي، يا خرافي ، من حمى الغاب الظليلْ ،
فزمانُ الغابِ طفل لاعبٌ عذبٌ جميل ؛
وزمان الناس شيخ عابسُ الوجهِ ثقيل
يتمشى في مَلالٍ فوق هاتيك السهول .

*

لك في الغابات مرعايَ ومسعاي الجميلْ ،
وليَ الانشادُ والعز ف الى وقت الاصيل .
فاذا طالت ظلال الـ ـكلأ الغض الضئيل
فهلمي نَرْجِعُ [2] المسـ ـعى الى الحي النبيل .

---

(١) ازاهير ممنوعة من الصرف ، واذا بقيت في هذا البيت ممنوعة فان وزنه لا يختل .

(٢) رجع يرجع (بوزن : ضرب يضرب) : ردّ ، اعاد . — والمعنى المقصود في البيتين الاخيرين غامض ، إلا ان يكون الشاعر قد قصد « اذهب بك الى الغابات لترعين العشب فيها ريثما يطول العشب في حينا النبيل فنعود اليه » .

السياسة والقومية

وقصائد الشابي في الوطنية والسياسية والقومية لا تقل عن قصائده الجياد في الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى ان شهرة الشابي كلهـــا مدينة لشعره القومي أو لبضعة ابيات من شعره القومي . وقصائد الشابي الوطنية والسياسية مزيج من الاسلوب القديم والاسلوب الحديث ، ومن القـوة والسلاسة ، ومن التشاؤم والتفاؤل . ولقد نظم هذه القصائد في طوريه كليهما : قبل ان يبلغ العشرين وبعد ان بلغها .

وفي قصائده الاولى من هذا الباب ـ قبل ان يبلغ العشرين ـ فخر وتهديد وامـــل بالمستقبل ، وكثير منها يجري الشاعر فيه على الاسلوب القديم الفخم المتين (مع ضعف في اللغة او التركيب هنا وهناك) كقوله[1] :

أرى المجد معصوب الجبين مُجَدَّلا ... على حسك الآلام يغمره الدم [2] .
وقد كان وضّاح الاسارير باسماً ... يخف الى الجُلّى ولا يتبرم [3] .
الا ايها الظلمُ المُصَعِّرُ خدَّه [4] ، ... رُوَيْدَكَ ان الدهر يبني ويهدُمُ .
أغَرَّكَ ان الشعب مُغْضٍ على قذىً ، ... لك الويل من يوم به الشر قشعم [5] !
سيثأر للعز المحطَّمِ تاجُـــه ... رجالٌ اذا جاش الردى فهم هم ،
رجال يَرَوْن الذل عاراً وسُبَّةً ... ولا يرهبون الموت والموت مُقدِمُ .

---

(١) سنوسي ٢١٢ ، الشابي ١٠٢
(٢) معصوب الجبين : يقصد الشاعر مضمد جراح الرأس ، مجدلاً : صريعاً ، مُلقىً .
(٣) الجلى : المكرمة والأمر العظيم .
(٤) صعر خده : أمال وجهه ، اشاح بوجهه عن الناس تكبراً عليهم .
(٥) القشعم : النسر الكبير السن . يقصده يوم يعظم الشر .

وهل تعتلي إلا نفوسٌ أبيّةٌ تُصَدِّع اغلال الهوان وتفصِم .
الا إن احلام البلاد دفينة تجمجم في اعماقها ما تجمجم .
ولكن سيأتي بعد لأيٍ نشورها وينبثق اليوم الذي يترنم [1]
هو الحقُّ يبقى راكداً ، فاذا طغى باعماقه السخطُ العصوف يدمدم .
وينحط كالصخر الاصم ، إذا هوى، على هام اصنام العُتُو فيحطُم
اذا صَعِقَ الجبار تحت قيوده سيعلم أوجاع الحياة ويفهم [2] .

ثم هو يعود مرة بعد مرة الى التنويه بالظلم وتهديد الخصم والى الايمان بقوة الحق اذا التف حوله قومه [3] :

يقولون: صوت المستذلين خافت وسمع طواغيت التجبر أصخم [4] .
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع* تخر له شم العروش ، وتُهدم .
ولعلعة الحق الغضوب لها صدى، ودمدمة الحرب الضروس لها فم .
إذا التفّ حول الحق قوم فإنه [5] يصّرم أحداث الزمان ويُبرم.

وله ابيات تشنّع بالحرب [6] مطلعها :

هل الحروب سوى وحشيةٍ نهضت في أنفس الناس فانقادت لها الدول

ولكن ليس فيها براعة خاصة تذكر بها .

ومثل هذه الابيات ابياته الوطنية في تونس . غير انني آثرت اثباتها ـ على ضعفها ـ لأن الشاعر قالها في وطنه ورثى لحال ذلك الوطن إلا أنه وثق له بالمستقبل الذي سيرد له مكانته [7]:

---

(١) اللأي : الشدة والمحنة . والشابي يظن ان اللأي : المدة من الزمن .
(٢) صعق : مات من صيحة عظيمة او نحو ذلك .
(٣) سنوسي ٢١٤ ، الشابي ١٠٥
(٤) اصخم : اصم .
(٥) فان الحق
* زعزع صفة لكلمة ريح المحذوفة . وهي الريح الشديدة التي تزعزع الاشياء . وبما ان الريح مؤنثة فيجب ان يقول : تخر لها شم العروش ...
(٦) سنوسي ٢٤٠ ، الشابي ١٠٤
(٧) سنوسي ٢٤٨ ، الشابي ١٠١

لست أبكي لعسف ليل طويل أو لربع غدا العفاء مَراحَهْ[1] .
إنما عبرتي لخطب ثقيل قد عرانا ، ولم نجد من أزاحه :
كلما قام في البلاد خطيب موقظ * شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالاهي بالعسـ ـف ، أماتوا صداحه ونواحه ؛
البسوا روحه قميص اضطهاد فاتك ، شائك ، يرد جماحه ؛
وتوخوا طرائق العسف والار هاق معه ، وما توخوا السماحه[2] .
هكذا المصلحون في كل صوب رشقات الردى اليهم مُتاحه .
غير أنا تناوبتنا الرزايا واستباحت حمانا[3] أي استباحه !

انا يا تونسُ الجميلةُ ، في لج الهوى قد سبحت أي سباحه .
شرعتي حبك العميق ، وإني قد تذوقت مُرَّهُ وقَراحه[4] .
لا أُبالي ... وإن أُريقت دمائي ؛ فدماء العشاق دوماً مباحه !

إن ذا عصر ظلمة غير اني من وراء الظلام شِمْتُ[5] صباحه .
ضيع الدهر مجد شعبي ولكن سترد الحياةُ يوماً وشاحه .

ولكن الشابي سرعان ما ينظر الى قومه نظرة العاذل المؤنب لأنهم يرضون بهذه الحياة ولا يثورون على الظلم والظالمين مع ان الله خلقهم احراراً[6] :

خلقتَ طليقاً كطيف النسيـ ـم وحراً كنورِ الضحى في سماه
تغردُ كالطير أينَ أندفعـ ـتَ وتشدو بما شاءَ وحي الاله
وتمشي كما شئتَ بين المرو ج وتقطف ورد الربى في رباه .

---

(١) اصبح مكانه الخراب ، خراباً ، جاء الخراب عليه .
* كذا في سنوسي وفي الشابي . والصواب موقظاً .
(٢) توخوا الثانية يجب ان تكون أيضاً بفتح الخاء وسكون الواو ، ولكن الوزن يختل حينئذ
(٣) حمانا يختل بها الوزن لزيادة الف الضمير .
(٤) الماء القراح : الصافي الخالص .
(٥) شام : رأى
(٦) الشابي ١٤٩

كذا صاغك الله ، يا ابن الوجو د ، وألقتك في الكون هذي الحياه
فما لك ترضى بذل القيو د وتحنى لمن كبّلوكَ الجباه ؟
وتقنع بالعيش بين الكهو ف ؛ فأين النشيد وابن الاياه ؟[1]
أتخشى نشيد السماء الجميـ ل ؟ أترهب نور السما في فضاه ؟
الا انهض وسر في سبيل الحيا ةِ فمن نامَ لم تنتظره الحياهْ !

على ان اروع قصائده في هذا الباب قصيدتان طويلتان هما اللتان خلقتا له شهرة او خلقتا له الشهرة . والحق ان في هاتين القصيدتين قوة وبراعة وتحليلاً جميلاً . وهما يجريان على اسلوبة الطلق الحديث ، اذ هما من طوره الثاني بعد بلوغ العشرين،ولذلك نجد فيهما كثيراً من النضج وان كانت روح التهور لا تزال تسيطر عليهما . وكلتا القصيدتين تصور ثورةً نفسية جامحة .

اما القصيدة الاولى الموسومة « بالنبي المجهول »[2] ففيها تقريع للشعب ويأس من نهوضه وعزم الشاعر على الخلوة في غابة بعيداً عن الناس حتى لا يرى قلة استحقاقهم للحياة،لانه هو فيلسوف وشعبه جاهل لا يفهم عنه ما يقول .

وها هي القصيدة الاولى تامة وقد بدأها الشاعر بخطاب قومه[3] :

في صباح الحياة ضمّختُ اكوا بي واترعتُها بخمرة نفسي .
ثم قدمتها اليكِ فاهرقـ ت رحيقي ودست ياشعب كأسي
فتألمت ثم اسكتُّ آلا مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من ازاهير قلبي باقة لم يمسَّها ايُّ إنسي ،
ثم قدمتها اليك فمزقـ ت ورودي ودستها اي دوس .
ثم البستني من الحزن ثوباً ، وبشوك الصخور توجت رأسي .

*

(١) الاياه ، الاياة (بفتح الهمزة وكسرها) : نور الشمس . ولعلها : الاباة جمع ابيّ – بتشديد الياء : الذي لا يرضى ان يحمل الظلم .

(٢) فهمي ٦٥ ، ٤١ ، ٢٩٨ – ٢٠١

(٣) فهمي ٦٥ – ٦٨ ، الشابي ١٩٨ – ٢٠١ . في هذه القصيدة اختلاف في الترتيب . ولقد اتبعت ترتيب محمد فهمي لأنه احسن اتساقاً . اما كرو (في الشابي) فيقدم الابيات ١٢ – ٢٠ ويجعلها مطلعاً .

ها انا ذاهب الى الغـاب يا شعـ ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأس ؛
ها انا ذاهب الى الغاب علّـي في صميم الغابات ادفن نفسي ،
ثم انساكِ ما استطعت فما از ـتَ بأهلٍ لخمرتي ولكأسي .
سوف اتلو على الطيور اناشيـ ـدي وأُفضي لها باحزان نفسي ،
فهي تدري معنى الحياة وتدري ان مجد النفوس يقظة حس .
ثم اقضي هناك في ظلمةِ الليـ ـل وألقي الى الوجود بيأس [1] ؛
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ ـو تخط السيول حفرة رمسي ،
وتظل الطيور تلغو عـلى قبـ ـري ويشدو النسيم فوقي بهمس ،
وتظـلُّ الفصول تمشي حواليّ كما كن في غضارة امس .
ايها الشعب ، ليتني كنت حطّـا باً فأهوي على الجذوع بفأسي*
ليتني كنت كالسيولِ اذا سا لت تهد القبور رمساً برمس .
ليتني كنت كالرياح فـأطوي كل ما يخنقُ الزهور بنحس .
ليتني كنت كالشتاء اغشّى كلَّ ما اذبل الخريف بقَرْس [2] .
ليت لي قوةَ العواصف ، يا شعـ ـبي ، فألقي اليك ثورة نفسي .
ليت لي قوة الاعاصير إن ضجـ ـت فأدعوك للحياة بنبس [3] .
ليت لي قوة الاعاصير ، لكن انت حي يقضي الحياة برمس .
انت روح غبيّة تكره النو ـر وتقضي الدهور في ليلَ ملس [4] .
انت لا تدرك الحقائق ان طا فت حواليك دون مس وجس .

*

ايها الشعب ، انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مُغْمِس [5] .

---

(١) هذا البيت والابيات الثلاث التي تليه غير موجودة في « فهمي » .

* فأهوي يجب ان تكون منصوبة بان مضمرة بعد فاء السببية بعد التمني ، يا ليتني . وكذلك (في الابيات التالية) : فأطوي ، فألقي ، فأدعوك . ولكن الشابي فلما يفطن لذلك او انه يغفل ذلك اذا لم تتأتله استقامة الوزن بابتاع القاعدة .

(٢) القرس : البرد .

(٣) بكلام خفيف

(٤) الملس : اختلاط الظلام

(٥) اغمى الليل : اظلم .

انت في الكون قوة لم تَسُسْها فكرة عبقرية ذات بأس .
انت في الكون قوة كبّلتها ظلمات العصور من امس امس .
والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي [1] ورقة نفسي .

*

هكذا قال شاعرٌ ناول الشعـ ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنه ومرّوا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس :
« قد اضاع الرشاد في ملعب الجـ ـن ، فيا بؤسه أُصيب بمس [2] :
طالما خاطب العواصف في الليـ ـل وناجى الاموات في كل رمس ،
طالما رافق الظلام الى الغا ب ونادى الارواح من كل جنس
طالما حدّث الشياطين في الوا دي وغنّى ، مع الرياح ، بجرس [3] .
انه ساحرٌ تعلّمه السحر الشيا طينُ كلَّ مطلع شمس .
ابعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ ـكل ، ان الخبيث منبع رجس ؛
واطردوه ولا تصيخوا اليه فهو روح شريرة ذات نحس » .
هكذا قال شاعر فيلسوف * عاش في شعبه الغبي بتعس [4] .
جهلَ الناسُ روحه واغانيـ ـها فساموا شعوره سَوم بخس .
فهو في مذهب الحياة نبي ، وهو في شعبه مصابٌ بمس .
هكذا قال ، ثم سار الى الغا ب ليحيا حياة شعر وقدس [5]

*

وبعيداً هناك في معبد الغا ب الذي لا يُظله اي بؤس ،
في ظلال الصنوبر الحلو والزيـ ـتون يقضي الحياة جرساً بجرس [6]

---

(١) هذه الصيغة غير قاموسية .
(٢) المس : الجنون .
(٣) الجرس : الصوت :
* هذا الشطر لايتسق في المعنى مع الابيات التالية . فالاصوب ان يكون : ذاك ما نال شاعراً فيلسوفاً...
(٤) التعس : الشقاء والبؤس
(٥) طهارة .
(٦) في الشابي : حرساً بحرس . الحرس بالحاء المهملة : الدهر .

في الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ـر ويمشي في نشوة المتحسي[1] :
نافخاً نايه حواليْه تهتزّ وورود الربيع من كل قِنس[2] ؛
شَعرُه مُرْسَلٌ تداعبهُ الريـ ـح على منكبيه مثل الدِمَقْس،
والطيور الطِراب تشدو حواليـ ـه وتلغو في السرو من كل جنس.
وتراهُ عند الاصيل لدى الجدـ ـول يرنو للطائر المتحسي[3] ؛
او يغني بين الصنوبر او يرنو الى سَدفة الظلام المُمْسي[4].
فاذا اقبلَ الظلامُ ، وامست ظلمات الوجود في الكون تُغسي[5]
كان في كوخه الجميل مقيما يسأل الكون في خشوع وهمس،
عن مصبِّ الحياة اين مداهُ وصميم الوجود ايّان يُرسي[6] ،
وعبيرِ الورود في كل وادٍ ونشيد الطيور حين تمسّي[7] ،
وهزيم الرياح في كل فج[8] ورسوم الحياة من امس امس،
واغاني الرياح اين يواريـ ـها سكون الفضا واين تمسّي[9].

*

هكذا يصرف الحياة ويُفني حلقات السنين حرساً بحرس[10].
يا لها من معيشة في صميم الغا ب تضحي بين الطيور وتمسي .
يا لها من معيشة لم تدنّسْـ ـها نفوس الورى بخبث ورجس.
يا لها من معيشة هي في الكو ن حياة غريبة ذات قدس .

ونحن نلاحظ ان القوافي تتكرر في هذه القصيدة. فالقافية «نفس» ترددت خمس مرات و «رمس» اربع مرات و «يأس» و «امس» و «كأس» ترددت كل واحدة منها ثلاث

(١) المتحسي : الذي شرب الخمر .
(٢) قنس : اصل ، جنس .
(٣) السدفة بالفتح وبالضم : الظلمة
(٤) الذي يشرب الماء (بأمن وحرية) .
(٥) تغسي : تظلم
(٦) ايان : متى ؟ والشابي يستعملها بمعنى : اين .
(٧) تمسي (بتشديد السين) : تصدح مساء كأنها تقول للناس مساء الخير .
(٨) فج : الطريق بين جبلين .
(٩) في الشابي : اغاني الرعاة.
(١٠) حرساً : دهراً .

مرات .وهنالك نحو عشر قواف ترددت كل واحدة منها مرتين . ثم جاء الشابي بمشتقات امسى في القافية اربع مرات ايضاً .

واما القصيدة الثانية الموسومة « بارادة الحياة »[1] فهي « معلقة الشابي » . انها بلا ريب اشهر قصائده ، ولعلها احسن قصائده ايضاً . ثم انها قصيدة عامة : انها ليست وطنية في التغني بتونس وحدَها،ولا سياسية تشنع بالحرب فتوهم ان صاحبهاميال الى معسكر دولي مخصوص، ولا هي اقليمية ضيقة الافق . على ان احسن ما فيها انها مفعمة بروح الامل مليئة بالثقة بالنفس عند القول . وهذه القصيدة، كمعظم شعر الشابي ، فيها صور شعرية جميلة وتشابيه واستعارات جديدة صحيحة ، غير انها ايضاً ـ كمعظم شعره ـ مملوءة بالرمز الذي يجعل المعاني غامضة في كثير من الاحيان . على ان قيمة هذه القصيدة انما هي في ابيات معدودة متفرقة ينقص من جمالها انها تأتي بين ابيات فيها معان مرددة مكرورة معادة ، وهذه خاصة تعم شعر الشابي كما رأينا من قبل .

وعلى الرغم من ان القصيدة موضوعية تصويرية وصفية فانها ايضاً وجدانية ، حتى إنها غنيت فوجدت تعير نفسها للغناء . ولقد سار مطلع هذه القصيدة مجرى الامثال ودار على كل شفة ولسان فردده الادباء والناشئون . ولا ريب عندي بان هذا البيت المبتكر بتركيبه لا بمعناه ، قد احدث هِزَّة قومية في العالم العربي لا لأنه القى على الناس درساً في الوطنية او القومية ولا لأنه جلا معنى لم يكن معروفاً من قبل ، ولكن لأنه وضع فكرة مجردة في تعبير مادي واقعي يعلق بالذهن ويضَح في الذاكرة .

اما القصيدة فهي[2] :

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ فلا بُدَّ أن يستجيب القدرْ !
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسرْ

---

(١) فهمي ٦٣ ، الشابي ٥٩ ، ٦٠ ، ٥٩ .

(٢) هذه القصيدة تعد عند فهمي (ص ٦٣ – ٦٤) ثمانية وعشرين بيتاً ، وفي الشابي (ص١٥٢ – ١٥٥) ثمانية وخمسين .

ومن لم يعانقْه شوق الحياة [1] تبخر في جوهـــا واندثر .
كذلك قالت ليَ الكائنـاتُ وحدثني روحهـــا المستتر
ودمدمة [2] الريح بين الفجـاج وفوق الجبال وتحت الشجر .
إذا ما طمحتُ الى غـــاية لبستُ المنى وخلعت الحذر ،
ولم اتخوَّفْ وعـور الشعاب ولا كَبَّـة اللهب المستعر [3] .
ومن لا يحبّ صعود الجبـالِ يعشْ ابدَ الدهر بين الحُفَر .
فعجّت بقلبي دماء الشباب ، وضجت بقلبي رياح أُخَرْ ؛
واطرقت أصغي لعزف الرياح وقصف الرعود ووقع المطر .
وقالت لي الأرض ـ لما تساءل ـ ت : ياأُمُّ ، هل تكرهين البشر ؟ :
« ابارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر .
وألعنُ من لا يماشي الزمانَ ويقنعُ بالعيش عيش الحُجَر .
هو الكون حي يحب الحياة ويحتقر الميّت المنـــدثر .
فلا الأفق يحضن مَيْتَ الطيور ولا النحل يلثم ميت الزَّهَر .
ولولا امومـــةُ قلبي الرؤومِ لفرَّت عن الميت تلك الحفر .
فويل لمن لم تَشقْه الحيـــا ة من لعنة العدم المنتصر » .

*

وفي ليـلة من ليالي الخريـ ـف مُثْقَلةٍ بالأسى والضجر ،
سكرت بها من ضياء النجوم وغنّيت للنهر حـتى سكر ،
سألت الدجى هل تعيد الحياة ـ لمن اذبلته ـ ربيعَ العمُر ؟
فـلم يتكلم فؤاد الظـــلام ولم تترنم عـذارى السحر .
وقال لي الغاب في رقـــة محببة مثل خفـــق الوتر :
يجيء الشتاء شتاء الضَّبـاب ، شتاء الثـلوج ، شتاء المطـر ،

---

(١) يقصد : الشوق الى الحياة .
(٢) في فهمي : ودمدمة ، وفي الشابي ، ودمدمت . ولكن « دمدمة » اصح لأنهـا عطف على فاعل الجملة الاصلية (الكائنات) لا على فعل الجملة المعطوفة (وحدثني) .
(٣) ولا الكبة في اللهب المستعر .

فينطفىء السحر : سحر الغصون وسحر الثمار وسحر الزهر ،
وسحر السماء القوي البديع وسحر المروج الشهي العَطِر .
وتهوي الغصون وأوراقها وازهار عهد جميل نَضِر ،
وتلهو بها الريح في كل وادٍ ويدفنها السيل انّى عفر [1] .
ويفنى الجميع كحلم بديع تألق في مهجة واندثر .
وتبقى البذور التي حُمِّلَت ذخيرة عمرٍ جميل غَبَر
وذكرى فصول ورؤيا غيوم واشباح دنيا تلاشت زُمر ،
معانقة وهي تحت الثلوج وتحت الضباب وتحت المطر
لضيف الحياة الذي لا يُمَلُّ وقلب الربيع الجميل العطر ،
وحالمة بأغاني الطيور وعطر الزهور وطعم الثمر .
ويمشي الزمان فتنمو صروف وتذوي صروف وتحيا أُخر [2]
وتصبح احلامها يقظةً موشحة برداء السحر ،
تسائل : اين ضباب الصباح وسحرُ المساء وضوءُ القمر
واسراب ذاك الفَراش الجميل ونحل يغني وغيم يمر ؟
ظمئت الى النور فوق الغصون ، ظمئت الى الظل تحت الشجر ،
ظمئت الى النبع بين المروج يغني ويرقص فوق الزهر .
ظمئت الى الكون ، اين الوجود واين ارى العالم المنتظر .
هي النور بين رحاب الفضاء وفي عالم اليقظات الكُبَر ؛
وما هو إلا كخفق الجناح حتى نما شوقها وانتصر .
فصعّدت الارض عن صدرها وابصرت النور عذب الصور .
وجاء الربيع بأطيافه واحلامه وصباه النضر
وقبّلها قبلة في الشفاه تعيد الشباب الى ما غبر .
وقال لها قد منحت الحياة وخلّدت من نسلك المدخر ؛
ومن ناجت النورَ احلامُهُ يبارِكُهُ النور انّى ظهر .

(١) كذا في الاصل . عفر في القاموس : ضرب به الارض .
(٢) ؟

اليكِ الفضاءَ ، اليك الضياءَ إليك الثرى الحـــالم المزدهر .
فميدي كما شئت فوق المروج بحـــلو الثمار وغض الزهر ؛
وناجي النسيم وناجي الغيوم وناجي النجوم وناجي القمر ؛
ولا تسأمي نغمات الحيـاة ولا فتنة العـــالم المعتبر .

*

وشف الدجي عن جمال عميق قويّ الغواية حـــلو الصور ؛
ومُدّ على الكون سحر غريب يصرّفـه ســـاحر مقتدر .
وضاءت شموع نجـوم السماء ، وضـاع البَخور بخور الزهر ،
ورفرف روح غريب الجمال بأجنحة من ضيـــاء القمر ،
ورق نشيد الحيـــاة المقدّ س في هيكل حالم قد سحر .
وأُعلِنَ في الكون ان الطموح حبيب الحيـاة وروح الظفر .
إذا طمحت للحيـاة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر .

الرثاء وما يلحق به

وكذلك ليس للشابي رثاء بالمعنى المصطلح عليه في فنون الادب عامة . ولكنّ له تحليلاً لنفسه هو صاغه في ثمانية ابيات لما توفي والده . في هذه المقطوعة يبين لنا الشابي لماذا كان مخطئاً في تشاؤمه . كان الشابي يعتقد ، حينما كان في كفالة ابيه غير شاعر بتكاليف الحياة ، ان الحياة المادية لا قيمة لها فكان يصرف وجهه عن الحياة كلها. اما الآن فقد صدمه واقع الحياة واراه ملء عينيه ان المرء لا يحيا إلا اذا كد في حياته، ولا يستطيع الانسان الكد الا اذا كان متفائلاً .

والشابي هنا لم يبتكر اسلوب الرثاء الذي جرى عليه لما ذكر وفاة والده ذكراً عارضاً ثم استطرد الى تحليل نفسه والى النظر في واقع الحياة . لقد فعل ذلك قبله كثيرون منهم جرير وبشار وابن الرومي في رثاء ابنائهم .

قال الشابي في رثاء والده [1] :

ما كنت احسَب بعد موتك يا ابي ، ومشاعري عمياءُ بالاحزان ،
اني سأظمأ للحياة واحتسي من كأسها المتوهج النشوان ؛
واعود للدنيا بقلب خافق للحب والأفراح والالحان
ولكل ما في الكون من صور المنى وغرائب الاهواء والاشجان
حتى تحركتِ السنونَ واقبلت فتن الحياة بسحرها الفنان .
فاذا انا طفل الحياة المنتشي شوقاً الى الاضواء والالوان ،
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضرب من البتهان والهذيان .

(١) الشابي ٦٦ – ٦٧ ، ١٤٦ .

ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادقُ الايمان .

وهنالك قصيدة يصح ان تعد في باب الرثاء مطلعها :[1]

يا ايها الطفلُ الذي قد كان كاللحن الجميل .

هذه القصيدة قسمان : قسم يبلغ اثنين واربعين بيتاً يصف فيها الشاعر موت طفل وصفاً خيالياً ويذكر كيف ان الناس يحزنون قليلاً لموته ثم ينسَونه . حتى مظاهرُ الطبيعة كأمواج البحر والبلبل والجداول كلها تنساه . اما رفاق هذا الطفل فانهم يظلون يتساءلون عنه مدة ثم يعلمون ان الغيلان قد حملته في الليل الى مكان ناء فينسونه مرة واحدة ايضاً .

نَسِيَتْكَ امواج البحيـ ـرة والنجوم اللامعهْ
والبلبل الشادي وها تيك المروج الشاسعه
وجداولُ الوادي النضيـ ـر بهمسها وخريرهـا
ومسالك الجبل الصغيـ ـر بعشبها وزهورها .
حتى الرفاقُ فإنهم لبثوا مدى يتساءلونْ ،
في حيرة مشبوبة : اين اختفى عنا الامين ؟
لكنهم علموا بانَّـ ـك في الليالي الداجيهْ
حملتك غيلان الظلا م الى الجبال النائيه ،
فنسُوكَ مثلَ الناس واز صرفوا الى اللهو الجميلْ
بين الخمائل والجدا ول والروابي والسهول .

ثم هنالك في هذه القصيدة قسم آخر يبلغ اربعة وخمسين بيتاً يصف فيه الشاعر قلب الام وكيف انه هذا القلب وحده لا ينسى . واذا اراد ان ينسى فكل ما في مظاهر الوجود يذكّره « بالصغير الميْت » . وفي هذا القسم تأمل في الموت والحياة :

كل نسُوك ولم يعو دوا يذكرونك في الحياةْ ؛
والدهر يدفن في ظلام الـ ـموت حتى الذكريات

---

(١) الشابي ١٧٦ – ١٨١ .

إلا فؤاداً ظل يخـ ـفُق في الوجود الى لقاكْ
ويَوَدُّ لو بذلَ الحيا ة الى المنيةِ وافتداك .
فاذا رأى طفلاً بكا ك، وان رأى شبحاً دعاك؛
يصغي لصوتك في الوجو د ولا يرى إلا بهاك،
يصغي لنغمتك الجميـ ـلة في خرير الساقيهْ،
في انّة المزمـــــا ر، في لغو الطيور الشاديه،
في ضجة البحر المجلـ ـجل، في هدير العاصفه...
اعرَفت هذا القلب في ظلماء هاتيك اللحود ؟
هو قلب امك ، امك السكرى باحزان الوجود.
هذا هو القلبُ الذي سيعيش كالشادي الضرير
يشدو بشكوى حزنه الداجي الى النفس الاخير.
لا ربة النسيان ترْ حم حزنه وترى بكاه؛
كلا ولا الايام تُبلى في اناملهـــا اساه
إلا إذا ضفرت له الاقـ ـدار اكليلَ الجنون
وغدا شقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السنون .
هو ذلك القلب الذي، مهما تقلبتِ الحياةْ
وتدفّع الزمن المدمـ ـدم في شعاب الكائنات
وتغنت الدنيا وغر د بلبل الغاب الجميل،
سيظل يعبدُ ذكريا تك لا يَمَلُّ ولا يميل...

هذه القصيدة ـ على ما فيها من تطويل وما في اسلوبها من تمطّي ، وجدانيـة جيدة . ويشبه ان يكون الشابي يرثي بها نفسه.

وثمت ايضا قصائد لا شك في ان الشابي رثى فيها حبيبته التي ماتت ، منها هذا الموشح [1] .

(١) سنوسي ٢٢٨ – ٢٢٩ ، الشابي ١١٦ – ١١٧ .

ليت شعري،
أي طـــير
يسمـــع الأحزان تبـ ـكي بين احشاء الكئيب
ثم لا يتـلو على الفجـ ـر اغاريـــد النحيب
بخشوع واكتئـــابْ ؟

. . . . .

في الدياجي
كم أُناجي
مسمـع القـبر بغصّـ ـات نحيـبي وشجوني !
ثم أُصغي علّني أسـ ـمع ترديـد انيـني
فأرى صوتي فريـــدْ !

فأنـادي :
يا فؤادي ،
مات من تهوى ؛ وهـ ـذا اللحد قد ضم الحبيبْ
فابكِ ، يا قلب ، بما فيـ ـك من الحب الكئيب :
إبكِ ، يا قلبُ ، وحيد !

مات حِبّي[1] ؛
مات قلبي .
فاذرُفي ، يا مقلةَ الليـ ـل ، الدراري عَبَراتْ
فوق قلبي فهو قد ودّ ـ ع أوجـاع الحيـــاةْ
بعد ان ذاق اللهيب .

وللشابي قصيدة طويلة تبلغ ستة وخمسين بيتاً مطلعها[2] :

---

(١) حي بكسر الحاء : محبوبي .
(٢) سنوسي ٢١٥ – ٢١٨ ، الشابي ١٢١ – ١٢٤ .

ايها الليل ، يا ابا البؤس والهو ل ويا هيكل الزمان الرهيب ،

يقول فيها :

جرفتْ من قرارة القلب احلا مي ، إلى اللحد ، جائراتُ الخطوب
فتلاشت * على تخوم الليالي وتهاوت الى الجحيم الغضوب.
وثوى في دُجُنَّةِ الليل وَمْضٌ لم يزل بين جَيْئَة وذُهوب.
ذكريات تميس في ظلمة القبـ ـرِ ضئالاً كرائعات المشيب!

وله قصيدة اخرى مطلعها [1] :

سئمت الحياة وما في الحياةِ ولما تجاوزت فجر الشبابْ

تنتهي بالابيات التالية :

ذوتْ في الربيع ازاهيرها فمِتْنَ واحلامَهن العِذاب .
لَوَيْنَ النحور على ذلةٍ ونِمْنَ وقد مصهن التراب.
فمال الجمال وغاض العبير ، واذوى الردى جفن تلك الكعاب.

ونحن اذا قرأنا كثيراً من قصائد الشابي بشيء من انعام النظر والتأمل ألفيناها في رثاء تلك الحبيبة التي فقدها الشاعر في ربيع حياته وحياتها . من ذلك مثلاً قصيدته التي تعد اربعة وتسعين بيتاً والتي يتكلم فيها على شعره خاصة وعلى الشعر عامة [2] :

يا شعر ، انت فم الشعو ر وصرخة الروح الكئيب .

ثم ان الشابي يقول في هذه القصيدة نفسها [3] :

ارايتَ أزهار الربيع وقد ذوت اوراقُها
فهوتْ الى صدر الثرا ب وقد قضت اشواقُها؟
ارأيتَ شُحرورَ الفلا مُتَرنماً بين الغصون

(*) فتلاشت احلامي .
(١) سنوسي ٢١٩ ، الشابي ١٢٥ .
(٢) سنوسي ٢٢١ ، الشابي ١٣٥
(٣) سنوسي ٢٢٤ ، الشابي ١٣٨

جمَدَ النشيدُ بصدره لما رأى طيف المنون ؛
فقضى وقد غاضتْ أغا ريد الحياة الطاهره
وهوى من الاغصان ما بين الزهور الباسره[1] ؟
ارأيت ام للطفل تبـ كي ذلك الطفل الوحيد
لمـــا تناولـــه بغـ فٍ ساعدُ الموت الشديد؟
اسمعت نوح العاشق الوا هان ما بين القبور
يبكي حبيبته ؟ فيا لَمَصارع الموت الجَسور!

ولا ريب في ان قصيدة الشابي[2] :

بالامس قد كانت حيا تي كالسماء الباسمهْ
واليوم قد امست كأء ماق الكهوف الواجمهْ

والتي يقول فيها عن حبه الذي يشبهه بالجدول ثم ينسب تفجيره في مهجته الى فتاة كانت له حيناً سعادة ثم توارت بالموت،هي في الفتاة التي احبها بعد زواجه.يقول الشابي في هذه القصيدة:

هو جدول قد فجّرت يَنْبوعَه في مهجتي
اجفانُ فاتنة ارتـ نيها الحياةُ لشقوتي :
اجفانُ فاتنـةٍ ترا ءت لي على فجر الشباب
كعروسةٍ من غانيا ت الشعر في شفق السحاب،
ثم اختفت خلف السما ء وراء هاتيك الغيوم
حيثُ العذارى الخالدا تُ يَمِسْنَ مابين النجوم.
ثم اختفت ، أوّاه ، طا ئرةً بأجنحة المنون
نحو السماء . وهـا انا في الارض تمثالُ الشجون.

---

(١) معنى البيت غامض

(٢) سنوسي ٢٥١ ، الشابي ٧٤ و ١٢٨ .

الموضوعيات

في مجموعة شعر الشابي قصائد أراد ان يعالج الشاعر فيها موضوعات معينة وإن لم تتأتَّ له هذه المعالجة إلا قليلاً. اما ابرز الموضوعات التي أراد ان يتناولها فموضوع «الشعر والشاعر» وموضوع «الفنان» و«القلب». وهنالك نظراته في الموت والحياة سأفرد لها فصلاً خاصاً لكثرتها.

✡

لا نستطيع ان نقول ان للشابي آراء حكيمة أو صائبة في الحياة لاسباب مختلفة، اولها وأعظمها انه كان شاعراً وجدانياً ينساق مع عاطفته ولا ينظر إلى الامور بعقله. ثم انه لم يبلغ مبلغاً من السن يؤهله لقول الحكمة، على الرغم من انه كان يزعم - من قبل ان يبلغ العشرين - بأن التجاريب قد حنكته! ومع ذلك كله فان له ابياتاً في الحكمة متفرقة له فيها فضل حسن الصياغة لا فضل الابتكار، وفضل اللفظ لا فضل المعنى. فمن ابياته العامة في الادب والتي ينظر فيها الى الحياة نظرة فاحص قوله[1]:

لقد خدعتني في الحياة شبيبتي ... ولكنني قد حنكتني التجارِبُ.
فقد كنت أُلقي للدجى برغائبي ... فأبصرها فوق الدنا تتخاطب.
ولكن احلام الشباب ضئيلة ... تحطمها، مثل الغصون، المصائب.

* * *

(١) سنوسي ٢٤٣

سألت الدياجي عن اماني شبيبتي فقالت ترامتها الرياح الجوائب.
ولما سألت الريح عنها اجابني تلقفها سيل القضا والنوائب
فصارت عفاء، واضمحلت كذرة، على شاطىء الأيام، والموج صاخب.

إن هذه الابيات التي يزعم الشابي فيها انه محنك نافذ البصر تنكشف ـ على رغم ما فيها من قوة بناء ظاهرة ـ عن ضعف في اللغة. وإن أدنى تأمل فيها يكشف عما فيها من عيوب في استعمال « ترامتها » وفي تذكير « الريح » وسواهما.

وهنالك مقطوعة اخرى عامة في الادب فيها من ضعف التركيب وتكرار المعاني ما في القطعة السابقة [1]:

ضعف العزيمة لحد في سكينته تقضي الحياةُ بناه* اليأس والوجل.
وفي العزيمة قوات مسخرة يخر دون مداها الشامخ الجبل.
والناس شخصان: ذا تسعى به قدم من القنوط، وذا يسعى به الأمل:
هذا إلى الموت والأجداث ساخرةً وذا إلى المجد والآمال تتصل.
ما كل فعل يجل الناسُ فاعلَه مجداً، ولا كل من خاض الدجى بطل.
المجد صنفان: صنف في تمايله لحن الخلود وصنف فوقه اجل.
ما المجد إلا ابتسامات يفيض بها فم الزمان إذا ما أنسدت الحيل.
وليس بالمجد ما تشقى الحياة به ويحسد اليومُ امساً ضمه الأزل.

ومن قصائد الشابي التي تشبه ان تكون موضوعاً لأنها تتناول موضوعاً واحداً معينا وتنطوي على شيء من التحليل الموضوعي قصيدة له مطلعها [2]:

يا قلبُ، كم فيك من دنيا مُحَجَّبَةٍ كأنها حين يبدو فجرها إرَمُ [3]،

تكلم فيها الشاعر على القلب فقط لم يتجاوزه الى غيره. ومع ان في هذه القصيدة جنوحاً

(*) بناه: بنى اللحد. تقضي الحياة: تموت.
(١) سنوسي ٢٣٨
(٢) الشابي ١٧٢ – ١٧٣.
(٣) ارم مدينة قديمة كانت عظيمة مزدهرة قوية ثم خربت: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد: ارم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد » (القرآن ٨٩: ٦ – ٨ من سورة الفجر. راجع ايضاً مقدمة ابن خلدون ١٤).

كثيراً الى الخيال والذكريات فان الشاعر يذكر شيئا من اختبارات القلب وآفاقه. ولعله يخاطب بهذه القصيدة قلبه :

يا قلب، كم من مسرّاتٍ وأخْيِلَةٍ ... ولذة ، يتحامى ظلَّها الألمُ ،
غنت لفجرك صوتاً حالماً فَرِحاً ... نشوانَ ، ثم توارت وانقضى النغم !
يا قلب ، كم قد تملَّيت الحياة وكم ... راقصْتَها مرحاً ما مسّك السأم ؛
وكم نسجت من الاحلام اردية ... قد مزّقتها الليالي وهي تبتسم ؛
وكم ضَفرْتَ اكاليلاً موردة ... طارت بها زَعزع تَدوي وتحتدم ،
وكم رسمت رسوماً لا تشابهها ... هذي العوالم والاحلام والنظم :
كأنها ظلل [٢] الفردوس حافلةً ... بالحور ، ثم تلاشت واختفى النغم.
تبلو الحياة فتُبليها وتخلعها ... وتستجد حياةً ما لها قِدَم .
وانت انت : شباب خالد نضر ... مثل الطبيعة لا شيبٌ ولا هرم .

ويتصل بهذه القصيدة قصيدة اخرى تناسبها في الموضوع لانها تتحدث ايضاً عن القلب، ولكن الشاعر يبدأها بالكلام على الشعور والعاطفة والفن . مطلع هذه القصيدة [١] :

عش بالشعور وللشعور فانما ... دنياك كونُ عواطف وشعور.
شيدت على العطف العميق، وانها ... لتَجِفُّ لو شيدت على التفكير.

وهي تنتهي بالمقطع التالي :

وافتح فؤادك للوجود وخلِّه ... لليم ، للأمواج ، للديجور ،
للثلج تنثره الزوابع ، للاسى ، ... للهول ، للآلام ، للمقدور .
واتركه يقتحم العواصف هائماً ... في افقها المتلبد المقرور ،
ويخوض احشاء الوجود مقامراً ... في ليلها المتهيّب المحذور ،
حتى تُعانقَه الحياة فيرتوي ... من ثغرها المتأجج المسجور
فيعيش* في الدنيا بقلب زاخر ... يقظ المشاعر حالم مسحور :
في نشوة صوفية قدسيةٍ ... هي روح هذا العالم المنظور .

---

(١) الشابي ٢٠٦ — ٢٠٧ . (*) في الاصل : فتعيش .

(٢) الظلل « بضم الظاء وفتح اللام جمع ظلة بضم الظاء وتشديد اللام » : السحاب المتراكب المتراكم، وشيء كالسقف فوق الرؤوس. وقد وردت هذه الكلمة ست مرات في القرآن الكريم، ولكن لم تستعمل في الخير والسعادة كما استعملها الشابي هنا .

وكثرت اشعار الشابي في الشعر والشاعر قبل العشرين من عمره وبعدها : إنه ينظم الشعر ليُسَرِّيَ به عن نفسه ويصور حاله . ثم هو لا يتكسب بشعره ولا يتملق فيه احد ، بل يريد ان يرضي به ضميره ويرضي به وطنه . وللشابي قبل بلوغ العشرين قصيدتان تناول فيهما الكلام على الشعر ، على شعره، وأجاد فيهما . اما القصيدة الاولى فهي [1] ،

شعري نُفاثة قلبي ان جاش فيه شعوري .
لولاه ما انجاب عني غيم الحياة الخطير ؛
ولا وجدت اكتئابي ، ولا وجدت سروري .
به تراني حزيناً ابكي بدمع غزير .
به تراني فروحاً[2] اجُرُّ ذيلَ حبوري .

*

لا انظم الشعر ارجو به رضاء الامير :
بمدحة او رثاء تُهدى لرب السرير .
حسبي اذا قلت شعراً ان يرتضيه ضميري !

*

ما الشعر الا فضاء يرِفُّ فيه مقالي
في ما يسر بلادي ، وما يسر المعالي ،
وما يثير شعوري من خافقاتِ خيالي .

*

لا اقرُض الشعر ابغي به اقتناص نوال .
الشعر إن لم يكن في جماله ذا جلال
فانما هو طيف يسعى بوادي الضلال ،
يقضي الحياة طريداً في ذلة واعتزال .

---

(١) سنوسي ٢٢٧ ، الشابي ٩٩ .
(٢) كذا .

وهنالك قصيدة ثانية طويلة جداً يناجي بها الشابي شعره . إن الشعر مظهر لبؤس النفس وصوت نواحها. من اجل ذلك يطلب الشابي الى قلبه ان يتجلد في النوائب ويتجمل في المصائب وأن يكون متفائلاً . غير أن الشابي كثير الاحزان فهو لا يملك إلا ان يحزن ، من اجل ذلك فقط نراه ينوح في قصائده وعلى احلامه التي ذهبت ادراج الرياح. والقصيدة التي نحن بصددها تشبه الرباعيات المزدوجة ، على اعتبار ان كل بيتين منها يجمعهما روي واحد . وازدواج هذه الرباعيات يعود الى أن كل اربعة ابيات منها يدوران على معنى واحد، على الرغم من ان لهما رويين مختلفين . على ان الشابي لا يتقيد دائماً بازدواج الرباعيات في المعنى ، بل يستمر المعنى في ازدواج متعدد من الرباعيات . قال الشابي يخاطب شعره[1] .

يا شعر – انت فم الشعور وصرخة الروح الكئيبِ .
يا شعر – انت صدى نحيب القلب والصب الغريب .
يا شعر – انت مدامع علقت باهداب الحياةْ .
يا شعر – انت دم تفجَّر من كلوم الكائنات .
يا شعر ، قلبي – كما تدري – شقيٌّ مظلمُ ،
فيه الجراح النجل[2] ، يقطر من مغاورها الدم .
جمَدت على شفتيه ارزاء الحياة العابسه .
فهو التعيس ، بـه مرارات القلوب اليابسه .
ابداً ينوح بحُرقة بين الاماني الهاويهْ
كالبلبل الغرّيد ، ما بين الزهور الذاويهْ .
كم قد نصحت له بان يسلو ، وكم عزّيتُه !
فأبى وما اصغى الى قولي ، فما اجديته[3] .
كم قلت : صبراً ، يا فؤادُ ، اما تكف عن النحيبِ ؟
فاذا تجلدتِ الحياة تبددت شعل اللهيب .

---

(١) سنوسي ٢٢١ – ٢٢٦ ، الشابي ١٣٥ – ١٤٠.
(٢) النجل : الواسعة ، العميقة
(٣) ما اجديته : ما نفعته ، ما استطعت ان انفعه .

يا قلبُ ، لا تجزع امام تصلب الدهر المصورْ .
فاذا صرخت توجعاً ، هزِئت بصرختك الدهور .
يا قلب ، لا تسخط على الايام فالزهر البديعْ
يُصغي لضجّات العواصف قبل انغام الربيع[1] .
يا قلب ، لا تقنع بشوك اليأس ما بين الزهورْ ،
فوراء اوجاع الحياة عذوبة الامل الجسور .
يا قلب ، لا تسكب دموعك بالفضاء فتندم[2]
فعلى ابتسامات الفضاء قساوة لا ترحم .

* * *

لكن قلبي ، وهو مخضلُّ الجوانب بالدموعْ
جاشت به الاحزان اذ طفحت بها تلك الصدوع .
يبكي على الحلم البعيد ... بلوعة لا تنجلي
غَرِداً ، كصدّاح الهواتف في الفلا ، ويقول لي :
طَهِّر كَلامك بالدموع وخلها وسبيلَها .
إن المدامع لا تضيع ، صغيرَها وجليلَها .
فمن المدامع ما تدفّع ، جارفا حسك الحياهْ
يرمي لهاوية الوجود بكل اشواك الطغاه .
فارحمْ مضاضته ، ونُح معه على احلامه .
فلقد قضى الحلم البديع على لظى آلامه .
ردد على سمع الدجى أنّاتِ قلبي الواهيهْ ،
واسكب بأجفان الزهور دموع قلبي الداميه ؛
فلعل قلب الليل اشفق[3] بالقلوب الباكيهْ !
ولعل جفن الزهر احفظ للدموع الجاريه !

---

(١) قبل ان يصغي الى انغام الربيع . انه يهتم بالاصغاء الى العواصف لانه يخشاها ثم لا يبالي بانغام الربيع لأنها لا تضره .
(٢) لا يجوز هنا تسكين القافية . والشابي يرفع « فتندم » مع ان حقها النصب .
(٣) يقصد : اكثر اشفاقاً على القلوب الباكية .

كم حركتْ كف الاسى اتاور ذياك الحنينْ
فتهاملت (؟) احزان قلبي في اغاريد الانين .
ولكم أرَقْتُ مدامعي حتى تقرّحت الجفونْ ؛
ثم التفتّ فلم أجد قلباً ، يقاسمني الشجون .
فعسى يكون الليل ، ارحم ، فهو مثلي يندبُ ؛
وعسى يصون الزهر دمعي ، فهو مثلي يسكب .

* * *

قد قنّعت كفُ السماء الموتَ بالصمت الرهيبِ
فغدا كأعماق الكهوف ، بلا ضجيج او وجيب ،
يأتي بأجنحة السكون كأنه الليل البهيمُ .
لكنّ طيف الموت قاسٍ ، والدجى طيف رحيم .
ما للمنية لا ترِقُّ على الحياة النائحهْ ؟
سيّانِ افئدةٌ تئن ، او القلوب الصادحه .
يا شعر ، هل خُلِقَ المنون بلا شعورٍ كالجمادْ ،
لا رعشةٌ تعرو يديه إذا تملّقه الفواد !
ارأيت ازهار الربيع وقد ذرت اوراقُها
فهوت الى صدر التراب وقد قضت اشواقها ؟
ارأيت شُحرور الفلا ، مترنماً بين الغصونْ ،
جدّ النشيدُ بصدره لما رأى طيفَ المنون ؛
فقضى وقد غاصت اغاريد الحياة الطاهرهْ ،
وهوى من الاغصان ما بين الزهور الباسره [1] ؟
ارأيت أُم الطفل تبكي ذاك الطفلَ الوحيدْ
لما تناوله بعنف ساعدُ الموت الشديد ؟

---

(١) باسرة : متجهمة ، عابسة حزناً على الشحرور الذي مات .

اسمعت نوح العاشق الولهـــان ما بين القبورِ
يبكي حبيبته ؟ فيا لـمَصارع الموت الجسور [1] !

* * *

طفحت باعماق الوجود سكينة الصبر الجليدْ
لما رأى عدلَ الحياة يضمه اللحـــد الكنود
فتدفقت لحنـــاً يردده عـــلى سمع الدهورِ
صوت الحياة بضجة ، تسعى على شفة البحور [2] .
يا شعر — انت نشيد امواج الخضم الساحرهْ
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهره ،
السافرات ، الصادحات ، مع الحياة ، الى الأبد !
كعرائس الأملِ الضحوك ، يَمِسْنَ ما طال الامد .

*

ها إن ازهـار الربيع تبسمت اكمامُها
ترنو الى الشفق البعيد ، تَغُرّها احـــلامُها .
في صدرها امل يحدِّقُ نحو هاتيك النجومِ .
لكنه املٌ ستُلْحِدهُ جبـــابرة الوجوم .
فلسوف تغمض جفنَها عن كل اضواء الحياةْ
حيث الظـــلامُ مخيمٌ في جو ذياك السُبات .
ها انها همست بآذان الحياة غريدَها (?)
فتلت عصافير الصباح صُداحَها ونشيدَهـا .
يا شعر — انت نشيد هاتيك الزهور الباسمهْ .
يا ليتني مثل الزهور بلا حياة واجمـــه .

* * *

(١) للمصارع التي يأتي بها الموت .
(٢) الضمير في « تدفقت » وفي « تسعر » يعود على « الحياة » .

ان الحيـــاة كئيبة ، مغمورة بدموعها .
والشمس اضجرها الأسى في صحوها وهجوعها ،
فتجرعت كأساً دهاقاً ، من مُشَعْشَعة الشفقْ
فتمايلت سكرى الى كهف الحياة ولم تُفِق ...
يا شعر – انت نحيبها لمّا هَوَتْ لسُباتها .
يا شعر – انت صُداحها في موتها وحياتهـــا !

*

انظر الى شفق السماء يفيض عن تلك الجبالِ
بشعاعه الخلاّب يغمرُها ببسماتِ الجمـــال ،
فيثير في النفس الكئيبة عاصفاً لا يركُدُ ،
ويؤجج القلبَ المعذّب شعلةً لا تخمـــدُ .
يا شعر – انت جمال اضواء الغروب الساحرهْ ،
يا همس امواج المساء الباسمات الحـــائره .
يا شعر – يا قيثارة الاحلام ، يا ابن صبابتي !
لولاكَ متُّ بلوعتي وبشقوتي وكآبتي .
فيك انطوت نفسي وفيك سكبت كل مشاعري .
فاصدح على قمم الحياة بلوعتي ، يا طائري !

وظل إعجاب الشابي بشعره وبآرائه في الشعر زمناً طويلاً بعد بلوغه العشرين . وله في هذا الدور ثلاث قطع قصار . فالشابي يرى ان شعره قطعة من نفسه يمثله ويصور ما يجيش في صدره هو ، ثم ان هذا الشعر ايضاً يمثل العالم الذي يحيا فيه الشاعر او الذي يجب ان يحيا فيه الشاعر . انه على كل حال صفحة من حياته .

والشابي لا يزال – في هذا الدور – يرى انه يقول الشعر ليُسَرّي به عن نفسه في هذا العالم المملوء بالآلام وبالاحزان وبالبشر الذين يحبهم هو وإن كانوا هم لا يشعرون بهذا الحب او لا يستحقونه . إن الشابي ينظم الشعر لأنه يريد ان ينظمـــه بصرف النظر عن

وجود اشخاص يمكن ان يستفيدوا من هذا النظم فيستنيروا به او يهتدوا . انه كالطيور التي تغرد وكالنجوم التي تنير وكالورود التي تفوح رائحتها سواء أكان هنالك بشر يستفيدون من ذلك كله او لم يكن ، وسواء أكان هؤلاء اهـــل لهـذه النعم او لم يكونوا . يقول الشابي في ذلك كله [1] :

أنت ، يا شعرُ ، فلذةٌ من فؤادي تتغنّى وقطعة من وجودي .
فيكَ ما في جوانحي من حنين أبَدِيٍّ إلى صميم الوجـود .
فيك ما في خواطري من بلاءٍ ، فيك ما في عواطفي من نشيد .
فيك ما في مشاعري من وجوم لا يغنّي ومن سرور عهيد .
فيك ما في عوالمي من ظـلام سرمديٍّ ومن صباح وليد .
فيك ما في عوالمي من نجـوم ضاحكات خلف الغمام الشرود .
فيك ما في عوالمي من ضبابٍ وسراب ويقظـــة وهجود .
فيك ما في طفولتي من سلام وقنـــوع وغبطة وسعـود .
فيك ما في شبيبتي من أمانٍ باسماتٍ ومن غرامٍ سعيد .
فيك ما في شبيبتي من قنـوط مدلهمّ وحـــيرة وجمـــود .
فيك تشدو مع الربيع طيوري وتغني مع الصباح ورودي .
فيك ألقي بذور نفسي فتُلْفي في ثناياك خـــير نبع بَرود .
فيك أجني في الصيف ما بذرت نفـ ـسي حواليك من بذور الخلود .
فيك ترعى من الخريف أعاصيـ ـري وتَدْوي صواعقي ورعودي .
فيك تذوي زهور قلبي فتُلقي ما لهـا من غـــدائر وبُرود .
فيك يبدو شتاء نفسي عبوساً شاحب اللون عاري الأملود .
كلمته الحيـاة بالحَزَن الدا مي وغشّتـــه بالرياح السود .

*

أنت ، يا شعر ، صفحة من حياتي ؛ أنت ، يا شعرُ ، قصة من وجود .

---

(١) الشابي ١٤٣ .

انت ، يا شعر ، إن فرحتُ أغاري ـ ـدي ؛ وإن رنّتِ الكآبة عودي .
أنت ، يا شعر ، كأسُ خمر جميل أتلهّى به خـــلال اللحـود .
أتحسّاه في الصبـــاح لأنسى ما تقضّى في أمسيَ المفقـود ؛
وأناجيـه في المساء لألهـــو بخُمَيّاه عن ظـلام الوجود .
أنا ـ لولاك ـ لم أطِقْ عَنَتَ الده ـ ـرِ ولا فرقة الصباح البعيد .
أنت ما نلتُ من كهوف الليالي وتصفحتُ من كتاب الخـلود .
فيك ما في حقيبة الكون من عِقْـ ـدٍ حصىً زائفٍ ودرٍّ نضيد .
فيك ما في الوجود من حَـلَـك دا ـجٍ وما فيه من ضياء بعيد .
فيك ما في الوجود من نَغَم حُلْـ ـوٍ وما فيه من زئير الأسود .
فيك ما في الوجود من جبل وعْـ ـرٍ وما فيه من حضيض وهيد [1] .
فيك ما في الوجود من حَسَكٍ يُد ـمي وما فيه من غضيض الورود .
فيك ما في الوجود من زَهَرٍ حلـ ـوٍ وما فيه من هشيم حصيد .
فيك ما في الوجود من وَهَج الصيـ ـف وما فيه من شتاء عتيد [2] .
فيك ما فيه من خريفٍ حزينٍ ، فيك ما فية من ربيع جديد .
فيك ما في الوجود : حَبّ بنو الدنـ ـيا قصيدي أم لم يحبّوا قصيدي [3] .
فسواء على الطيـور — إذا غنّـ ـت — هُتاف الشؤوم والمستعيد [4] .
وسواء على النجـوم — إذ لا حت — هدوء الدجى وقصف الرعود [5] .
وسواء على الورود أفي الغيـ ـران [6] فاحت أم بين نهد وجيد !

وللشابي مقطوعة يعدد فيها بعض مايجول في خاطر الشاعر ـ او في قلبه على حد تعبيره ـ إنه يعيد هنا في هذه المقطوعة القصيرة ما عدده في القصيدة الطويلة السابقة . والشابي متأثر

---

(١) يقصد « عميق » .
(٢) يقصد « شديد » .
(٣) حب فعل ماض مثل أحب . ولكن بعد سواء يجب ان يأتي الفعل مسبوقاً بهمزة الاستفهام : أحب ، أأحب ...
(٤) الذي يقاطع المغني بهتاف الاستهزاء او الاستحسان .
(٥) في الاصل (الشابي ١٤٤ ، البيت الرابع من اسفل) : قصف الورود ، ولعله خطأ مطبعي . ولكن لا نزال نقرأ في الطبعة الثانية (بيروت ١٩٥٤) : قصف الورود (ص ١٦٣) .
(٦) الغيران جمع غار : التجويف في الجبل .

في هذه القصيدة - في الارجح - بمقطوعة لمحيي الدين بن عربي [1] يرى فيها ان جميع مظاهر هذا الوجودتدل على هذا التجلي او على ذلك التجلي من الالوهية . يقول ابن عربي [2] :

كلما أذكره من طلل ... او ربوع او مغان ، كلما ...
وكذا السحب إذا قلت : بكت ، وكذا الزهر إذا ما ابتسما ،
او بروق او رعود أو صَبا او رياحٍ او جَنوب او شما [3]
او نساء كاعباتٍ نُهَّدٍ طالعات او شموس او دُمى [4] .
صفة قُدسية عُلْوية أعْلمَتْ ان لمثلي قدما [5] .
فاصرف الخاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلما .

ويغلب على الظن ان الشابي قد رأى هذه المقطوعة لمحيي الدين بن عربي قبل ان قال مقطوعته التالية [6] :

كل ما هب وما دب وما قام او حام على هذا الوجود :
من طيور وزهور وشذا وينابيعَ واغصانٍ تميد ،
وبحار وكهوف وذرى وديار وبراكين وبيد ،
وضياء وظلال ودُجى وفصول وغيوم ورعود ،
وثلوج وضبابٍ عابرٍ واعاصيرَ وامطارٍ تجود ،
وتعاليم ودين ورؤىً واحاسيس وصمت ونشيد ؛
كلها تحيا بقلبي حرةً غضة السحر كاطفال الخلود .

---

(١) فقيه ومتصوف اندلسي عاش في الشرق . ولد سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٥ م) وتوفي ٦٣٨ للهجرة (١٢٤٠ م) ودفن بدمشق .

(٢) ترجمان الاشواق ، ص ١٣ ، التصوف في الاسلام للدكتور عمر فروخ (بيروت ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م) ص ١٩٢ .

(٣) اكتفاء او ترخيم من شمال : ريح شمالية .

(٤) دمي : جمع دمية ، وهي الصور الممثلة في المادة .

(٥) قدماً : مقاماً ، مرتبة عالية في التصوف .

(٦) الشابي ١٧٠-١٧١ .

هاهنا في قلبيَ الرحب العميق[1] يرقص الموت و اطياف الوجود.
هاهنا تعصف اهوال الدجى، هاهنا تُعزَف الحان الخلود.
هاهنا تمشي الاماني والهوى والاسى في موكب فخم النشيد.
هاهنا الفجر الذي لا ينتهي، هاهنا الليل الذي ليس يبيد.
هاهنا ألف خِضَمٍّ ثائر خالد الثورة مجهول الحدود.
هاهنا في كل آنٍ تَمَّجي صورة الدنيا وتبدو من جديد!

ثم يمل الشابي العيش في الدنيا مع الناس، حتى في بلاده وبين امته. وهو يرى انه يجب ان يعيش عيشة شاعر مع مظاهر الطبيعة: مع البلابل في الغابة، ومع النجوم والنهر، ومع الطير والضياء لا يفكر في الناس ولا فيما يهم الناس من أسباب وجودهم وعيشهم. إن الاهتمام بالبشر سخافة وأفك وهراء.

لا ريب في ان مبعث هذا التشاؤم الشديد في نفس الشابي اشتداد الداء عليه ويأسه من الحياة، وخصوصاً بعد ان رأيناه في عدد من قصائده الغزلية والوطنية يجنح احياناً الى الأمل والاطمئنان. وانا لا اقول ان الشابي كان مطمئناً في اول امره ثم انقلب قلقاً. ولكنه كان منذ اول امره يتقلب بين الاطمئنان والقلق وبين الأمل واليأس. إلا ان قلقه ويأسه كانا مع الأيام يزيدان، وكان اطمئنانه وأمله ينقصان. وذلك واضح التعليل: إن صحته كانت في تأخر مستمر والخطر على حياته كان في ازديادٍ وبروز، وهذا ما جعل جانب اليأس في تفكيره يطغى ابداً على جانب الأمل. هذه العوامل المعتلجة في قلب الشابي تبدو جلية في المقطوعة التالية[2]:

ليت لي ان اعيش في هذه الدنـ يا بعيداً بوحدتي وانفرادي.
اصرف العمر في الجبال وفي الغا بات بين الصنوبر المِيّـاد،
ليس لي من شواغل العيش ما يصـ رف نفسي عن استماع فؤادي.

---

(١) كذا في الاصل (الشابي ١٧٠، البيت الثامن؛ الطبعة الثانية ص ١٨٨) ولا وجه لتسكين «العميق» فهذه المقطوعة ليست موشحاً حتى يصح تصريع ابياتها. ولو قال: «هاهنا في قلبي الرحب المدى» لاستقام له المعنى ولم يحتج الى الاخلال الوزن.

(٢) الشابي ١٩٧.

اتغنّى مع البلابل في الغـا ب وأُصغي الى خرير الوادي [1].
وأناجي النجوم والفجر والاط يار والنهر والضياء الهادي :
عيشـــةً للجمال والفن ابغيـ ها بعيداً عن امتي وبلادي —
لا أُعَنّي نفسي باحزان شعبي ، فهو يحيا بظلمـــة الآباد ؛
حسب نفسي من الاسى ما لديها من طريفٍ مستحدث وتِلاد —
وعن الناس [2] ، لا افكر في النا س ولا في حديث تلك النوادي .
فهو من مَعْدِن السخافة والأفـ ك ومن ذلك الهُراء العادي .
اين منـــه خرير تلك الينابيـ ع الجواري وشدْو تلك الشوادي [3] ،
وحفيف الغصون نَمَّقها الطَلُّ وهمسُ النسيم للاوراد [4] .
هـــذه عيشة تقدسهـا نفـ سي وأدعو لمجدها وأنادي .

---

(١) الوادي : النهر .
(٢) يبدو ان ثمت بيتاً ساقطاً قبل هذا البيت .
(٣) يقصد : اين الناس وحديث النوادي من خرير الينابيع الخ ...
(٤) الاوراد جمع ورد .

التأمل في الحياة خاصة

إن « التأمل في الحياة » عامٌ في شعر الشابي ، وقد مر طَرَفٌ منه في جميع الأبواب التي عالجناها مما يبرر الاستغناء عن هذا الفصل هنا . إلا ان كثرة شعره الوارد في التأمل في الحياة يقتضي ان نفرد له فصلاً خاصاً .

إذا كان نظر الشابي الى الحياة متأثراً بمرضه ، فلا بد من ان يكون ذلك النظر تشاؤماً محضاً ، وإن كان فيه ـ بين البيت والبيت ـ شيئاً من التفاؤل . ولقد نظر الشابي ، حتى في طوره الأول قبل ان يبلغ العشرين ، الى الحياة نظرة سوداء فبدا في شعره قلق عميق وحيرة امام حوادث الأيام الجارية ، فكان شعره مزيجاً من التشاؤم والتفاؤل، ولكن التشاؤم كان أغلب وأوسع مدى . ولقد حير الشابيّ ان الحياة لا تتكلم ولا ترد على من يسألها، ولكنها تَعرِض على اهلها دائماً كأسين احداهما مملوءة بالهناءة والاخرى ممتلئة بالشقاء ثم تقف هي صامتة . اما الانسان الغبي الجهول فيتناول عادة من يد الدنيا كأس الشقاء . بعدئذ يدرك الانسان انه اخطأ ، ولكن إصلاح خطأه يصبح متعذراً، ذلك لأن الزمان يكون قد مر والعمر قد أوشك ان ينقضي والفرصة قد فاتت، فلا يبقى للانسان حينئذ إلا اللوعة والأسى على تضييع ما ضيع من الفرص وعلى غفلته الاولى عن اغتنام وجه الحياة المشرق المرح .

ويعود الشابّي فيتساءل عن قيمة الحياة إذا كان كل ما فيها سيؤول حتماً الى الهدم والبلى ؛ بل ما قيمة العقل إذا كانت العقول توزع بين الناس بالاتفاق[1] ثم لا يكون مع «العقل النير» إلا الشقاء ولا مع « العقل المظلم » إلا الجهل . وان الله هو الذي اراد للناس التعس لانه خلق الجهل وخلق الفهم .

(١) الاتفاق : هي الكلمة الفصحى لكلمة « صُدفة » .

هذا المزيج المضطرب من الآراء، وتلك الحيرة امام الحياة وامام الوجود نراهما في قصائد الشابي الاولى، كما نراهما في قصائده المتأخرة. فمن قصائده الاولى قوله [1]:

ما الذي خلف الغيوم ...؟
ما الذي خلف النجوم ...؟

ما الذي يكتمه الدهر، ويخفيه الغد؟ ما الذي يحجبه غيم الحياة ... الأربد؟
ما الذي خلفك يا ليل؟ أويل ام سلام؟ ما الذي خلفك يا ليل أنور ام ظلام؟
هل سيبدو الفجر بساماً، كعذراء الخلود تالياً انشودة الحب، على سمع الوجود؟
ام سيبدو من وراء الافق، جباراً عنيد ينذر الايام – بالشر، وبالهول المَريد؟
هل سيبدو الفجر، يا ليل! اذا جاء الغد وجناحاه إذا رف اللهيب الأسود؟

ويزيد القلق والتشاؤم في نفس الشابي وتزيد حيرته امام جريان الحوادث فينشد [2]:

ان من اصغى الى صوت المنون وصدى الاجداث
ليس تستهويه الحانُ الطيور،
بين ازهار الربيع الساحرة،
وابتسامات الحياة الساخرة، عن جلال الله.

*

غنّني، يا طيرُ، انّات الجحيم واسقني الآلام؛
واترع [3] الكأس باوجاع الحياة،
واسقني، اني كرهت الابتسام.
غنني ندب الاماني الخائبة والليالي السود.

*

غنني، صوت الظلام المكتئب انني اهواه.
هاك كأس القلب فاترعه [3] نواحْ،

---

(١) سنوسي ٢٤٩–٢٥٠.
(٢) سنوسي ٢٣١–٢٢٢؛ الشابي ١١٢–١١٣.
(٣) واترع واترعه لا تستقيان في الوزن، فيجب ان يكون مكانها: واملأ واملأه.

واسكب الحزن به حتى الصباح .
انه من طينة الحزن المرير صاغه الخلاّق .

*

بئست الافراح افراح الحياة ، انها احلام .
تخلب اللب بألحان عذابْ
وأغاريدَ كأملاك السما
ثم لا تلبث ان تذوي كما تذبُلُ الازهار .

ثم يعلن الشابي رأيه في الحياة وانها صراع يداس فيه الضعيف . على ان هذا لا يمنع ان يكون في الحياة بعض الرفق حيناً بعد حين . وهذه القصيدة ليست ضعيفة البناء فقط ، بل هي ضعيفة الرأي ، ولكنها على كل حال تمثله وتمثل اتجاهه [1] :

ان الحياةَ صراعٌ فيها الضعيفُ يداسْ
ما فاز في ماضغيها الا شديد المِراس [2]
للحب فيها شجون فكن فتى الاحتراس .
الكون كون شقاء ، الكون كون التباس .
الكون كون اختلاق وضجة واختلاس .
سيّان عنديَ فيه السـ رور والابتئاس .

*

بين النوائب بَوْنٌ للناس فيه مزايا .
البعض لم يدر الا البلا ينادي البلايا ؛
والبعض ما ذاق منها سوى حقير الرزايا [3] .
ان الحياة سُبات سينقضي بالمنايا .

---

(١) سنوسي ٢٣٩–٢٤٠ ؛ الشابي ١١٤–١١٥ .
(٢) الماضغان : الفكان (الفم) .
(٣) حقير الرزايا : المصائب القليلة . يقصد : بعضهم تنزل به مصائب كبيرة وبعضهم تنزل به مصائب صغيرة .

وما الرؤى فيه إلا آمالنا والخطايا .
فان تيقظ كانت بين الجفون بقايا ...[1]

*

.....[2]

*

الفجر يسطع بعد الدُّجي ، ويأتي الضياءُ ؛
ويرقد الليل قسراً على مهاد الصفاء[3] .
وللشعوب حياةٌ حيناً ، وطوراً فناء .
الياس موت ، ولكن موت يثير الشقاء[4] .
والجِدّ للشعب روحٌ توحي[5] اليه الهناء .
فان تولت تصدت حياة للبلاء[6] .

وفي القطعة التالية يتبع الشابي المعري[7] في بعض لزومياته[8] ، فلا يقف متسائلاً امام مظاهر الحياة فقط ، بل يحكم على الناس بالبوار وعلى الحياة نفسها بقلة الجدوى وبأن الله هو الذي اراد الشقاء لعباده[9] :

ارى هيكل الايام يعلو مُشيَّداً ، ولا بد ان يأتي على رأسه الهدمُ .
فيصبح ما قد شيّد الله للورى خراباً ، كأن الكل في أمسه وَهْم .

---

(١) الحياة نوم وحوادثها احلام . وهذه الاحلام متفاوتة ولكنها كلها آمال نتمناها او اخطاء نرتكبها . فاذا استيقظ الانسان (تنبه ، عرف الحقيقة ، مات) ، اصبحت حوادث الايام شيئاً قليلاً لا قيمة له .

(٢) هنا يأتي مقطع ركيك جداً وغامض .

(٣) ؟

(٤) يثير الشقاء « يحدث المصائب » عند الآخرين « عند اهل الميت لا عند الميت » .

(٥) في سنوسي ص ٢٤٠ ؛ وفي الشابي ص ١١٥ (الطبعة الثانية ١٣٣) : تومي ، ولعله خطأ .

(٦) الضمير في تولت يعود على الروح .

(٧) ابو العلاء المعري شاعر مفكر ولد ٣٦٣ للهجرة ، ٩٧٣ م ، وتوفي ٤٤٩ للهجرة ، ١٠٥٧ م . وكان المعري متشائماً شاكاً .

(٨) اللزوميات مقطوعات متفاوتة الطول ملأها المعري بتأملاته في الدهر والحياة والناس .

(٩) الشابي ١٢٧ .

فقل لي: ما جدوى الحياة وكربها، وتلك التي تذوي وتلك التي تنمو ؟
وفوجٌ تغذّيه الحياة لِبانها، وفوج غدا تحت التراب له ردم ؛
وعقل من الاضواء في رأس نابغٍ وعقل من الظلماء يحمله فَدْم ؛
وافئدة حسرى تذوب كآبةً، وافئدة سكرى يرف لها النجم ؟

*

لِتَعْسِ الورى شاء الاله وجودَهم فكان لهم جهل وكان لهم فهم .

واستمر قلق الشابي وتشاؤمه بعد ان جاوز العشرين، وقل عنده التفاؤل حتى ندر في اشعاره التي نظمها في طوره الثاني .

ثم عاد الى الشابي شيء من تفاؤله فنظم قصيدة من نوع الرباعيات وصف فيها حياته مع محبوبته في الطبيعة الجميلة وطلب من الأحداث ومن الموت نفسه ان تقف كلها بعيداً عنهما لأنهما سعيدان [1] :

قد سكرنا بحبنا واكتفينا، يامديرَ الكؤوس، فاصرف كؤوسك.
واسكُبِ الخمر للعصافير والنحْ ل وخلِّ الثرى يضمُّ عروسكْ.

ما لنا والكؤوس نطلب منها نشوةً والغرامُ سحر وسكرُ.
خلنا منك، فالربيع لنا ساقٍ، وهذا الفضاء كأسٌ وخمر.

نحن نحيا كالطير في الافق الساجي وكالنحل فوق غضّ الزهور،
لا نرى غيرَ فتنةِ العالم الحيّ واحلامِ قلبها المسحور.

نحن نلهو تحت الظلام كطفلين سعيدين في غرور الطفولهْ،
وعلى الصخرة الجميلة في الوا دي وبين المخاوف المجهوله .

نحن نغدو بين المروج ونعدو ونغنّي مع النسيم المغنّي ؛
ونناجي روح الطبيعة في الكو ن ونُصغي لقلبها المتغني .

---

(١) فهمي ٤٩-٥١ ، الشابي ١٦٣-١٦٥ .

نحن مثل الربيع نمشي على أر ضٍ من الزهر والرُؤى والخيالِ ؛
فوقهـا يرقص الغرام ويلهو ويغـني في نشوة ودلال .

نحن نحيا في جنة من جنان السـ ـحر في عـالم بعيدٍ بعيـدِ .
نحن في عيشنا المورَّد نتلو سور الحب للشباب السعيد .

قد تركنا الوجود للناس فليقـ ضوا عليه الحياة كيف ارادوا
وذهبنـا بلبه وهو روح ، وتركنا القشور وهي جمادُ .

قد سكرنا بحبنا واكتفينا ؛ طفح الكأس فاذهبوا ، يا سُقاةُ .
نحن نحيا فلا نريدُ مَزيداً ؛ حسبُنا ما مَنَحْتِنا ، يا حياة .

حسبُنا زهوُنا الذي يتثنى ، حسبنا كأسنا التي نترشّفْ .
ان في ثغرنا رحيقـاً سماوياً وفي قلبنا ربيعـاً مفوّف .

ايهـا الدهرُ ، ايهـا الزمن الجا ري الى غير وجهـة وقرارِ ،
ايها الكونُ ، ايها الفَلَكُ الدّو وار بالفجر والدجى والنهار ،

ايها الموتُ ، ايها القَدَرُ الاعْـ ـمى ، قفوا حيث انتمُ او فسيروا ؛
ودَعُونا هنـا تغني لنا الاحـ ـلام والحب والوجود الكبيرُ .

وإذا ما أبيتمُ فاحملونـا ولهيبُ الغرام في شفتينا ؛
وزهور الحياة تعبق بالعطـ ـر وبالسحر والصبا في يدينا .

وبعد هذا التفاؤل القليل يعود الشابي الى تشاؤمه الأول ثم يُغْرِقُ فيه حتى انه لَيَتَمَنّى ان لو لم يكن قد وجد على هذه الأرض مكبلاً بالقيود حيث لا شيء إلا الشقاء السرمدي . وأما إذا كان فيها مسرات فانها تفنى وشيكاً حتى يحل مكانها عذاب مقيم [1] :

يا صميم الحياة ، إني وحيـد مدلجٌ [2] تائهٌ فأين شروقُكْ ؟

(١) فهمي ٥٢ – ٥٣ ، الشابي ١٩٣ – ١٩٤ .
(٢) مدلج : سائر في الليل « يعسر عليه الاهتداء في مسيره » .

يا صميم الحياة ، إني فـــؤادٌ ضائع ظامىء فأين رحيقـــك ؟
يا صميم الحياة ، قد وَجَمَ النا يُ وغام الفضا فأين بروقُك ؟
يا صميم الحياة ، اين اغـــانيـ ـك؟ فتحتَ النجوم يُصغي مشوقك .

*

كنت في فجريَ الموشّح بالاحـ ـلامِ عطراً يرِفُّ فوق ورودِكْ
حالماً ينهل الضيـــاء ويُصْغي لك في نشوة بوحي نشيـدك .

*

ثم جاء الدجى ، وأمسيتُ اورا قاً بِـداداً [1] من ذابلات الورودِ ،
وضَبـــاباً من الشـذا يتلاشى بين هول الدجى وصمت الوجود

*

كنتُ في فجرك المُغلَّف بالسحـ ـرِ فضاء من النشيد الهـادي ،
وسجايا من الرُّؤى يتهـــادى في ضمـــير الآزال والآباد ،
وضيـاءً يعـــانق العـالم الرحْـ ـب ويسري في كل خافٍ وباد .
وانقضى الفجر فانحدرت من الأفـ ـق تراباً الى صمـــيم الوادي .

*

يا صميم الحياة ، كم انا في الدنـ ـيا غريب اشقى بغربةِ نفسي ،
بـــين قوم لا يفقهون اناشيـ ـد فؤادي ولا معانيَ بؤسي ؛
في وجود مكبلٍ بقيـــودٍ تائه في ظـــلام شك ونحس .
فاحتضني وضُمـني لك بالمـــا ضي فهذا الوجودُ عـلة يأسي .

*

لم اجدْ في الوجود إلا شقاءً سرمـــدياً ولذة مضمحـلهْ [2] ،
وورود تموت في قبضـة الاشـ ـواك ؛ ما هذه الحياةُ المملهْ !

*

(١) بداد : متفرقة منثورة .

(٢) في فهمي ص ٥٣ ، والشابي ص ١٩٤ ضم هذا البيت الى الثلاثة التي تليه في مقطع واحد ثم جعل البيت الثاني رابعاً . ولعل الترتيب الذي اقترحه اصوب .

وأمانيَّ يُغرق الدمع احـــلا ها ويُغنّي يَمُّ الزمان صداها
واناشيـــدَ يأكل اللهب الدا مي مَسَرّاتِها ويُبقي أساهـــا

*

سَأمٌ هـــذه الحيـــاة مُعادٌ وصباحٌ يَكُرُّ في إثْرِ ليلِ .
ليتني لم أفِدْ الى هـــذه الدنـ يا ولم تسبح الكواكب حولي .
ليتني لم يعانقِ الفجرُ احـــلا مي ولم يلثمِ الضيـــاء جفوني .
ليتني لم أزَلْ كما كنتُ ضوءًا شائعاً في الوجود غيرَ سجين !

وصمد الشابي للحياة ومصائبها فابتسم للعواصف وألقى عطره على الأحزان وغنى بمجد الحياة نفسها وتغنى بالربيع وبالصباح ، ولكنه سيموت اخيراً فما فائدة ذلك كله[1] .

في جبال الهمومِ أنبَتُّ اغصا ني فرفّت على الصخور بجُهْدي[2] .
وتغشّاني الضّبـــابُ فأورقـ ـت وازهرت للعواصف وحدي .
وتمايلت في الظـــلام وعَطّرْ ـت فضاء الاسى بانفاس وردي .
وبمجـد الحيـــاة والشوق غنيـ ـت فلم تفهمِ الاعاصيرُ قصدي .
ورمت[3] للوهـاد أفنـانيَ الخضـ ـرَ وظلت في الثلج تحفِر لحدي ؟
ومضت[4] بالشذا فقلت لنفسي : ستغشّي الرياح بالعطر بجـدي !
وتغـــزّلتُ بالربيـــع وبالفجـ ـرِ ؛ وجاء الردى فما تمّ[5] بعدي ؟

ويَعجب الشابي حين يُولي الدنيـا كلَّ هذه العناية وهذا الاهتمام بينما هي سخافة . والناس مثل دنياهم[6] .

لو كانت الايام في قبضـــتي أذريْتُها للريح مثلَ الرمالْ .
وقلت : يا ريحُ بهـــا فاذهبي وبدّديها في سحيق الجبـــال ،
بل في فجاج الموت ، في عـالم لا يرقص النورُ به والظـــلال .

*

(١) الشابي ١٧٤ .
(٢) في الاصل : بجهد .
(٣و٤) الضمير في « رمت » و « مضت » يعود على الاعاصير .
(٥) كذا في الاصل : تم (يقصد : ما حدث بعدي) . ويمكن ان تكون : ثم فيكون المعنى حينئذ : اذا فعلت الاعاصير كل هذا ، فما يبقى في الحياة بعدي ؟
(٦) الشابي ١٧٥ .

لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيتُهُ في النار نار الجحيمْ .
ما هذه الدنيا وهـذا الورى وذلك الافق وتلك النجوم ؟
النارُ أولى بعبيد الاسى ومسرحِ الموت وعُشّ الهموم .

*

يا ايها الماضي الذي قد قضى وضمه الموتُ وليل والابدْ،
يا حاضر الناس الذي لم يزل ، يا ايها الآتي الذي لم يلد [1]،
سخافة دنياكم هذه تائهة في ظلمة لا تُحَد .

هذه الحياة التي هي سخافة تجعل منا جميعِنا أضحوكة ، ذلك لأن كل واحد منا ممثل على مسرح الحياة يمثل دوره وهو يسخر من الناس ، بينما الناس انفسهم في الوقت نفسه يسخرون منه [2] .

ضحكنا على الماضي البعيد ، وفي غدٍ ستجعلنا الايام اضحوكة الآتي .
وتلك هي الدنيا : رواية ساخرٍ عظيم غريب الفنّ مبدعِ آيات .
يمثلها الاحياء ، في مسرح الاسى ووسط ضَباب الهم ، تمثيل اموات ،
ليشهدَ من خلف الضبابِ فصولَها ويضحك منها من يمثل من يأتي [3] .
وكلٌّ يُؤدّي دورَه وهو ضاحك على الناس مضحوك على دوره العاتي [4]

والناس لا يريدون المثل الأعلى إلا خيالاً مجرداً من المادة منقطعاً عن اسباب الحياة . فاذا هم رأوا ذلك المثل الأعلى يتحقق في شخص انكروه ثم اهانوا ذلك الشخص وسموه صنماً . إن البشر لا ينصف بعضهم بعضاً لأنهم يسيرون بأهوائهم لا بعقولهم . فاذا كان فيهم رجل فذ عبقري اهملوه، فاذا مات ندموا على ان لم يكونوا قد وفّوه حقه من قبل، ثم مجدوا جثته وقبره [5] .

---

(١) يقصد : لم يولد .
(٢) الشابي ١٩٥ .
(٣) ويضحك منها من يمثل من يأتي (؟)
(٤) العاتي : المتجبر ، المتكبر ولكن ما معناها هنا ؟ مضحوك ، الاصح : مضحوكاً .
(٥) الشابي ١٩٦ .

ما قدّس المثلَ الاعلى وجَمَّلَهُ في أعين الناس الا انه حُلُمُ .
ولو مشى فيهمُ حيـاً لحطّمه قوم وقالوا بخُبث : انه صنم .
لا يعبد الناس إلا كل منعدم مُمَنَّعٍ ؛ ولمن حاياهم العدم [1] .
حتى العباقرةُ الافـذاذ حيُّهمُ يلقى الشقاء ؛ وتلقى مجدَها الرِمم [2]
الناس لا ينصفون الحي بينهم ، حتى اذا ما توارى عنهمُ ندموا .
الويل للناس من اهوائهم ؛ أبداً يمشي الزمان وروح الشر تحتدم .

ويجرّدُ الشابيُّ من المثل الأعلى صورة روحية ربما نظرنا اليها على انها المرأة « المثل الأعلى في النساء » او على انها روحه هو وعبقريته . ويخاطب الشابي هذه الصورة الروحية ثم ينعى على الناس سلوكهم ، فهم خَلْق مفسدون غير رشيدين وهم كالقرود لا يدركون جمال الغناء ولا جمال الورود . اما « هي » فانها لم تخلق ليقترب الناس منها (ويفهموها) بل ليعبدوها (من غير ان يدركوا كُنهها) [3] .

انت كالزهرة الجميلة في الغا ب ولكن ما بين شَوْك ودود .
والرياحينُ تحسب الحسكَ الشري رَ والدودَ من صنوف الورود .
فافهمي الناس ؛ إنما الناسُ خَلْقٌ مفسد في الوجود غـير رشيد .
والسعيد السعيد من عاش كالليـ ـل غريباً في اهل هذا الوجود .
ودعيهم يَحْيَوْن في ظلمة الاثـ ـم وعيشي في طُهرك المحمود ،
كالملاك البريء ، كالوردة البيضا ء ، كالموج في الخضم البعيـد ؛
كأغاني الطيور ، كالشفق السا حر ، كالكوكب البعيد السعيد ؛
كثلوج الجبال يغمُرُهـا النو رُ وتسمو على غُبار الصعيـد .

*

انت تحت السماء روح جميـلٌ صاغه الله من عبـير الورود ؛
وبنو الارض كالقرود ، وما اضـ ـيعَ عطر الورود بين القرود !

(١) ولمن حاياهم (عايشهم ؛ عاش معهم) العدم (الاغفال والاهمال والانكار) .
(٢) حيهم يلقى الشقاء : العبقري منهم يشقى ما دام حياً . وتلقى مجدها الرمم : يمجد الناس رفات العبقري بعـد موته .
(٣) الشابي ٢٠٢ .

انت من ريشة الالـه فلا تـُلـْ قي بفن السما لجهل العبيـد .
انت لم تخلقي ليـَقْربَك النـا س ولكن لتـُعْبـَدي من بعيد !

ويظل الشابي حائراً في الحياة لا يستطيع فهمها ، فيفضل ان يموت وان يحفر قبره بنفسه . بعدئذ يقول لقد جربنا الحياة كلها : حلوها ومرها ، صعبها وسهلها ، فلم نجـد لها قيمة. ثم بطلت فتنة الحياة ايضاً ، فماذا علينا ـ بعد ان جرّبنا الحياة ـ ان نجرب الموت [1] .

نحن نمشي وحولنا هذه الاكوا ن تمشي ؛ لكن لأية غايهْ ؟
نحن نشدو مع العصافير للشم س ، وهذا الربيع ينفخ نايهْ ؛
نحن نتلو رواية الكون للمو تِ ، ولكن ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقالت : سل ضمير الوجود كيف البدايه !

*

وتغشّى الضبابُ نفسي فصاحت في مَلالٍ مر : إلى اين امشي ؟
قلت سيري مع الحياة ؛ فقالت : ما جنينا ـ تُرى ـ من السير امس؟
فتهافتُّ كالهشيم على الارْ ض وناديت : اين يا قلب رفشي ؟
هاتِه عَلـّني أخط ضريحي في سكون الدجى وادفن نفسي !

*

هاتِه فالظلام حولي رهيب وضَباب الاسى مُنيخ عليا ؛
وكؤوس الغرام أترعها الفجـ ـر ولكن تحطمت في يديّا .
والشباب الغرير ولّى الى الما ضي وخلّى النحيب في شفتيا .
هاتِه ، يا فؤادُ ، إنّا غريبا نِ نصوغ الحياة فناً شجيا .

*

قد رقصنا مع الحياة طويلا وشَدَوْنا مع الشباب سنينا ؛
وعَدَوْنا على الليالي حفاةً في شعاب الزمان حتى دَمِينا ؛
وأكلنا التراب حتى مَلِلْنا ، وشربنا الدموع حتى رَوِينا ؛

(١) فهمي ٦٠ – ٦٢ ، الشابي ١٩١ – ١٩٢ .

ونثرنا الاحـــلام والحب والآ لام والحزن يَسْرَةً ويمينا .

*

ثم ماذا ؟ هـــذا انا صرت في الدن يا بعيداً عن لهوها وغناهـــا .
في ظـــلام الفنـــاء أدفن أيّا مي ولا استطيع حتى بكاها .

*

وزهور الحيـــاة تهوي بصمتٍ محزنٍ مُضجر عـــلى قَدَميّا .
جف سحرُ الحياةِ ، يا قلبيَ البا كي ، فهيا نُجَرِّبُ الموت هيا !

وأخيراً يزفر الشابي زفرة شديدة في وجه الدهر والناس في قصيدة موسومة باسم نشيد الجبار او هكذا غني برميثيوس [1] . وبروميثيوس اله النار وموجد الحضارة الانسانية . وبعد ان صنع بروميثيوس صورة الانسان من طين الارض سرق النار المقدسة من السماء حتى احيا بها صورة الانسان . وأراد زفس (او جوبيتر) ، كبير الآلهة عند اليونان، ان يعاقبه فأرسل اليه باندورا [2] - وهي المرأة الاولى في الأرض - وكانت قد جاءت معها من عند زفس الى زوجها أبيميثيوس بعلبة فيها جميع الشرور . فلما وصلت العلبة الى ابيميثيوس فتحها فانتشرت منها الشرور كلها ولم يبق في قعر العلبة المشؤومة إلا «الأمل» . على ان تينانيوس - والد بروميثيوس - افسد المكيدة وحال دون وصول باندورا الى ولده . واخيراً امر زفس بارساله مقيداً الى جبال القوقاس حيث انقض عليه نسر والتهم كبده . ولكن هركيوليس قتل النسر وأنقذ بروميثيوس .

هذه القصيدة هي ثورة على الآلام في وجه الموت ، وتهكم على اعدائه الشامتين بمصارع العباقرة في الأرض . يقول الشابي لهؤلاء الشامتين انه سيظل حياً على الرغم من ان الداء ينخر فيه ، وانه سيظل يمرح ويغني ويؤدي رسالته على الرغم من انه يدنو من المـــوت رويداً رويداً .

---

(١) فهمي ٦٩ ، الشابي ٤٨ ، ٢١١ .

(٢) باندورا في الخرافات اليونانية تقابل حواء في الكتب المقدسة .

على ان هذا التجلد للمصائب وهذا التماسك امام عيون الشامتين يدلان على ان الشاعر فقد عنصر الأمل فأخذ يغطي يأسه بالتجلد والتماسك . انه كالسراج الذي يشع نوراً قوياً وضاءً قبل ان ينطفىء الى الأبد . وهكذا استجمع الشابي كل ما في نفسه من قوة الارادة ليقول لأعدائه للمرة الأخيرة انه لا يهاب الموت الذي يدنو منه بخطى ثابتة سريعة . ان الموت ـ كما يذكر الشابي في هذه القصيدة ـ سيتناول جثته ويمثل بها . اما روحه فستنفلت من هذه الجثة الى حيث « الشمس والشفق الجميل » ، الى حيث خلود النفوس العبقرية . ان الأعداء الشامتين سينتقمون برجم ظله ، اما « هو » فلن يمسوه بسوء . بمثل هذه الروح تجيش في صدر الشاعر العظيم المؤمن بخلوده ينشدنا الشابي [1] :

سأعيش رغمَ الداءِ والاعـداء ... كالنسر فوق القمـة الشماء .
أدنو الى الشمس المضيئة هازئـاً ... بالسحب والامطـار والانواء .
لا ألمح الظلَّ الكئيبَ ولا ارى ... مـا في قرار الهوة السوداء .
وأسير في دنيا المشاعر حالمـاً ... غَرِداً ، وتلك طبيعة الشعراء .
اشدو بموسيقى الحيـاة ووحيها ... وأُذيبُ روح الكون في إنشائي .
وأُصيخ للصوت الالهيّ الذي ... يحيي بقلبي ميّت الاصـداء .
وأقول للقـدر الذي لا ينثني ... عن حرب آمالي بكل بـلاء :
«لا يطفىء اللـهَبَ المؤجَّجَ في دمي ... موجُ الاسى وعواصف الارزاء.
فاصْدُمْ فؤاديَ ما استطعت فانه ... سيكون مثـلَ الصخرة الصماء:
لا يعرفُ الشكوى الذليلةَ والبكا ... وضراعةَ الاطفـال والضعفـاء ،
ويعيش كالجبـار يرنو دائمـاً ... للفجر ، للفجر الجميـل النـائي .
واملأْ طريقي بالمخاوف والدجى ... وزوابع الاشواك والحصبـاء ،
وانشرْ عليه الرعب وانثر فوقه ... رُجُمَ الردى وصواعقَ البأساء.

---

(١) فهمي ٦٩ - ٧٠ ، الشابي ٢١١ - ٢١٣ . والقصيدة في « فهمي » مختـارات فقط ، وهي أتم في « الشابي » .

سأظل امشي رغم ذلك عازفاً قيثارتي مترنماً بغنائي ،
امشي بروح حالمٍ متوهجٍ في ظلمة الآلام والادواء .
النور في قلبي وبين جوانحي ، فعلامَ أخشى السير في الظلماء ؟
إني انا الناييُ الذي لا تنتهي انغامه ما دام في الاحياء ؛
وانا الحِضَمُّ الرحب ليس تزيده إلا حياةً سطوةُ الانواء .

*

اما إذا خَمِدَتْ حياتي وانقضى عمري وأخرست المنية نائي [1]
وخبا لهيبُ الكونِ في قلبي الذي قد عاش مثل الشعلة الحمراء
فأنا السعيد بأنني متحوّلٌ عن عالم الآثام والبغضاء
لأذوب في فجر الجمال السرمديّ وارتوي من منهل الاضواء
وأقولَ للجمْع الذين تجشموا هدمي وودُّوا لو يخرُّ بنائي
ورأوْا على الاشواك ظليَ هامداً فتوهموا اني قضيتُ ذَمائي [2]
وغَدَوْا يشبّون اللهيب بكل ما وجدوا ليَشْوُوا فوقه أشلائي
ومَضَوْا يَمُدّون الحِوان ليأكلوا لحمي ويرتشفوا عليه دمائي ؛

*

إني اقول لهم بصوت حالم ، وعلى شفاهي بسمة استهزاء :
« إن المعاولَ لا تَهُدُّ مناكبي ، والنار لا تأتي على اعضائي .
حتى ولو امسيتُ جسماً ميّتاً مُلْقىً لعصف الزَعزع النَكباء [3]
فارموا الى النار الحشائش والعبوا ، يا معشر الاطفال ، تحت سمائي .
وإذا تمردت العواصف وانتشى بالهول قلب القبة الزرقاء ،
ورأيتموني طائراً مترنماً فوق العواصف في الفضاء النائي ،
فارموا على ظلي الحجارة واختفوا خوفَ الرياح الهوج والانواء .

---

(١) في الطبعة الاولى (ص ٢١٢) والثانية (ص ٢٣٠) : نائي ، وهي نايي (مزماري) .
(٢) الذماء : بقية الروح في الجسد (يقصد : مت) .
(٣) الزعزع : الريح الشديدة التي تزعزع كل شيء. النكباء : التي تهب من كل مكان اي تدور وهي تهب.

وهناك في أمن البيوت تبادلوا غثّ الحديث وميت الآراء ،
وترغموا ما شئتمُ بشتائمي ، وتجاهروا ما شئتمُ بعدائي .
أما أنا فأجيبكم من فوقكم ، والشمس والافق الجميل إزائي :
من جاش بالوحي المقدس قلبُه لم يحتفل بحجارة الفلتاء[1] .

(١) في القاموس : الفلوت هو الشيء القصير الذي لا ينضم طرفاه من قصره .

فهرست ابجدي للاعلام

آ – أ
آدم ٩٦
آل بيت المصطفى ١٣٢ ، ١٣٦ .
آل البيت ١٣٦ ح
آل الجرار ١٤ م
آل الحسين ١٢٩ م ، ١٣٠
آل الخالدي ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٦ ، ١١١
آل سلام ٤٥
آل الشكعة ١٦ ح
آل طوق ١٣
آل طوقان ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٥٣
آل عبد الهادي ١٣ – ١٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٢٨
آل عسقلان ١٥
آل علي بن ابي طالب ١٣٢
آل النشاشيبي ١٠٦ ، ١١١
آل هاشم ١٢٩ ، ١٣٠م ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٦ح
آمنة = فروخ – آمنة حلمي
ابراهيم ١٤٩ ح
ابراهيم آغا الشربجي = طوقان – ابراهيم آغا الشربجي
ابراهيم باشا ١٤ م
ابراهيم – حافظ = حافظ ابراهيم
ابليس ٤٣
ابن الاثير ٧٤ ، ٧٤ ح
ابن الاحنف (اسم مستعار لابراهيم طوقان) ٢٤ ، ٥٤ ح ، ٥٩ ، ن طوقان – ابراهيم
ابن التعاويذي – سبط = سبط بن التعاويذي
ابن خلدون ١٨٠ ح
ابن الرومي ٨١ ، ١٦٥ ، ٢١٨
ابن زياد = طارق بن زياد
ابن زيدون ٩٤ ، ٩٤ ح
ابن الساعاتي ٧٣ – ٧٤
ابن عربي – محي الدين ٢٣٥ م
ابن الفارض ١٦٥
ابن علي = الحسين بن علي ملك الحجاز
ابن المعتز ٧
ابوبكر ٧٣
ابو بكر – سعيد ١٨١
ابو تمام ١٣
ابو جعفر = ابراهيم طوقان
ابو الخطاب (اسم مستعار) ٩١ م
ابو دلامة ٧٣
ابو سلمى (عبدالكريم الكرمي) ٤٦–٤٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ح م ، ٩١ م ، ٩١ ح ، ١٠٤ ، ١١٣ ح
ابو شامة الدمشقي – شهاب الدين ٧٤
ابو العتاهية ٤٨
ابو العلاء = المعري
ابو فراس ٧١
ابو الفرج الاصفهاني = الاصفهاني
ابو ماضي – ايليا ١٧٠ م
ابو نواس (الحسن بن هاني) ٧ ، ١٥ ح ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٤ ح ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٦ .
ابيميثيوس ٢٤٩ م
الاتراك العثمانيون ١٥
احمد – احسان (القوصي) = القوصي – احسان
الاخطل الصغير = الخوري – بشارة عبدالله

ادباء المهجر ٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠
اده – اميل ١٣٨
اسحق ١٤٩ ح
اسماعيل ١٤٩ ح
الاسماعيليون (العرب) ١٤٩ ح
اشعب ٢٤ ، ٧٣ م
الاشوريون = التياريون
اصحاب الرسائل والمقامات ٧٨
الاصفهاني – ابو الفرج ٧٣
اقبال – عباس ٢٨
ام احمد = عسقلان – فوزية
ام جعفر = طوقان – سامية
ام أوفى ١٣٠ ، ١٣٠ ح م
امرؤ القيس ١٣١ ، ١٣١ ح
الامويون = بنو امية
الامير = شوقي
الامين (اسم مستعار) ٥٥
امين = الحسيني – الحاج امين
انطونيو ١٥٠ ح م
الانكشارية ١٤ ، ١٤ ح
الانكليز ٣٤ ، ٣٤ح ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ح ، ١١١ ، ١١٢ م ، ١١٦ ، ١١٦ ح
اول الخلفاء الراشدين = ابو بكر

ب ت ث

البارودي – محمود سامي باشا ٧
البارودي – نديم ٣٠ م
البارودي – الدكتور وجيه ٣٠ ، ٣٢ ، ١٠٠ م ، ١٠٠ ح ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م
باسانو ١٥٠ ح م
باندورا ٢٤٩ م ، ٢٤٩ ح
البجالي – اسكندر الخوري ٧٣
البحتري ٧
البحيري – رأفت ٣٢
بخعازي – جبران ٢٨
بديع الزمان الهمذاني ٧٨
البربير – عبدالرحمن ٣٦ م ، ٣٧
بروتوس ٤٩
برومثيوس ٢٤٩ م
بشار بن برد ٧١ ، ٢١٨
بكر ٥٣
بلقيس ٩٩ م
بنتويش – نورمان ١١٩
بنو اسد ١٣١ ، ١٣١ ح
بنو امية ١٣٢ ح
بنو العباس ١٣٢ ح
بنو هاشم = آل هاشم
بهاء – بها – بهية ١٠٠ م
بورشيا ١٥٠ ح
بيرون ٧
تغلب ٥٣
تقي الدين سعيد ١٢٧
التنير – احمد ١٢٧
التياريون ١٣٥ ح م ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م
تين – أليس ٣١ ح .
تين ليلي ٣١ ح ، ١٠٣ م
تينانيوس ٢٤٩

ج – ح – خ

جبران – جبران خليل ١٦٥ ، ١٧٠ م ، ١٧٠ ح
جبريل ١٣٧
جبور – جبرائيل ٢٨
الجرار – بنو = آل الجرار
جرير ٢١٨
الجزيري – حسين ١٨١
جمجوم – محمد ١١٧ ، ١١٨ – ١١٩
جميل – حافظ ٣٠ – ٣٢ ، ١٠٢ ، ١٠٢ ح م
الجندي – انور ٦٩
جوبيتر ٢٤٩
جورج الخامس ١٣٥ ح
جورج – لويد ١٣٢

حافظ ابراهيم ٧
حبابة ٤٣ ، ٤٣ ح
حبوب – سنية ٨٣ ، ٨٣ ح
حجازي – فؤاد ١١٨ م
حجر (والد امرىء القيس) ١٣١ م
الحسن بن هاني = ابو نواس
حسين باي ١٥٣
الحسين بن علي بن ابي طالب ١٣٢ ح
الحسين (شريف مكة) ١٢٩ م ، ١٢٩ ح ، ١٣١ – ١٣٢ ، ١٣٤ ح
الحسيني – الحاج امين ٥٥ ، ١٠٩ ، ١١١ م ، ١١١ ح م ، ١٢٩ – ١٣٠
الحسيني – رجائي ٣٦ م ، ٣٧
الحسيني – موسى كاظم باشا ٧٩ م ، ١٠٩ ، ١٢٩ – ١٣٠ ، ١٣٩ – ١٤٠
الحكيم – توفيق ٧٣ م
حكيم ، حكيميان – هنريت ٨٣
حلمي = فروخ – آمنة حلمي
حوا – حسن ٣٢
حواء ٩٦ ، ٢٤٩ ح
الحياريون ١٣
الخالدي – احمد سامح ٤٥ – ٤٧
الخالدي – حسين ٤٥ ، ٤٦
الخالدي – نظيف ٤٥
الخطيب – فؤاد باشا ١٣١ ، ١٣١ ح
الخطيب – كنعان ٣٦ – ٣٧
الخماش – الشيخ ابراهيم ابو الهدى ١٨ م
الخوري – بشارة عبدالله (الاخطل الصغير) ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٥ – ١٢٦
الخوري – رشيد سليم ١٧٠ ، ١٧٠ ح
خوري – وداد (قرطاس) ٣٢
خياط – الدكتور جورج ٢١ ، ٢٤ ، ٩٨ ، ٩٨ ح
الخيام – عمر ١٦٥

د ذ ر ز

دروزة – غزة ١١٠
دموس – حليم ١٢٣ م
ده موسيه – الفرد ١٦٧
ديك الجن الحمصي ٣٠
راغب = النشاشيبي – راغب
رجب – مصطفى ١٦٧ م ، ١٦٨
رستم – الدكتور اسد ٢٨
رسول الله ٧٣ م ، ٧٤ ح ، ١٠٩ ، ١٣٥ ح م
رشدي – فاطمة ٨٢
الرفاعي – عبدالمنعم ١٠٤ ، ١٠٤ ح
روبين (النبي) ١١١
روزفلت – فرانكلين ٨٠ ح م
رؤوبين (شاعر يهودي معاصر) ٧٦ ، راجع ١٤٩ – ١٥٠
الريحاني – امين ٣٣ ، ٣٣ ح
زريق – جلال ٦٣
زريق – نخلة ١٨
زفس ٢٤٩
الزمخشري ٧٢
زهير بن ابي سلمى ١٣١ – ١٣٢
الزير – عطا ١١٨ م

س ش

ساره ١٤٩ ح م
سبط بن التعاويذي ٧
سكينة بنت الحسين ٧٣
سفننغ ١٨٧ ، ١٨٧ ح ، ٢٠٤ ، ٢٠٤ ح
سلام = آل سلام
سلام ٤٣ ح
سليم الاول العثماني ١٥٢
سليمان بن داوود ٩٩
السنوسي – زين العابدين ١٦١ م ، ١٦٢ ، ١٦٥
سيبويه ١٤٧ ، ١٤٧ ح

سيد المرسلين = رسول الله
سيف الدولة ٦٤ ح
الشابي ٥ – ٨ ، ١٥١ ، ٢٥٢ ، ١٥٥ – ٢٥٢
الشاعر القروي = الخوري – رشيد سايم
شبقلو – محمد ٣٦ ، ٣٧ م
شرارة – حسن ١٨٦ – ١٨٧
شعراء بني العباس ٥٩ ، ٣٦ ، ١٣٠ ، ١٦٧م
الشعراء الرومانتيكيون ١٦٧
الشعراء الجاهليون ١٦٧
شكسبير ١٥٠ م ، ١٥٠ ح
شمعون = مار شمعون
شهاب الدين ابو شامة = ابو شامة الدمشقي
الشكعة = آل الشكعة
شوقي – احمد ٧ ، ٣٣ ، ٦١ ح ، ٧٤–٧٥ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٦ ح
شيلوخ ١٥٠ ، ١٥٠ ح م
شبلي ٧

ص ض ط

صبرا – وديع ١٢٤
صريع الغواني (مسلم بن الوليد) ٣٠، ٥٩
صلاح الدين ٧٤ م ، ١١١
الصليبيون ١١١
الصواف – حسني ٢٨
ضومط – جبر ١٣٨ م ، ١٣٨ ح
طارق بن زياد ١٢٤ ، ١٢٤ ح
الطبري ٧٢
طوق = آل طوق
طوقان = آل طوقان
طوقان – ابراهيم ٥ – ٨ ، ١٣ – ١٥٠
(طوقان) – ابراهيم آغا الشربجي ١٤
طوقان – احمد ٥ ، ١٥ ، ١٦ م ، ١٨ م ، ٢٠ ، ٢٠ ح ، ٣٥ ، ٣٥ ح ، ٣٦ ، ٤٤ م ، ٤٥ م ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٠م ، ٩٠ ح ، ٩٦ ، ١٠٨ ح ، ١٠٩ ح ، ١٣٠ ، ١٤٩ .
طوقان – اديبة ١٥
طوقان – بندر ١٥ ، ١٥ ح
طوقان – جعفر ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠
طوقان – حافظ ١٣٩
طوقان – حنان ١٥ ، ١٥ ح
طوقان – داوود آغا ١٨
طوقان – رحمي ١٥ ، ١٦ – ١٧ ، ٥٧ م ، ٥٨ ، ٥٩ – ٦٠
طوقان – سليمان بك ٤٨ ح
طوقان – عبدالفتاح آغا ١٤ ، ١٥ ، ١٥ ح ، ١٦ م ، ١٦ ح م ، ٣٥ م ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .
طوقان – عريب ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠
طوقان – فدوى ١٥ ، ١٥ ح م ، ١٧ ، ٥٠ ح ، ٧٦ ح ، ١٠٤ ، ١٠٤ ح ، ١٥٠ ح
طوقان – فتايا ١٥
طوقان – قدري حافظ ٤٣ ، ٤٣ ح ، ٦٠ ، ٧٦ ، ٧٦ ح ، ٧٩ – ٨٠
طوقان – كريمة ٧٢ م
طوقان – نمر ١٥ ، ١٧
طوقان – يوسف ١٥

ع غ

عائشة (زوج الرسول) ٧٢ – ٧٣
عائشة بنت طلحة ٧٢
العباس بن الاحنف ٧٠ ، ٣٠ ، ٧٢
العباس بن مرداس ٤٩
العباسيون – بنو العباس
عبدالله بن الحسين (ملك الاردن) ١٣٠–٢٣١
عبدالكريم الخطابي – الامير ١٢٢–١٢٣
عبدالهادي = آل عبدالهادي
عبدالهادي – روحي ٥٢ م
عبدالهادي – سامية = طوقان – سامية عبدالهادي
عبدالهادي – قاسم ٥٢
عبوشي – برهان الدين ١٠٤ ، ١٠٤ ح م

١٠٦ – ١٠٧
العثمانيون = الاتراك العثمانيون
العرب ٩٤ ح ، ١٠٧ م ، ١١٠ ، ١١٢ م ، ١١٤
عرفات – غالب ١٠٠ م
عريب (اسم) ٥٣ ، ٥٣ ح
عسقلال = آل عسقلان
عسقلان – امين ١٥
عسقلان – فوزية (ام ابراهيم) ١٦ ، ١٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١
عشي – رفيق ٦٠ ، ٦٠ ح
عصي = المشنوق – عبدالله
علي بن ابي طالب ١٣٦ ، ١٣٦ ح
علي بن الحسين (الملك) ١٣٠
عمر = فروخ – عمر
عمر بن ابي ربيعة ٧١
عواد – توفيق ١٤٨ ، ١٤٨ ح
غاندي ٨١ ، ١٣٥ ح م ، ١٣٦ ، ١٣٦ حم ، ١٣٧
غاندي ، غندي ١٠٩
غمالين Gmaelin ٢٠ ، ٢٠ ح ، ٢٢
غندور – الدكتور محمد روح ٥٨
غورو ١٣٢

ف ق

الفائز – محمد ١٨١
فروخ – آمنة حلمي ٦٠ م
فروخ – عمر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٩ – ٦٢ ، ٧٧ م ، ٧٩ – ٨٠ ، ٨٩ م ، ١٢٦ ، ١٢٦ ح ، ١٢٩ ، ١٣٩
فروخ – مصطفى ٩٥ م
فريحة – انيس ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ح ، ٣٨ ، ٣٨ ح
فريد ١٤٨ ، ١٤٨ م
فريز – حسني ٦٣
فليفل – احمد ١٢٥
فليفل – محمد ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥
فهمي – محمد ١٦٠ ، ١٦١ م ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ح م ، ٢١٠ ح
فهمي – منصور ٣٣
فوز ٩٧ – ٩٧
فيرنس ٤٩ ، ٤٩ ح
فيصل الاول ٨١ ، ١٢٩ – ١٣٠ ، ١٣١ – ١٣٧
القاسم – جمال ٤٢ – ٤٣ ، ٦٣ ، ١٣٩
قاسم – فؤاد ٦٤ ، ٦٤ ح
قرطاس = الخوري (وداد الخوري المقدسي قرطاس)
قريش ٣٠ ح
قليلات – عبد الرحيم ١١٢
القوصي – احسان احمد ٨٣ – ٨٤
القوصي – احمد ٨٤
القيسية ٥٢

ك ل

كاتول – جبرائيل ٤٥
كاسيوس ٤٩ ، ٤٩ ح
الكاظمي – عبدالمحسن ١٤٠ م
كراين ١٢٣
كرو – ابوالقاسم ١٦٠ ، ١٦١ – ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٠ ح ، ١٨٧ ، ١٩٣
الكمكبان = نيكل
كلمنصو – جورج ١٣٢
كنغ ١٣٢
كوراني – حبيب ٣٩ م
كولريدج ٧
كيتس ٧
اللبابيدي – يحيى ٥١
ليفي – ساره ٨٣
ليلي = تين – ليلي

م ن

مار شمون ١٣٥ ح ، ١٣٦ ، ١٣٦ ح م
مـــاري (م . ص) ٣٢ – ٣٣ ، ٨٣ ، ٨٤ – ٩٢
المأمون ٨٣
المتنبي ٦٤ ح، ١٣٨ ح ، ١٤٠ م ، ١٤٠ ح، ١٤٧ – ١٤٩
المحاسيني – زكي ٦٨ ، ٦٨ ح
محمد رسول الله = رسول الله
محمد = جحجوم – محمد
محمود الثاني (العثماني) ١٤
محمود – عبدالرحيم ١٠٤ ، ١٠٤ ح
مرادياي ١٥٣
مرغريتا (راقصة اسبانيـــة) ٤١ – ٤٢ ، ٩٢ – ٩٧
مريم (اسم موضوع) ٢٥
المستكفي الاندلسي ٩٤ ح م
مسلم بن الوليد = صريع الغواني
مشتاق – طالب ٥٦
المشنوق – عبدالله ٩٨ ، ١٢٥ – ١٢٦
المشنوق – مسلم ٢٨
المعري ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٤١ ح م
المغول ١٤
المقـــدسي – انيس ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٢ ح ، ٣٧ ح ، ٣٩ م ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٤ ح ، ٧١ ، ٧٢ ح م ، ٧٣ – ٧٤ ، ١٠٥ ح ، ١٤٧ ، ١٤٧ ح ، ١٨٠
المقدسي – وداد = الخوري – وداد قرطاس
مكماهون – همفري ١٣١ ح
ملاط – شبلي ١٢٣ م
المماليك البرجية ١٤ م
الموالي ١٣
موسى ١١١ ، ١١٢
نابلسي – حسن = هو طوقان – رحمي
نخلة – رشيد ١٢٣ م ، ١٢٤ ، ١٢٤ م
النصولي – محي الدين ٦٦ ، ٦٦ ح
نجار – حليم ٢٨ ، ٣٩
نجم – محمد ٢٧ ، ٢٨
النزارية ٥٢
نزهة – امين ٣٦ ، ٣٧
النشاشبي = آل النشاشبي
النشاشيبي – راغب ١١١ ، ١١١ ح م
نعيمة – ميخائيل ١٨٠ م
النقاش – زكي ٦٠ ، ٦٠ ح
النكدي – عارف ١٧٠ ح
نورالدين ٧٤
نويري – الدكتور محمد خير ٢٤ ، ٢٤ ج ، ٢٥ ، ٢٩ ح ، ٦٩ ح
نيكل (أ.ر) الاهداء.ثم ٤٠ – ٤٢ ، ٧٦ ، ٧٦ ح
نيكولي – ادوارد ٣١ ، ٣١ ح

هـ و ي

هاجر ٧٦ ، ١٤٩ ، ١٤٩ ج
هاشم = آل هاشم
هاشم – ابراهيم باشا ١٣٠
هاشم – احسان ٤٩ ، ٤٩ ج
هاشم – الشيخ فهمي ١٨ م
هركيوليس ٢٤٩
هل – عائشة ٧٢
هل – يوسف ٥٤ ج ، ٧٢ م
الهمذاني = بديع الزمان الهمذاني
الهمشري ٢٠٤ ج
وايلد – اوسكار ٩٦ ح ، ٩٦ م
ولادة بنت المستكفي ٩٤ ، ٩٤ م
الوليد بن عبدالملك ١٢٤ ح
الوليد بن يزيد ٤٣
ويلسن – ودرو ١٣٢
ياسين – عبدالحميد ٨٠ – ٨٢ ، ٩٦ م
يزيد بن عبدالملك ٤٣ ح

اليسوعيون ١٣٨
يوليوس قيصر ٤٩
اليابنة ٥٢ م
اليهـــود ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
يهوذا بن يعقوب ١٤٩ ، ١٤٩ م
يوسف ١٤٩ ، راجع ١٤٩م

للمؤلف

دراسات قصيرة	الثمن بالقرش اللبناني
١ – الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية) ٤٠
٢ – عمر بن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية) ٧٥
٣ – عبدالله بن المقفع	(الطبعة الثانية) ٤٠
٤ – الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية) ١٠٠
٥ – ابن الرومي	(الطبعة الثانية) ٥٠
٦ – احمد شوقي	(الطبعة الثانية) ٦٠
٧ – ابن خلدون	(الطبعة الثانية) ٥٠
٨ – اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية	(الطبعة الثانية) ٧٥
٩ – شعراء البلاط الاموي	(الطبعة الثانية) ١٢٥
١٠ – الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية) ١٠٠
١١ – اربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية) ١٠٠
١٢ – خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية) ١٥٠
١٣ – بشار بن برد	(الطبعة الثانية) ١٢٥
١٤ – نهج البلاغة	(الطبعة الثانية) ٥٠
١٥ – اخوان الصفا	(الطبعة الثانية) ١٥٠
١٦ – ابن باجه	(الطبعة الثانية) ١٠٠
١٧ – ابن طفيل	١٢٥
١٨ – التصوف في الاسلام	٢٠٠
١٩ – الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب	١٥٠
٢٠ – موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية	١٠٠
٢١ – ابو فراس	١٥٠

دراسات اخر	الثمن بالقرش اللبناني
ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة) ١٥٠
ابو نواس : مختارات	٥٠
ابو تمام	١٠٠
حكيم المعرة	(الطبعة الثانية) ٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة	(الطبعة الثانية) ٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الثالثة) ١٥٠
نحو التعاون العربي	١٠٠
دفاعاً عن العلم	(نفد)
دفاعاً عن الوطن	٥٠
الاسرة في الشرع الاسلامي	٤٠٠
600 — Das Bild des Frühislam in der arabishchen Dichtung von der Higra bis Zum Tode Umars, 1-23 d. H. (622-644 n. Ch. Leipzig 1937.	
التبشير والاستعمار	٢٥٠
شاعران معاصران	٣٠٠
الاسئلة الثلاثة (مشهد شعري تمثيلي للمدارس الابتدائية)	٢٥
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط	١٠٠
سفينة الحيوانات (مغناة تمثيلية للاطفال)	نفدت

يمكن الحصول على هذه الدراسات من :

السيد محمد الخوجة

١٥ نهج باب المنارة – تونس

ومن :

Messrs. LUZAC & Co. LTD

46, Great Russell Street,

LONDON, W.C.1.

England

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 02909 2361
PJ7864.U693 Z65
Sha´¿iran

PJ
7864
.U693
.Z65
c.1